

الأمد الأقصى

للقاضي أبي زيد عبد الله بن عمر بن عيسى الدبوسي
المتوفى سنة ٤٣٠ هـ

تحقيق
عبد الغني مستو



شركة أبناء شريف الانصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتب الرئيسي:

الخبندق الغميق - ص.ب: 11/8355

تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875

بيروت - لبنان

• الكاز الشموخية:

بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221

تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261

صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية:

كفر جرة - طريق عام صيدا جزيين

00961 7 230841 - 07 230195

تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875

صيدا - لبنان

الطبعة الأولى

هـ 1437 - 2016

Copyright© all rights reserved

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت الكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

alassrya@terra.net.lb

E. Mail alassrya@cyberia.net.lb

info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت

www.alassrya.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستعديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيه من خلقه وخليله، أدى الأمانة وبلغ الرسالة وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين.

أما بعد:

فهذا كتاب الأمد الأقصى للقاضي أبي زيد عبد الله بن عمر الدبوسي الحنفي (متوفى ٤٣٠ هـ)، الذي جمع موضوعات مستقلة في السلوك الإنساني، والنفس البشرية كانت قد تفرقت فيما سبقه من كتب.

وقد اهتم القاضي الدبوسي في هذا الكتاب بدراسة العلل النفسية والقلبية التي تبطل قبول الأعمال شارحاً قضية الصراع الثلاثي بين الجسم والنفس والروح مبيناً وسائل النجاة من هذا الصراع.

ثم يتحدث عن حكمة أصل الخلق مقارناً بين الإنس والجن والملائكة طارحاً عدة أسئلة مفصلاً الجواب عنها.

ثم يقارن بين أدوار الإنسان والفصول الأربعة، ثم ينبّه بين العلاقة التي تربط بين الرزق والتوكل والسبب.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى كتاب العبودية ثم كتاب الفقر، ثم كتاب الأمر، ثم السجن والمملكة، ثم الميزان، ثم أقسام الناس في الدين، ثم الدعوة والرؤية والبشارة، يبحث كل ذلك بأسلوب عميق ومفصّل ينفذ من خلاله إلى لبّ الموضوع وجوهره من خلال رباعيات مهمة.

وقد يسّر الله الاعتناء بهذا الكتاب القيم حيث قمنا:

- بوضع مقدمة تشرح منهجية الكتاب وأبوابه.
- وضع ترجمة للمؤلف رحمه الله.
- تخريج الآيات القرآنية.

- تخريج الأحاديث النبوية من مصادرها المعتمدة.
 - شرح الكلمات الغامضة.
 - التعليق على بعض المواضيع دون إطالة حتى لا يتغير مسار الكتاب أو يتضخم.
 - وضع عناوين لبعض الفقرات تسهياً على القارئ.
- وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به، وأن يغفر لي ولوالدي وللمؤمنين والمؤمنات، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

عبد الغني محمد علي مستو

الأربعاء ١٤ / آذار ٢٠٠٧

الموافق ٢٥ صفر ١٤٢٨

ترجمة المصنف

أبي زيد الدبوسي رحمه الله (متوفى ٤٣٠هـ)

- نسبه :

هو عبد الله بن عمر بن عيسى، أبو زيد الدبوسي الحنفي .
- ودبوسة هي قرية بين بخارى وسمرقند - أحد القضاة السبعة .

- ثناء العلماء عليه :

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء : وهو أول من وضع علم الخلاف وكان من أذكى الأمة .

وقال ابن كثير في البداية والنهاية : وهو أول من وضع علم الخلاف وأبرزه إلى الوجود .

وذكر السمعاني في الأنساب أنه كان يضرب به المثل في النظر واستخراج الحجج والرأي وكان له بسمرقند وبخارى مناظرات مع الفحول .
- روي أنه ناظر فقيهاً، فبقي كلما ألزمه أبو زيد تبسم وضحك فأنشد أبو زيد :

ما لي إذا ألزمته حجة قابلني بالضحك والقهقهة
إن ضحك المرء من فقهه فالدب في الصحراء ما أفقهه

- المشايخ الذين أخذ عنهم العلم :

منهم : الإمام أبو جعفر الأستروشي، وأبو بكر محمد بن الفضل، والإمام عبد الله السيد مومني، وأبو حفص الصغير، وأبوه الإمام الكبير، والإمام أبو النصر أحمد بن عبد الرحمن الريفد موني .

- وفاته :

توفي ببخارى سنة ثلاثين وأربعمائة .

من مؤلفاته :

- تقويم أصول الفقه .
- تأسيس النظر في اختلاف الأئمة .
- كتاب الأسرار في الأصول والفروع .
- خزانة الهدى .
- الأمد الأقصى (وهو هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ الكريم) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المصنف رحمه الله

الحمد لله الذي أكرمني بأخ زكى مزاجه، وأذكى سراجِه، قد ابتكر الكَلِمَ بنور عقله، وأدرك الحِكمَ بتوفيق ربه، وامتلك النعمَ بوفور فضله، جالسنى مجالسة مستفيد، متأمل في كتاب كل قريب وبعيد.

فلما قرع سمعه من كلامي بدعة، نظر إليّ كالمتعجب لمّا امتلأ مني في صمتي عيناً، وانتشى من سَمْتِي أذناً، وطار منه العُجب والعُجب، فسأل سؤال ذي عقل وأدب فقال:

أيها المتكلم فيما تصدّقه الأصول، وتحقّقه العقول، إني امرؤ خالفتُ المسير، لأقف على بصير، يرفع عن أبصار قلبي من الشُّبُهات سُتوراً، ويكشف لي في المشتبهات أموراً، فكم سلكت له المسالك، وكأنك أنت ذلك.

قلت: العبد عبد وإن سَعِدَ نجمه، وحُمدَ سهمه، ولكني أستعين الله وأستهديه، فلعلّه يوفّقني لكشف ما أنت فيه، هات وفّقك الله للإصابة، ووفّقني للإجابة.

فقال: سعى كل حيٍّ لدرك نفع عاجل، أو لدفع ضرر حاضر، واختصّ العقلاء من بينهم في المطلب بقصد نفع العواقب، ثم اختصّ منهم الطبقة العالية بإتباع الجسم للرتب السامية، فهل عندك علم بالأمد الأقصى فيما ينبغي للعاقل ألا يرضى بدونه لنفسه فيما يسعى؟

فقلت: كلام قصير، هلك دونه الصغير والكبير، وإني غير هاديك إياه إلا بالله العليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أما علمت أيها الأخ الرشيد، والنجم السعيد، أنك عبد لا مشيئة لك، فقير لا ملك لك، مأمور لا حكم لك، مسجون في مملكة الأعداء؟

فقال: نعم، كتاب عزيز جاءني من رب عزّت قدرته، على يدي رسول مبين ظهرت دعوته وفيه: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. وقال: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨]. وقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل

عمران: ١٢٨]. ثم أُيِّد هذا المعنى بقوله: ﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخَيْرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].
 ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. وقال: ﴿مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].
 فتبين أنها للذين لا نصيب لهم في الآخرة، وهم أعداؤنا، ثم أيَّده بقوله: ﴿وَلَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ * وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

فإذا ثبت أن الدنيا لأعدائنا، لم يكن مقامنا فيها إلا بحكم الحبس، إذ العاقل لا يختار المقام في مملكة عدوه بطيبة النفس. ثم فسَّره الرسول المبعوث ﷺ لبيِّن للناس ما أنزل إليهم فقال: «إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»^(١). وهل يُسَجَّن المرء في مملكة من يعاديه على سيرته، أو يضاده في سيرته، وإنما مثل الدنيا للعبد من الجنة مثل بطن الأم من كل الدنيا للأجنة.

قلت: متَّعك الله بحكم الخطاب، وبحكم الكتاب، إن لله آيات في نفسك قبل الصحف والرسول، تضطرك إلى علم ما قلنا من الأصول، فالعبد اسم خاص للملوك من جنس العقلاء، والمملوك اسم لعاقل قُهر بالاستيلاء، وأنت عاقل مقهور بالتكوين والإنشاء، فكنت عبداً ما لك من مشيئة، فإنها عبارة عن نهاية المالكية، وأنت على ضدها من المملوكية، ولأنك تشاء من الخير الكثير، ولا تصيب إلا المقدور.

وإذا كنت عبداً غير أهل للملك، كنت فقيراً لا أميراً في ملك. وإذا كنت فقيراً غير مالك، كنت على حَجَرٍ، لا تتصرف إلا بإذن من المالك أو أمر. وإذا كنت في بسيط الدنيا تحت أمر على فقر، وما استطاع النفوذ منها واحد من الجنس، علمت أن المقام بها على هذه الصفات بحكم الحبس، وأنها لا تُتَصَوَّر مملكة إلا لمن ناكرك فيما قلت وعاداك، فأنكر العبودية، وغلب عليه زِيُّ الحرية، واستولى استيلاء الملاك، وعلا علوُّ الملوك على مَدْرَج الضلال في مدة الإمهال.

فقال: ازدددت بما قلت بصيرة، ورجع قلبي عنك بعين قريرة، فما الأمد الأقصى؟

قلت: أضدادها. فذكرنا إياها فيما بيننا نهاية الجهة السفلى، فتكون أضدادها نهاية الجهة العليا. وهي: العتق والحرية على نفاذ المشيئة والغنى والملك، والإمرة

(١) رواه مسلم في كتاب (الزهد والرقائق) باب (في الزهد في الدنيا وهوانها على الله عز وجل) حديث رقم (٢٩٥٦).

والحكم والولاية والملك، لتفعل ما تشاء، وتحكم ما تريد، وإنها الأمد الأقصى على ما تبلغه الأوهام من مزيد.

فقال: فضل عظيم سماعه، وغرض ظاهر امتناعه، فما نرى للعبد من رُقِّ ربه عتقاً وحرية، ولا ملكاً ومملكة ومشية، فهل من دليل يطمئن القلوب بشهادته؟

فقلت: نعم، إن الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، المنزل من الحكيم الحميد، شهد بما قلته لك في الدار الآخرة ونعم الشهيد، فقال: ﴿هُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥]. ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَكْذِبُ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١]. وقد ذكرنا أن تلك المشيئة عبارة عن نهاية المالكية، ولا مالكية قبل الحرية، وإذا تحقق الملك لم يكن التصرف بحكم الأمر، وجاء المُلْك، وإذا جاء تمتت النفس ذرُّك المُنَى بأيسر الأسباب، وذلك بمجرد المشيئة والخطاب، حتى يقول: كن فيكون، وإن فوق الحرية بيقين.

فقال: هذه صفة من عُرف بالألوهية، فكيف بها فيمن اتَّصف بالعبودية؟ **قلت:** هذه لله حق لله بذاته، وللعبد كرامة من الله تعالى لعبده، بتكوين ما يشاؤه العبد، تعالى الله عن الاشتباه في شيء من صفاته. ولأن العتق في اللغة عبارة عن: قوة للذات يأمن معها العتيق عن التملك بأسباب ملك عُرفَتْ للرقيق، من قولك: عتق الطير، إذا طار عن وَكْرِهِ فَأَمِنَ أَخْذَ الصَّائِدِ، واستيلاءه عليه بقره. وعتاق الطير: جوارحها من جنسها، التي أَمِنَتْ استيلاء أغيارها على أنفسها. والعبد بعد دخول الجنة يأمن كل استيلاء، كما يفعل ما يشاء.

- تعريف الحرية الإنسانية:

والحرية عبارة عن: خُلُوص حق الحرّ له، في نفسه وماله، وما لأحد حق على الفائز بالجنة في شيء من أحواله، فيكون عبداً في ذاته، فهو مخلوق مكنون، عتيق حرّ في أفعاله وأملاكه، فهو منعم عليه مكرم، أُطْلِقَ عن حَجَرِ المملوكية، وعتق من عبادة العابدين، وسقط عنه الأمر، وبايئته الفقر، وتحقق له الملك واستوى على سرير الملك، لكن عطاء من الملك الأعلى، فله الآخرة والأولى.

أليس الحرُّ ممَّنًا يملك عبده فيكاتبه فيصير حرّاً في حق يده وفعله، وهو عبد في ذاته وأصله، غير أن فكنا عن العبد بالكتابة خاص يحتمل الفسخ، وفك الله تعالى عن الفائز بالجنة عام ماله من فسخ، ولنا على المكاتب ضريبة، والله تعالى أبرأه عن ضرائبه، وألزمه بمواهبه، فأشبهه العتيق، والتحق بطريقه في كل طريق. لله الملك وله الحكم، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وهو الحميد المجيد.

- وسائل تحقيق هذه الحرية :

فقال : أوفيتني اليقين، ونفيت عني الظنون، فبين لي السبيل إلى دركها، والسبب لملكها، فالله تعالى خلق الآخرة عطاء جزاء لا ابتلاء ولا ابتداء .

فقلت : بأربع خصال تنال مدى هذا الكمال :

١ - عاملُ ربك بقَسَمِ العبودية معاملة المسخرات من السماء والأرض والجبال، فقد ساويتها في مِنَّة الإنشاء، وقهر الإفناء، وباينتها بمعرفة حكمه القَسَام فلا تزددُ بها شكواً وسخطاً، إن لم تزدد بها شكراً على زيادة الإنعام .

٢ - ثم عامله بقسم الفقر معاملة الوحوش والطيور والأطفال، فإنك وهذه الخليقة في الفقر والحاجة إلى الغذاء على مِثْل، ولكنك في نفسك فُضِّلَت عليها بنيل آلاءٍ لطلب الفَناء، وحيَل الطَّفَر، فإن لم تزدد بها طمأنينة فلا تزدد بها حرصاً مفضياً إلى حَذَر .

٣ - ثم عامله بقَسَم أنك مأمور معاملة الحيوان المجبر المحمول، فقد قاربته في توجُّه الأمر إليك، ووقوعك من الحمل موقعك من أمانة الله عليك، وإنما بآيَتِهِ بإطلاق أحسن الله تعالى به إليك، وجزاء وعده لك، فإن لم تزدد بهما طاعة وهدوءاً فلا تزدد بهما عصياناً وعُتُوّاً .

٤ - ثم عامله بقسم حلولك بمملكة الأعداء معاملة التاجر السالك في مأوى اللصوص والمهالك، فما أنت - إذا حققت النظر - إلا ذلك . غير أن لك داراً أخرى بلا خوف ولا حَذَر، وسوقاً تربح بلا خُسَر، فإن لم تزدد بهما في الرحيل نشاطاً، فلا تفرش بهما للمقام بساطاً .

فإذا رضيت بقَسَم الحق، ولم يتعبك خوف الرزق، وسارعت إلى الأمور، وأسرعت بقلبك عن الدنيا المسير، جاءك عند المنزل البشير ملائكة الله : ﴿ **أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ** ﴾ [فصلت: ٣٠] .

خفتموني في الدنيا على غيب، فيها أنتم آمنون، وكنتم فيها مسافرين، فيها أنتم في الجنان خالدون .

فقال : صدقت، ولكنه أمر عسير، ما أرى عليه عبداً بقدير، ففي النفوس دواعٍ إلى ضدها، وموانع عن ردها، إلا من أعطي فضل بصيرة وتوفيق، ثبت على سواء الطريق، فأعزني أيها المنعم بالتعليم، زيادة نور من العلوم، لعلني أكرم عند ذلك بشرح صدر من الله تعالى، فأهتدي إلى الحق، وأعتصم من شر النفس والخلق، فبين لي كل ما يحتاج إليه العبد، ليصير الحق لديه يقيناً، ويقف عليه مكيناً .

فقلت: فر إلى الله تعالى، فإنه مجيب من اضطرّ إليه، حسب من توكل عليه، ولله تعالى عباد وصلوا بتوفيقه إلى الحكم في محكمات صنعه، فاستخرجوها بألفاظهم لعباده، على موافقة شرعه، فبلغوا بذلك مراتب الأنبياء، وصاروا قادة الأولياء. قال ﷺ: «علماء أمتي كأنبيا بني إسرائيل»^(١). وإني قد جالستهم، ونور الله تعالى لأبصار قلبي مصباحاً، ثم تضرّعت إليه فآتاني - وله الشكر - لمغلق الحكم مفتاحاً. وإني ذاكر إن شاء الله لك ما تنشرح به الأمور، وتهتدي به الصدور.

وشكراً لله بالتحديث بنعمته، وإظهار كريم قسمته، ولا حول ولا قوة إلا بالله باري النهي، والصلاة على رسوله سيد الورى، وآله مصابيح الهدى. والله أعلم.

(١) أورده الشوكاني في (الأحاديث الموضوعة) ص (٢٨٦) وقال: (قال ابن حجر والزركشي: لا أصل له).

كتاب جهاد النفس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله خلق الدنيا مهلكة، وباطن الجسم معركة، والآخرة مملكة، أراها من سعد وأعمى عنها من شقي، وأحق على من أحاط مهالكه بمعاركه أن يرى نجاته في قراره، ومماته في فراغه.

والصلاة على من بعث لها مفسراً فقال: «أفضل الجهاد جهاد النفس»^(١).
وذلك: أن الجسم في كل ذي عقل منا مبتلى بأربعة: الروح^(٢)، والنفس^(٣)،

(١) موجود بمعناه عند النسائي في كتاب (الزكاة) باب (جهد المقل) حديث رقم (٥٢٧) وغيره.
ونص الحديث عند النسائي: أن النبي ﷺ سئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان لا شك فيه، وجهاد لا غلول فيه، وحجة مبرورة» قيل: فأى الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت»، قيل: فأى الصدقة أفضل؟ قال: «جهد المقل»، قيل: فأى الهجرة أفضل؟ قال: «من هجر ما حرم الله عز وجل»، قيل: فأى الجهاد أفضل؟ قال: «من جاهد المشركين بماله ونفسه»، قيل: فأى القتل أشرف؟ قال: «من أهرق دمه وعقر جواده».

(٢) اختلف أهل التحقيق من أهل السنة في الأرواح، فمنهم من يقول: إنها الحياة، ومنهم من يقول: إنها أعيان مودعة في هذه القوالب لطيفة أجرى الله العادة بخلق الحياة في القالب ما دامت الأرواح في الأبدان.

فالإنسان حي بالحياة، ولكن الأرواح مودعة في القالب ولها ترك في حال النوم ومفارقة البدن ثم رجوع إليه.

وإن الإنسان هو الروح والجسد لأن الله سبحانه سنّ هذه الجملة بعضها لبعض والحشر يكون للجملة والمثاب والمعاقب هو الجملة والأرواح مخلوقة ومن قال بقدمها فهو مخطئ خطأ جسيماً والأخبار تدل على أنها أعيان لطيفة [الرسالة القشيرية، ص (٢٨٨)].

(٣) نفس الشيء في اللغة وجوده، وعند القوم (أي الصوفية) ليس المراد من إطلاق لفظ النفس الوجود ولا القالب الموضوع، إنما أرادوا بالنفس ما كان معلولاً من أوصاف العبد ومذموماً من أخلاقه وأفعاله. ثم إن المعلولات من أوصاف العبد على نوعين، أحدهما: يكون كسباً له كمعاصيه ومخالفاته، والثاني: أخلاقه الدينية فهي في أنفسها مذمومة فإذا عالجهما العبد ونازلها تنفّي بالمجاهدة عنه تلك الأخلاق على استمرار العادة.

إن القسم الأول من أحكام النفس ما نهى عنه نهى تحريم أو نهى تنزيه، وأما القسم الثاني فسفاسف الأخلاق والديني منها، هذا حده على الجملة، ثم تفصيلاً فالتكبر والغضب والحقد =

والقلب^(١)، والرأس.

فالنفس تأمر باستعمال الرأس، وحواسه تأمر الجسم وتنهى للعاجل وهو الدنيا. والروح باستعمال القلب عقله للجسم أمرة وناهية للآجل وهو الأخرى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ * وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَىٰ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧، ٤١].

الصراع بين الجسم والنفس والروح:

فالجسم رعية، والنفس أمير من الدنيا، والروح - والله أعلم - أمير من عند المولى، والرأس والقلب وزيران لهما، وعمل الأميرين على سبيل التسخير والإجبار، وعمل الوزيرين والرعية على سبيل الاختيار^(٢).

ولكل أمير أعوان أربعة: فالدنيا تعين النفس بقوة تواتيها، بوقت من السنة يوافقها، وبفضل شباب من عمره يرافقها. وينصر الدنيا على ذلك أبنائها من جنسها من الشياطين بوسوسة باطنة. والله تعالى يعين الروح بآفات تسلب القوى

= والحسد وسوء الخلق وقلة الاحتمال وغير ذلك من الأخلاق الذميمة. ويحتمل أن تكون النفس لطيفة مودعة في هذا القلب هي محل الأخلاق المعلولة، كما أن الروح لطيفة في هذا القلب هي محل الأخلاق المحمودة وتكون بشكل عام مسخراً بعضها لبعض والجميع إنسان واحد، وكون الروح والنفس من الأجسام اللطيفة في الصورة ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة. وكما يصح أن تكون العين محل الرؤية والأذن محل السمع والأنف محل الشم والفم محل الذوق، وكذلك فالسميع والبصير والشم والذائق إنما هي الجملة التي هي للإنسان، فكذلك محل الأوصاف الحميدة للقلب والروح، ومحل الأوصاف الذميمة هو النفس، والنفس جزء من هذه الجملة والقلب جزء من هذه الجملة والحكم والاسم راجع إلى الجملة (الرسالة القشيرية)، ص (٨٧).

(١) إن أشرف ما في الإنسان قلبه، فإنه العالم بالله والعامل له والساعي إليه، المغرب المكاشف بما عنده، والجوارح أتباع وخدام له يستخدمها القلب استخدام الملوك للعبيد... إن القلب بأصل فطرته قابل للهدى وبما وضع فيه من الشهوة والهوى مائل إلى ذلك، والتطارد فيه بين جندي الملائكة والشياطين دائم. فالقلب كممثل حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن ويملكه ويستولي عليه ولا يمكن حفظ الحصن إلا بحراسة الأبواب، ولا يقدر على حراسة الأبواب من لا يعرفها. (مختصر منهاج الصالحين لابن قدامة)، ص (١٣١).

(٢) يقول الغزالي: إن البدن كالمدينة والعقل كملك مدبر لهذه المدينة، أما قوى العقل المدركة كالحواس الباطنة والظاهرة كجنوده وأعوانه، وأعضاؤه كرعيته... والعقل كفارس متصيد وشهوته كفرسه وتحصينه ككلبه فمتى كان الفارس حاذقاً وفرسه مروضاً وكلبه معلماً مؤدباً كان جديراً بالنجاح. ونفس الإنسان في بدنه كممثل ملك في مدينة ومملكته. فالبدن مملكة النفس والقوة العقلية المفكرة كالوزير والشهوة كالعبد السوء. (إحياء علوم الدين ٧/٣).

بحلولها، والشبهة بنزولها، وينصر الله على ذلك عبید الله من جنسه من الآدميين بدعاء جلي، ومن خلاف جنسه من الملائكة بإلهام خفي.

فالجسم ما عاش من الابتلاء أبدأً، قال الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملک: ٢]. وذلك في جهاد النفس، وهو تأويل قول رسول الله ﷺ صاحب التنزيل: «أفضل الجهاد جهاد النفس»^(١) فإنها العدو الحقيقي المستولي على جسمك، والمأيوس عن موالاته، وقال عليه السلام: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»^(٢). يعني به: النفس. كذلك حين قال عليه السلام: «رجعنا من الغزوة الصغرى إلى الغزوة الكبرى»^(٣). يعني به: من جهاد الكفرة إلى جهاد النفس^(٤).

فالنفس جاهلة بالروح، منكرة إياها، جاحدة بالأخرى وبمولاهها. والروح عارفة بالنفس والدنيا، وهي مرسله من عند المولى، فالجسم القلب المصور المؤلف المحسوس بعد الموت، والنفس والروح ما اتصفتا بالقوت.

أما النفس فيحتمل أن تكون هي الطبائع الأربعة، التي ليس منك بمحسوسة، من حرارة، وبرودة، ورطوبة، ويبوسة، التي جعلها الله تعالى أصلاً لكل ما جبلت عليه، ثم جعلها علّة لحياتها إذا اعتدلت، لكونها بعضاً منها، ثم نشوئك من فضلها، وارتزاقك من نزلها، ثم عودك إلى أصلها.

وقد أبان الله ذلك لمن كلّ بصره، أو قلّ نظره، فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٠٠﴾

(١) موجود بمعناه عند النسائي في كتاب (الزكاة) باب (جهد المقل) حديث رقم (٢٥٢٧).

(٢) رواه المناوي في فيض القدير ج/١ ص (٧١١).

(٣) رواه البيهقي في كتاب (الزهد).

(٤) قال الأستاذ أبو علي الدقاق: من زين ظاهره بالمجاهدة حسن الله سرائره بالمشاهدة، واعلم أن من لم يكن في بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمعة تنير له الطريق، وقال: من لم يكن في بدايته قائماً لم يكن في نهايته جالساً، وقال السري: يا معشر الشباب جدوا قبل أن تبلغوا مبلغ فتضعفوا وتقصروا كما ضعفت وقصرت، وقد كان الشباب في ذلك الوقت لا يستطيعون مجاراة السري في العبادة.

وقال إبراهيم بن أدهم: لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجتاز ست عقبات: أولها: أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة، والثاني: أن يغلق باب العز ويفتح باب الذل، والثالث: أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد، والرابع: أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر، والخامس: أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر، والسادس: أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت.

[آل عمران: ٥٩، ٦٠]. وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٣].

فتأويلها - والله أعلم - أن بدء الخلق كان قبضة من تراب، فمزجت بقبضة من ماء، فصارت سلالة من طين تنسل من بين الأصابع لو قبض عليها، ثم مكث ما شاء الله حتى اعتدل كأنه حمأ مسنون، يقبل التصوير، فصوره، ثم سلط عليه الريح حتى يبس، فصار صلصلاً يتصلصل كالفخار، ثم حرّكه الجبار وأحياه بالحرارة المركبة في الدم، حتى استكملت الطباع فكانت نفساً، فنفس الشيء عبارة عن هويته، وهوية الآدمي من الدنيا: صورة ومعنى.

الروح عند رب العرش مبدؤه وتربة الأرض أصل اللحم والبدن
وهكذا ألف الرحمن بينهما ليصلحا لقبول العهد والمنن

ثم لما كان هذا الخلق للابتلاء، ثم للجزاء في دار البقاء، وهي غير دار الفناء، وهذه النفس من دار الدنيا داعية إليها - كنفوس البهائم - قرن الله الروح الناطقة التي هي للملائكة إلى هذه النفس، فأحيا بها كل هذا العالم، لتكون الروح داعية إلى المولى، ودليلاً على البقاء بعد فناء الأولى، والله أعلم بحقيقة الأمر، فهو علام كل شيء.

ثم لم يجعل إلى هذا العلم سبيلاً بقوله: ﴿وَيَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]. بعدما عرف الفلاسفة النفس، وأوضحوا عليها دليلاً. وقال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ٨٥]. وقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]. فأضافه إلى نفسه على الخصوص، إضافة تكريم، كبيت الله، وناقة الله.

والنفس موصوفة بالذم، حتى سميت طاغوتاً، وأمارة بالسوء، وكان هواها بخلاف هدى الله. قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]. وقال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. قيل: طاغوت كل امرئ نفسه^(١).

فأبان لك أنهما ضدان أميران، لأن حياة الجسم بهما. النفس منكرة للروح، لإنكارها المولى والدار الآخرة، ولفنائها مع حياة الدنيا. والروح - والله أعلم - لها عرفان بالنفس، لأنها مضافة إلى المولى، وحلت بأمره بالورى. وقد قطع الشبهة لما لم تحد أبصار قلوبهم، وحدث أسماع رؤوسهم قول النبي ﷺ: «أفضل الجهاد

(١) قال الجوهرى: والطاغوت الكاهن والشيطان وكل رأس في ضلال.

جهاد النفس». فإن الروح تضاف إلى الله، كبيت الله، وعبد الله، وناقة الله، وجهادها كفر.

وأما الرأس والقلب فوزيران للأميرين المتضادين: الرأس للنفس، والقلب للروح. لأن الرأس لا يستعمل إلا الحواس، ولا تنال بها إلا المنافع العاجلة من الدنيا، فتري النفس الجسم ما أدركت بحواسها، وتأمّره بطلبها وشرائها، ولا حظ لها في درك ما تدعو إليه الروح من الآخرة، وإن اجتهدت ناظرة.

وأما القلب فإنه ينظر بنور العقل، وإنه كالشهاب للعين، ونظرة: التأمل في المغيبات، ليبصر به نفع المغيبات بعين العواقب التي هي باقية، فتري الروح الجسم ذلك، فتأمّر بترك المبادئ التي هي ماضية. وقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرَ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وبين الوزيرين مصالحة، لأن درك بصر القلب بالعقل، وقوام بصره بالدماع الذي في الرأس - القلب كالفتيلة، والعقل كالشهاب، والدماع كالزيت - فأى الأميرين غلب كان الوزيران له، فسبحان من جمع بين أميرين متخاصمين في جسم واحد لإظهار حكم المحنة.

ثم أمدّ النفس بغلبة المجانسة والعدد الكثير، وسلبها - بالعمى عن الروح - لطف حيل البصيرة. فالنفس أربعة، والحواس خمسة.

ثم أمدّ الروح - وإن كانت واحدة والعقل واحداً - بمعرفة النفس لترد تهورها بتفكرها، فالفكرة أنفع من الكرة، والحيلة أبلغ من القوة.

ثم ظاهر كل واحد منهما بوزيرين، بينهما هدنة على غير دخن، وجماعة على غير سكن ليكون القلب إذا علمت النفس معها، فيريها في دفع دنياها نفع مصادرها، وارتفاع مصالحها بترك مواردها، لترجع عن رأيها في اختيار العاجل المكدي، على الأجل المجدي، إلى اختيار نفعه في الثاني، على القليل الفاني، فيبيع الحاضر نسيئة لربح موهوم، ويزرع الموجود - وفيه إتلافه - لنماء يدوم، فيعرف الجسم عند رجوع النفس إلى رأي القلب رجحان القلب عليه، فيرجع عن طاعته إلى القلب، ويقف لديه، فينفك القلب بانعزال النفس عن أسر الهوى، فيعود إلى الروح بأمر المولى ومعه الجسم، فتصير الروح والية وأمرة بتجارة ربحها يقين عظيم، وزراعة نماؤها نعيم مقيم، ونهاية عن نقد ستوقة^(١)، وسلعة تزيفها السوقة

(١) ستوق: بفتح السين وضمها أي زيف مبهرج.

[مختار الصحاح للرازي، مادة (س ت ق) ص ١٤٢].

لئلا تكون للناس في الله شبهة بعد العقول ولا حجة بعد الكتاب والرسول، وكان فضل الله عظيماً، فالحمد لله على آلائه حمداً كريماً.

أيها الجسم المبتلى، قد بينا لك جهادك، وجهة ابتلائك، ومولاك ورسوله الداعي إليه، وعدوه الناهي عنه، فأحسن الاختيار، وإياك والغفلة، فعندها تغلب دواعي الجبلة.

وسائل النجاة من الصراع:

قال الجسم: آهاً على جهاد ما قدر إلا بالنفس ولزمه عصيانها، وما ارتضع إلا من أخلاف الدنيا وافترض عليها كفرانها، فمن لي بهما، وأنى ذلك، وكأني مخدوع هنالك. افتضحت وأنا في لجة أمواجها طامية^(١)، وأوديتها هامية^(٢)، وشطوطها نائية^(٣)، كيف النجاة من الهلك، بلا ملاح ولا فلك؟

قلت: أفرخ روعك، وأفلح دوحك^(٤). إن الدنيا بحر، ونفسك سفينة، تسقيك من درها^(٥)، وتقيك من ضرّها، وتخلك من درها، ولا تحملك إلا في قعرها، فإنها لا تجري على اليبس. والرسول ملاح، والعقول نجوم، والتوفيق من الله ريح طيبة، والمقذاف النفس.

فقوم السفينة بالمقذاف، واستدل بالنجوم، وأطع الملاح، ولك البشري بالريح ثم الفلاح ثم لا حاجة لك إلى فلك البحر إذا كنت بالبر، ومجبت أجاج البحار إذا أنهلت بزالال الأنهار.

فإذا ابتليت أيها الجسم بأربعة، فقد أعطيت للنجاة أربعة، فلماذا الجبن؟ فإن الجبان لا يعدوه الحين^(٦). على أن الاثنين من الأربعة التي كان بها الابتلاء داعياك إلى البر، والثالثة بوزيرها حاملتك في البحر، فلم يبق إلا المسير في طاعة الملاح، وهداية النجوم بريح طيبة، تلقى بها عن قريب الشط على سلامة، وتتلقى فيه أنواع كرامة.

وإن شط السفينة للحد^(٧)، فإن لمن قوم السفينة روضة الخلد، فيا عجباً من

(١) أمواج طامية: أي مرتفعة.

(٢) يقال: همى الدمع والماء أي سال وجرى.

(٣) شطوطها نائية: أي بعيدة.

(٤) الداح: نقش يلوح به للصبيان يعللون به، يقال للدنيا: داحة والدوحة: الشجرة العظيمة من أي شجر كان والجمع دوح. مختار الصحاح، مادة (د و ح) ص ١٠٩.

(٥) درها: أي لبنها.

(٦) الحين بالفتح: الهلاك.

(٧) للحد: هو القبر.

راكب انقاد لمركوب، وجرى على هداه لدرك خطوبه، ثم رضي بالطريقة، وظن أنه أصاب الحقيقة.

أسفه أبلغ من ذلك؟ أم هلاك أحق من هلاك ذلك؟

يا ذا الذي ظننت الدنيا سريرك، والنفس أميرك، لقد أبعدت النجعة^(١). أن الدنيا يم طاغ، والنفس فلك جار.

فأسرع الرجعة، فما البحر للتاجر بمقام، ولا الفلك للسفر بإمام، وإنما هو آلة العبور، فإياك وطاعته فإنه غرور، وسيلحقك عن قريب الغرق وأنت مستقيل ولات حين إقالة، فقد أتممت الصفقة خاسرة على جهالة، وكنت حبيس الحباب^(٢)، فصرت فريس الدواب، فالقبر لمن أطاع النفس - على ما اختارت - حفرة من حفر النار.

خدعك الفلك ثم فارقك، وأطمعك في الملك وما رافقك، لا رؤية إلا بالتوفيق، ولا وقفة على الطريق، ولا حذر بعد الصرعة، ولا ندم بعد الوقفة، وإن العبد متى رأى بحسه، وأدرك بنفسه، قصر دركه عن درك الوحوش، لقوامها بمجرد قوى النفوس، فخرجت بالجسوم دلالة على منافعها ومضارها، لتصل بها إلى مصالحها مدة قرارها، وسلب الأدمي ذلك لما علقت مصالحه بالعقول والأسماع، ليكون سبباً للرجوع إليها عن النفوس والطباع، حتى إن فرخ الطائر - مع قوة الحراك - لاث على وكنته^(٣)، ما لم ير الطيران في قدرته، ويمتنع عن تلك المهالك صغار أولاد النعم، ويفقد مثله في بني آدم إلى أن يهتدوا بعقولهم، ويبصروا بقلوبهم.

نتيجة هذا الصراع:

ومتى رأى العبد بقلبه، وأدرك بتوفيق ربه، سبق دركه درك العباد النورانيين^(٤)، حتى علم آدم عليه السلام ما غاب عن الملائكة أجمعين، ولم يبلغنا من علمهم إلا أشياء مقصورة على السماع والمسموعات، وتعدت علوم بني آدم إلى المستنبطات.

فالمسموع وإن كثر فمحصور، والمستنبط غير محصور، وذلك تأويل قوله -

(١) النجعة: طلب الكلاء في موضعه، تقول: منه انتجع، وانتجع فلان أيضاً أياه يطلب معروفه.

والمنتجع بفتح الجيم: المنزل في طلب الكلاء.

(٢) حَبَاب الماء: بالفتح معظمه وقيل: نفاخاته التي تعلوه وهي اليعاليل.

(٣) وكنة الطائر: أي عشه.

(٤) أي الملائكة.

والله أعلم: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِثًّا بِمِثْلِهِ﴾ [الكهف: ١٠٩]، ليكون احتجاجه عليهم بما أوتوا من كلمات الرب جلّ جلاله، لا بما اختصّ الله تعالى بعلمه من الغيب، فيكون أبلغ في الثناء على الله تعالى، وأبعد من الريب، بخروج أنواع علوم الاستنباط في الناس عن الحصر تحريراً، أو الحد تفسيراً، فإنها تزداد كل يوم بلا نهاية لا ينكرها ذو حاسة صحيحة وعناية.

وإني لما وقعت على هذه الخصلة أعميت عيني بقلبي، وعصيت نفسي بربي، متخشعاً خشوع العبيد، متقوياً بالقوي العزيز المجيد، فهداني لحكم الطريقة، وأراني حكم الخليقة، وكشف لي الأسرار في المصنوع، فاستوى في عقدي عندها الغروب والطلوع، وإني بتوفيق الله تعالى ذاكر لك منها ما يهدي إليك لدى طلاق الدنيا قراراً، ويلزمك عند نكاحها إلى الله فراراً، ولله الحمد على ذلك وشكراً، وصلاة على محمد وآله شفعاً ووتراً.

كتاب حكمة أصل الخلق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق لا عن أصل موجود، وجمع بين الأضداد بلا تقييد، فجعلها أصلاً للتكوين، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، علماً بملكه وحكمته، وإيقاناً بفقرهم وسفاههم، والصلاة على من اختير من بني آدم لإقامة المطلوب من خلق العالم.

خلق الله تعالى العالم من أضداد أربعة غير محسوسة: حرارة، وبرودة، ورطوبة، ويبوسة. وخلق قوامها بالماء، والتراب، والريح، والنار. وهي أضداد، لحكم أربعة - والله أعلم من العباد - ليدل على أنها دار ابتلاء، لا دار جزاء، إذ نشوؤها وقوامها باعتدال الأضداد، وهو نفس البلوى، وبذلك تقوم الدنيا.

وليعلم أنها دار نفاق، إذ قلما يميل إلى الآباء، ومهادنة الأضداد، وليعلم أنها دار متعة بمنافعها، لا دار اقتناء لجواهرها، إذ قوامها بالتراب والماء والريح والنار، ومن الانتفاع بهذه الأصول ملاك، وفي جمعها واقتنائها هلاك، وليعلم أنها دار اختلاف لا تتفق نفوس سكانها على وتيرة، ولا تجتمع قلوب أصحابها على سريرة، بل هم أطوار، ولكل حزب اختيار، فرح بما لديه، وعرج همه عليه، يحب من ألفه، ويعيب من خالفه.

لماذا فُضِّل الإنسان على الجان؟

ثم خلق الله تعالى آدم من تراب وماء، وهو الطين، على ما نطق به الكتاب المبين، وخلق الجان من مارج من نار السموم، ونقل خلافة الأرض منهم إليه، وبأن فضله عليهم فيه، لحكم أربع أصلية - والله أعلم - دالة على فضيلة آدم عليه السلام.

إحداها: أن المارج من النار منتفع به باتصال عرضه دون جوهره، والماء أصل منتفع بجوهره وعرضه، فالماء مشروب ومحمول، والتراب منتفع به انتفاع أصول.

وثانيها: أن في طبع النار العلو، ومنه الاستكبار والإنكار، وفي طبع الماء والتراب التسفل، ومنه التواضع والإقرار.

وثالثها: أن النار تغير الهيئات، وتأكل الذوات، والماء مع التراب أصل ينمي الأصول من الحب والنواة، ويبيي الفضول من الجيف والأموات.

ورابعها: أن بين الماء والتراب اعتدالاً ظاهراً، حتى كان التراب أصلاً لقرار الماء عليه، والماء مزاجاً له، لاستنماء الفوائد منه، فقد كان مثله في خيرهما.

ثم هذا ليستدل الآدمي بالحكمة الأولى على ما صرف عنايته فيما يهذب ذاته لا أعراضه، وحصص همته على ما يجمع إلى مصلحة الذات أغراضه.

ويستدل بالحكمة الثانية على فرض رؤيته من الله عليه، وشدة افتقاره إليه، وفقد الوسائل إلى استحقاق ما به أكرم، وتوالي أسباب ما حرم.

ويستدل بالحكمة الثالثة على استنمائه الأصول المثمرة للآخرة، ثم اقتنائه ما تخايلت نعماً ظاهرة.

ويستدل بالحكمة الرابعة على قوة أصله، وانقطاع سلطانه من دونه على نفسه، وكفايته بغلبة من سواه، لكن على وقار ومهل، ومثل عمل الماء والتراب، دون عمل النار على البدار والعجل، ولذلك ضرب الله مثل المؤمنين بزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه.

لماذا سجدت الملائكة لآدم؟

ولهذه الخلقة - والله أعلم - أربع حكم أخرى في ابتلاء الملائكة بالسجود له، وجعله خليفة البشر، فإن الله تعالى رأى من الحكمة - والله أعلم - أن ابتلى الملائكة باستخلاف آدم على أهل الأرض فقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وابتلاهم بالانقياد لحكمه قبل الوقوف على حكمته، فرد عليهم قولهم: ﴿أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٤]. بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]. وابتلاهم بالسجود له، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ [البقرة: ٣٤]. فنشأت حكم هذه البلوى من حكم تضمنها أصل هذا الخلق، وعند معرفتها تطمئن القلوب.

فالحكمة الأولى: أن الماء والتراب أصل للظلمات ظاهراً إلى عدل وانحدار، والملائكة نورانيون، والجان نارية. وفي النار نور ثائر إلى قوة واقتدار. فابتلوا بقبول خلافته، وفيها تفضيل ما أظلم وعجز نفساً على ما استنار وقدر حساً، وأنه بخلاف الأصول، وعند ذلك ابتلاء ذوي العقول.

والثانية: إبانة افتراض الانقياد بنقصان العبودية للعالم الحاكم بحكم الربوبية، إذ لو خلقها على أساس عرفت مزيتها بالحواس، لم يكن الإقرار بحكم الانقياد للسمع، بل كان بحكم إدراك حكمة المسموع.

ثم علم آدم عليه السلام الأسماء كلها، ممّا غاب عن الملائكة، حتى وقفوا بذلك على فضيلة المخلوق، وقدرة الخالق. إذ زيادة العلم لن تكون إلا بزيادة الإدراك والنور، فكان في ازدياد نوره ظهور فضله، وفي ظهور النور - من أصل الظلمات - ظهور قدرة ربه، وذلك ما لا يقدر عليه إلا الواحد الصمد.

ثم ضرب لذلك مثلاً من الظاهر: نور يلعب من سواد الناظر، وفيه إبانة أن الفضيلة الأصلية في الدنيا بالعلم دون الولاية، إذ الله تعالى ما ألزم الملائكة فضل آدم بجعله خليفة في الأرض، ولكن بما خصه من علمه.

وفيه أيضاً إشارة إلى اتباع الباطن دون الظاهر بنفسه، وأن الابتلاء كله من جنسه. وفيه أن تصديق الرب وإن كان واجباً على النفوس، فتعرف الحكمة جائز، لتطمئن إليه القلوب.

والحكمة الثالثة عن أصل الخلقة: إبانة تحقيق الخلافة له في الأرض، لأن أصل الأرض تراب، والماء مزاج، وغيرهما أتباع، فالجبال أوتادها وما سواها فمنها أولادها، والريح والنار تغير الأصول، والأصلح الخلافة كل بقعة من كان من أصلها، ولذلك لم يرسل الله رسولاً إلى قري إلا من أمها وأصلها.

الحكمة الرابعة: إبانة حكمة الابتلاء، إذ هي ظهور المطيع من العاصي لاستحقاق الجزاء، وكون الخلق من صعيد واحد من الأرض أدل على هذه الحكمة، لاجتماع الصعيد على طيب منبت طيباً زاكياً، ومنبت طيباً غير زاك، وخبيث لا ينبت شيئاً، أو منبت خبيثاً. والنار عملها متفق، والنور كذلك، فقلما كان تنشعب عنهما المسالك، ولذلك كانت الملائكة نمطاً واحداً لم يظهر منهم عصياناً. والشياطين وهم الجان نمط واحد لم يوقف منهم يقيناً على إيمان، واختلفت الإنس أطواراً على شواكل، وتفرقوا موارد ومناهل.

ثم الله تعالى كما أراهم بعلمه فضله عليهم من باطنه، أراهم كذلك بحسن صورته فضله من ظاهره، فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]. ليدل بحسن التدبير على زيادة التكريم.

وقد أبان الرسول عليه السلام ذلك بما روي عنه: «وخلق الله آدم على صورته»^(١). وتعالى الله عن حد الصور والأجسام، وإنما هو عبارة عما يقدر له من

(١) رواه البخاري في كتاب (الاستئذان) باب (بدء السلام) حديث رقم (٦٢٢٧).

الإحسان والإكرام. فصورة الله تعالى: ما اختارها وأحبها، كناية الله من بين النوق، وبيت الله من بين البيوت. وكذلك السلطان يقول: أجلس فلاناً على سريري، وإن لم يجلسه على سرير نفسه، ولكن على ما اختار وأحب من السرر من جنسه، ليدل باختصاص آدم بالزينة الظاهرة، والحكمة الباطنة، على أنه المستحق لخلافة الله تعالى على عباده، والإمارة على بلاده.

تعالى الله من حكيم ومدير، وعليم ومقدر، واستغنى عن المثال فلم يسمح بدعه، وتعالى عن اللغوب^(١) ولم يتفاوت صنعه.

ثم دل بكونه خليفة في دار الابتلاء، على أنه السيد في دار الجزاء، إذ تلك الدار على هذه بناء، وأن الكونين خلقا له ولأولاده، وأنهم المقصودون من جملة عباده.

أف لعبد نظر إلى أصله فوجده ماء مهيناً، وإلى ربه فوجده قادراً قديماً، ثم رأى العاجلة زاداً لمدة بلائه، والآجلة معدة لجزائه، والشياطين ملعونين بسببه، والملائكة مرسلين لرصده، إلى أنبياء عليهم السلام من البشر، وبينات من الصحف، على استغناء الرب عنه، وافتقار العبد إليه، ثم شك في قسمته، أو عصى بنعمته، ثم ادعى أن لقلبه عقلاً، أو لأمره أصلاً.

ألا ينظر العبد في أحواله مدة حياته وعمره، وإلى فصول لياليه ونهره، إن غفل عن حكم الأصول، واشتغل بالنعم والفضول، وأنها أحوال محسوسة عياناً، وفصول مدركة إيقاناً، والله تعالى في كل ما أبدى وأخفى عبرة وحكمة، من أبصرها عبر، ومن عمي عنها عثر، ولا بصر إلا بعقل، ولا عقل إلا بفكرة ولا فكرة إلا بعد طهارة الفطرة.

ولله الحكم، يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وهو الحكيم العليم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولا نجاة إلا باتباع من جاء لهذا الفضل معيناً، وداعياً إلى طرقه وهادياً مبيناً.

(١) أي عن التعب.

كتاب الفصول الأربعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمدت من تمت نعمته، وجلت حكمته، وأثمرت طهارة الفطرة جنى العبرة، فاجتنتها أنامل التأمل للهوات القلوب، واستحلّ لها مذاق الألباب لمنشرح الصدور، فاطمأنت النفوس إلى نفائس ما أدركت، وأعرضت عن أغراض فيها بقيت الأعراض ثم هلكت، فقسم أحوال الآدمي إلى فصول أربعة، وأوفاه إياه في فصول من الزمان أربعة.

فصل الاجتنان، ومثاله الشتاء من الزمان.

وفصل الصبا، ومثاله من السنة فصل الربيع.

فصل الشباب، ثم فصل المشيب، ومثالهما من الزمان: الصيف ثم الخريف.

وذلك على طبائعه الأربعة: البلغم، والدم، والصفراء، ثم السوداء.

ثم جمع هذه الفصول في فصول العمر، ليدل بتفاصيل السنة على ما تدل عليه الجملة.

وصليت على رسول الله إلى كافة خلقه، عرف العاجل بصدقه، والله تعالى لحقه، فأعرض عن الدنيا وقد عرضت عليها بخزائنها، فأسفرت له بدفائنها، ثم خير نساءه على ما اختار من الترك، ولم يورث إلا العلم^(١)، فقرب منه بالتعليم البعيد فورث، وبعد عنه بالتغافل القريب فحرم، ليبين لكل عاقل فضل سبب الدين على فضل النسب الكريم.

أدوار الإنسان والفصول الأربعة:

ثم اعلم - متعني الله بالإبلاغ، ومتّعك بالاستماع - أن الله تعالى - وهو أعلم - قسم ابتداء النشوء من البلغم، وفي طبعه ضعف ظاهر، وعجز حاضر، ليعرفك أن المنشأ من سواه، قد فقد القدرة في معناه. وختم الحياة بالسوداء، وعندها التمام

(١) إشارة لقول النبي ﷺ: (العلماء ورثة الأنبياء) رواه البخاري في كتاب (العلم).

وصلاح المرء للخاص والعام، إذ كمال الآدمي بحسن الرأي، ولطف الحيلة، وهما نتيجتا التجربة والفكرة، وكمال حالهما فضل السوداء، ثم كان مقروناً بها الفناء، ليدل على أنك مقهور بطبعك لمن أنشأك على ضعفك.

ثم ضرب لك مثلاً لذلك: تحولك عن عجز بشتاء تحرك الأجنة في بطون الأرض، وربيع يديها، وصيف ينميها، حتى إذا كان الخريف ولاحت الثمار على التمام، جاء أوان الصرام، ثم نطق به الكتاب فقال: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْطَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ﴾ [يونس: ٢٤].

ثم ليبين له أنك لا يد لك فيه، مضت طفولتك إلى صبا ما لك فيها من رجعة، وانقضى الشباب إلى المشيب على سرعة، وجاءك الخريف، وعنده الصرعة^(١)، قد أيقن الجاهل وأذعن له العاقل.

ثم أراك الحكيم - عزت قدرته - فصول سنتك، كيف انقضاؤها، وأنت في سنتك مستشهداً بفصولها على فصولك، ومعرفاً بأفولها قرب أفولك.

أيأمن مقيماً بين الناس من يسير به الفلك وتخطو به الأنفاس؟

ثم ليعلمك أنك في دار امتحان ما لك فيها من سلطان على اقتضاء شهوة، أو تفكه نعمة، إذ أول أحوالك الضعف عن الاكتساب، والعمى عن الأسباب، ومدتك بعد مديدة، وحاجتك إلى المصالح شديدة.

ثم بعدها حال الصبا الباعث على التبذير، وأنت مأخوذ عنك، ما لك محجور، ونشطت فيه بطبيعة الدم واللهو واللعب، وقضاء الشهوات والفرج، وأنت مصفوع للتعلم، ممنوع عن التكلم.

ثم بعدها حال الشباب الباعث بقوة الصفرء على التعالي وغالبة الرجال، وأنت في مقام الخدمة للكبار، ومحل الائتمار.

ثم بعدها حال المشيب، الباعث بطبيعة السوداء على التأميل، وقد آن أوان الرحيل، والأمر بجمع العدة حذراً من الآفة، وقد انقضت المدة وانتهدت المسافة.

ثم ضرب لك مثلاً لذلك في فصول آجالك، بربيع تخضر فيه الأرض للجالسين، وتضمك للناظرين بزهرها، وأنت ممتحن فيه بحماية خضرها عن الإنعام أملاً في عقدها، ورعاية أنوارها عن الصبيان طمعاً في ثمارها.

ثم صيف يأتيك من الثمار بنموذجها، ويبيدي إليك العروس من هودجها، وأنت فيه مشتغل بالمؤن، مذل بالتعب.

(١) الصرعة: أي الموت.

وإذا جاءك الخريف، ودنت القطوف، وتزيّنت الثمار بالغصون، ومالت إلى الوفاء الظنون، هبت صر شغلّتك بالادخار والتقديم، والتقديم عن ابتكار النعيم.

الرزق بين التوكل والتسبب :

ثم لينبهك بارتزاقك وأنت جنين لا يصل إليك أحد من المخلوقين، على أن الرزاق هو رب العالمين، ولكن بشرط الغفلة عمّا سواه من المخلوقين، حتى أنك لما أبصرت والديك بعد الولادة من جميع الخلق، وكلت إليهما في الرزق، هذه ترضع، وهذا ينفق. ثم وكّلت إلى نفسك في شبابك لما رأيت نفسك وتمسّكت أسبابك، ثم لما رأيت أولادك وتمنيت حياتهم - وإن كنت على المشيب - التزمت أقواتهم.

فلو لم تر في جميع العمر غير ربك أحداً، أتاك من ربك في وقته رغداً، ولو لم تر نفسك بعد والديك، ما احتجت إلى كسب يديك، ولو لم تر أولادك بعد نفسك، ما التزمت أرزاقهم بعد أفول شمسك.

ألا تعتبر أيها الأخ - إن غفلت عن الطيور - بأول الحال؟ ما ضيعك ربك فيها جوعاً، أفيضيعك وأنت على الكمال؟ ما أجاعك وأنت جنين، أيجوعك وأنت مؤمن مبین؟

ثم ضرب لك مثلاً بعبدك، والصغار من ولدك، فإنك ضامن حام لهم أقواتهم ما داموا تحت أمرك، ورضوا بحكمك، لتعلم به حالك في الرزق مع خالق الخلق. ولئن ظننت مولاك دونك في الوفاء فهو كفر، وإن عدت نفسك دون عبدك في الطاعة والثقة فهو نكر.

ثم قد أسمع الصمّ وأفهم البكم بقوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢]. وعظم شأنه بالقسم، فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ نَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] ليتنبهوا بكون الأرزاق من السماء على ألا شريك لله تعالى في الإعطاء.

ثم نص على الضمان، وألزم الحجة بقوله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. فاستجازوا على الله خلفاً، وهو غير سديد وفي آذانهم وقر وبقلوبهم عمی، ونودوا من مكان بعيد: أو لم تفهم ما أملت عليك الأصول، ولم تبصر ما أبدى لك الفضول، فأدركك المشيب، وحلّ بك الأمر، وأنت ظنك حدث، وفي حالك غر.

قد أفنيت صباك لهواً في الربيع بين أتراب وجموع راتعين، ملتهين بأعراض إلى شباب صيف.

فإذا أنت على قوة واعتدال، والفصل فصل خصب وظلال، فتعاليت بنفسك، واكتفيت بظلك، وقلت: بالباكورة كفاف، وللوقت دوام وإسعاف. فإذا أنت بالخرف والخريف، ولكن الثمار بعد جميلة وفيك رأي وحيلة، واحتلت لقوتك من غيرك، وإن كنت تلهيت في الربيع بأوراد جنى خيرك.

فبينما أنت فيه إذ حلّ بك الموت والشتاء من الزمان، ورحلت إلى القبر عن البستان، وصار القوام بما قدم في سالف الأيام، لكل سهم مغرز وقسم محرز، وأنت في عذاب الإفلاس ما لك عليه من قرار، ولا عنه فرار، وأنت عاقل حنكتك التجارب واجتمعت لديك المذاهب. وقد أفنيت صباك بتعلم الصناعة على جبر.

ثم كنت أيام شبابك فيما تعلمت تحت أمر، حتى صرت أستاذاً وأنت بآخر العمر، فجهدت أيام المشيب بعد حسن المعرفة للكسوب، فساعدتك الأقدار ومانعتك الأدوار، فاجتمعت لديك الأوقار، ثم رحلت عنها قبل التمتع بها بغناء الأنفاس، ورحلت عنك وهي على البكارة إلى عدوك من الناس، وإنما اغتنمت منها حساب حلالها وعذاب حرامها.

ألا أنبهك على الحق؟

ألا أخبرك بالصدق؟

خالف من صباك طبيعته بتعلم ما يعرفك الله وشريعته.

ثم خالف طبع شبابك بخدمة كبار العلماء وطاعتهم، حتى إذا حلّ بك المشيب قمت مقامهم بلا ريب. والعيون تلاحظك بالتوقير، والقلوب تصاحبك بالتوفير. أمرك نافذ بغير أعوان، وحكمك لازم بغير سلطان، يتمنى البعيد قربك، ويخشى القريب بعدك، وأنت مكرم بذاتك محمود بصفاتك، صفقتك مع ربك رابحة، وتجارتك في سوق الزهادة صالحة، تعقد ما شئت من الإسلام بمهين من رأس المال وأنت آمن من الفوت والإخلال.

فبينما أنت مشغول بتجارتك، مستأنس من الله بلطف مشتريها وفضله، مسرور برواج معيبه وكثرة نزله، إذ جاءتك البشارة بحلول الأجل، وانقضاء مدة المهل، فتؤول إلى استيفاء الإسلام وإحراز الأرباح العظام، بحيث لا تصفها الألسنة، ولا تخطر على الأفئدة، واتصل سرورك بالمظنون بسرورك باليقين بأن الشتاء من فصول سنتك، لتزداد نعمة على سائر الفصول لمن قدم إليه منها الفضول، لما فيه من راحة النفس بانسداد أبواب القلب، وملاقاة الأحزان بانقطاع سبل التفرق ويسر الإصابة باجتماع الألوان في واحد من المكان.

فقال: فكأنك أبقيت قلبك بدوام التفكير، فزاع عن الطريق فيما أملى عليك من

التدبير، وأن الله خلق هذا العالم مقرونًا بقاءه بالغذاء، وقسم غذاءهم ممّا لا تنبته الأرض بنفسها إلا بعد إبداع واستنماء. فكيف حكمت أنت قبل السبب بالبقاء؟

ولو قلت: إن الله تعالى ضمن الأرزاق بحلال من الأسباب، فلا تطلبوها من غير تلك الأبواب، وضمنها ضمان الزاد للمسافر، فلا تجمعوها جمع الأحمال للتاجر، لكان عدلاً وطريقاً سهلاً، فإنما على العبد من كل الأحوال طاعة ربه، وتعرف الأمر من كتبه، ثم العمل بحسبه.

أما رأيت أن الله تعالى لما ضمن الأرزاق للطيور والوحوش بلا تسبب منهم أصلاً، قسم لها ممّا يوجد على وجه الأرض سهلاً، ثم لم تستغن عن الطلب، وذلك القدر منها سبب، ولكنها قنعت واكتفت به وما جمعت.

قلت: أيها الأخ الذكي، والعبد التقي، إياك والإصغاء إلى تلقين نفسك، واستعذاب هواها والاستماع لحججها لتحصيل مناهيها، فإنها أمارة بالسوء في قالب الحق، محدثة بالكذب بلسان الصدق. ما أراها إلا قد غرّتك بهذا السبب المشروع لعمارة الدنيا، ومزاحمة الجموع من الناس في جمع المال. فإن الدنيا حلوة خضرة، عشقها الناس إلا قليلاً، ومن تمسك بسبب منها وقع في جدالهم طويلاً.

فيذا هاجت فيه حمية الجاهلية، وجاش فيه الغضب، تعدى الحدود والسبب، وما له على نفسه ملاك، وعند ذلك الهلاك.

ولو كان هذا الوهم منك حقاً والحديث صدقاً، لاكتسبت الرزق بسبب الجهاد في سبيل الله والقتال. فهذا السبب للإرث الأطيب الحلال مع ما تستحق به من كفايتك من بيت المال. أو لاشتغلت بتعليم الناس الدين، والأذان والإمامة للمؤمنين، فذلك سبب لاستحقاق الكفاية من بيت مال المسلمين. أو رضيت عند متاركة الأسباب بالفقر، فهو سبب لاستحقاق الكفاية من أرباب الدثر من نيلك أسباب رزق هي بنفسها عبودية أو عبادة الرحمن، إلى أسباب هي لعمارة الدنيا دليل على اغترارك بوساوس الشيطان.

ألم يبلغكم قول رسول الله ﷺ: «أنا أعلم بأمور دينكم وأنتم أعلم بأمور دنياكم»^(١)؟ أما بلغكم كسبه؟ فذلك حسبكم.

إلا أن يعجب العبد في قربه من ربه بعظيم حاله، فيلطفه بمباح أعماله، فقد خصّ بالكسب لإزالة العجب.

(١) رواه مسلم بنحوه في كتاب (فضائل النبي ﷺ) باب (فيما أخبر به النبي ﷺ من أمر الدين والفرق بينه وبين الرأي للدنيا).

فقال: نعم، لقد كشفت الشبهة، وألزمت الحجة. ولكنني أكلمك على أصل الفطرة وما عندها بيت مال، ولا جهاد، ولا غنى ولا عتاد.

قلت: إنك رجل ما أدركت من فطرتك إلا ما وصفت لك من أسباب الكفاية فيها موجودة، فكيف تركتها إلى أسباب العمارة بناء على حالة لم تنزل في حقك كانت مفقودة؟

لو أنصفت لاعترفت وعرفت، وتبت عمّا اعتقدت من الباطل واقترفت. على أن الله تعالى خلق آدم في الجنة مكفياً غنياً، يأكل ما يشاء رغداً هنياً، وإنما ابتلي بالعمل بعدما عصى ربه وذل.

حكمة تعليق الرزق بالسبب:

فقال: زالت السترة عن الحبائل، وعرفت أنني كنت على باطل، فبين لي حكمة تعليق الله تعالى رزق عباده بأسباب منهم ظاهرة، مع ما لزمهم من معرفة الرزق ممّا قسم الله تعالى لهم في اليوم بحجج باهرة.

قلت: ليبين لهم أنها دار محنة والتباس وشبهة؛ علق الله تعالى رزق العباد الممتحنين بأسباب محسوسة منهم، لترى النفس الرزق محسوساً منها فتدعو الجسم في طلب الرزق إليها.

ثم علق حقيقة الوجود بالطبائع الأربعة التي لا يد لهم عليها، لترى الروح ذلك من الله تعالى، فتدعو الجسم إلى طلب الرزق منه، فيكون الجسم مبتلياً بين ذلك، فيصير إذا ترك الأسباب لمسببها قائماً في حد العبودية، فينال عند ذلك من تركه ما يجول من الأمنية.

وهذا كما قال تعالى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ

الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ [آل عمران: ١٤]. ثم قال للرسول عليه السلام: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْثَنَّهُمْ

فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]. فنهاه عن النظر قبل التسبب للملك ليكون على حذر ففيه الهلك حتى قال عليه السلام: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»^(١). ليصير القلب مبتلياً بذلك، ويميل إلى البغض، فالحق هنالك، وإذا أبغضتها لم تقربها بسفاح، ولا أمسكتها بنكاح.

ثم نبّه على هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ * أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَتَمَنُّنَّ

الزَّرْعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣، ٦٥].

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان مرسل عن الحسن البصري، والسخاوي في المقاصد الحسنة ص

ثم نبه فقال: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَآئِبَةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٠].
 كيلا يشتهه عليك من حال الطائر إن أصيب بسبب الطيران.

ثم أوضح ذلك بحال اجتنابك وطفولتك، ثم صغرك وجهالتك، ثم أخبر عن قصة مريم إذ قال لها زكريا وقد وجد عندها رزقاً: ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣]. وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. وقال للرسول عليه السلام: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا لَّحْنٌ رِّزْقُكَ﴾ [طه: ١٣٢]. ولكن من شرط الإصابة بلا سبب: ألا ترى أحداً غير المسبب، فأما ما دمت تخاف الجوع بفقد الأسباب، فتمسك بحلالها وتوكل على الله^(١)، فإنك من الأوساط، وهو الذي ذكرت أنه العدل، والطريق السهل، إنه لذلك لمن لم تشغله رؤية الرب عمّن سواه، ومعرفة الآخرة عن معرفة دنياه.

ـ اليد العليا واليد السفلى :

فقال: سلمت لك نيل الكفاية، بلا كد ولا عناية. فأين مكارم الأخلاق، واليد العليا، وثواب الصدقات، ومحامد النحلى^(٢)، وكنت رضية في اكتفائي من أموال الناس باليد السفلى؟

فقلت: أعوذ بالله من أن يكون زين لك عملك فرأيته حسناً، وأضلك الله تعالى على علم، وحسبته هيناً أنا ندعوك إلى ترك الدنيا بأسرها، وأنت تأخذها لتميل إلى الكرم بجود بعضها. فكم ما بين الأمرين.

ما أنت في الآخذ ابتداء إلا منازع بحظك وما فيه من كرم أصلاً.

ثم ما أنت في الإعطاء إلا طالب لنفسك حمداً.

أفتبلغ به منزلة من تركها كلاً، فلم يجعل لنفسه حظاً، وقد قدر عليها أخذاً؟

(١) قال حمدون القصار: التوكل هو الاعتصام بالله، وقال سهل بن عبد الله: أول مقام في التوكل أن يكون العبد بين يدي الله عز وجل كالमित بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء لا يكون له حركة ولا تدبير، وقال رجل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقال: (ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون). والتوكل محله القلب والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى وإن تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق شيء فبتيسيره، وعن أنس بن مالك أنه جاء رجل على ناقة فقال: يا رسول الله هل أدعها وأتوكل؟ فقال: (اعقلها وتوكل). وسئل يحيى بن معاذ متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله تعالى وكياً.

(٢) أي العطاء.

وهل كرم حقه إلا في إثثار الخلق برضا الحق على قهر النفس؟
ثم للصابرين عن الدنيا مع فضل الآخذ المعطى ثواب الصبر على ما ابتلي من الفقر.

أما علمت أن ثواب المريض المصلي قاعداً مثل ثواب المصلي قائماً، ثم فضله بثواب الصبر على المرض، فكفر الله تعالى عنه مظالم بتألمه؟
أما سمعت قول القائل: يا طالب الدنيا لتبر، تركك لها أبر؟ أليست اليد العليا بإعطاء بعض الدنيا؟ فكيف بالتارك لها أصلاً اليد السفلى؟

ما قولك في بريرة، وقد أهدت إلى رسول الله ﷺ وقبله منها^(١)، وقولك في رسول الله ﷺ وقد أجاب دعوة العبد^(٢). لمن كانت اليد العليا؟ لبريرة، أو للرسول ﷺ؟ بل لرسول الله، فإنه خير بين الدنيا والمولى، فاختر الله تعالى وتركها لبريرة وأمثالها، وللعبد وأشكاله فأهدوا إليه بعض ما ترك عليهم. فلمن تكون اليد العليا واليد السفلى؟

وليس كلامنا فيمن أحب الدنيا بنكحها بقلبه ففركته^(٣) ونشزت عليه حتى لم يمسها إلا من يد غيره، فصارت يده السفلى، لأنها آخذة بلا عطاء، ومتهبة بلا جزاء.

ثم ندع هذا ونقول: رجل اشتغل بالعلم والعمل عن الدنيا، فصار بعلمه اعتداء، وبعمله اقتداء. فنجا بسببه الناس من الضلالة، وفكوا عن أسر الجهالة، فأحبّوه بقلوبهم، وجازوه بعطائهم، ومجدوه بثنائهم. فلمن السابقة؟ وأي يد العالية؟ وأي الكفائتين العظمى؟ وأي المنحيتين أولى؟ كأني وضعت هذا الأساس لأعمى بقلبه، زمن^(٤) بجسمه، يحيا وبالأ ويعيش عيلاً، ما له عند أحد من سابقة ولا يد، ورضي بما تصدق عليه لنفسه حظاً، ولم يرفع إلى ما فوقها لحظاً. فهذه هي اليد السفلى، وهو الجاهل في الآخرة والأولى.

أما علمت أن فيما دعوناك إليه رضا بالحكم وهو العبودية، وفيما تدعو إليه عملاً بالأمر وهو العبادة، والعبودية سابقة، والعبادة لاحقة؟

قال: فلقد قال رسول الله ﷺ لعمر بن العاص رضي الله عنه: «نعم المال

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٢) ورد عن النبي ﷺ أنه كان يجيب دعوة العبد إلى أي طعام دعي ويقول: (لو دعيت إلى كراع لأجبت).

(٣) أي تركته.

(٤) أي مريض.

الصالح للرجل الصالح»^(١). وقال لسعد بن أبي وقاص، وقد شاوره في الوصية بماله: «الثلث، والثلث كثير، لأن تدع ورثتك أغنياء، خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس»^(٢). وقال أبو بكر لعائشة رضي الله عنها وقت موته: «إن أحب الناس إلي غني أنت، وأعزهم علي فقراً أنت».

قلت: أيها الأخ، إن الناس طبقات، لا يصلحون على وتيرة، ولا يسلكون قط طريقة، وإن رسول الله ﷺ كلمهم على قدر ما عرف لهم من الصلاح فيه. فقال لبلال: «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالا»^(٣). واختار الله تعالى في نصيبه، ثم خير نساءه على ذلك^(٤).

أو كان رسول الله ﷺ مغبوناً هنالك؟ وكذلك أبو بكر رضي الله عنه، رأى صلاح عائشة رضي الله عنها فيما قال، ثم لما آل الأمر إلى نفسه تصدق بجميع ماله، فقال رسول الله ﷺ: «ماذا خلفت لعيالك؟» قال: الله ورسوله وتصدق عمر رضي الله عنه بشطر ماله وقال: «خلفت لعيالي الشطر» فقال النبي ﷺ: «فضل ما بينكما كلامكما» فقال عمر رضي الله عنه: «كنت أجتهد لأسبق أبا بكر يومئذ، فأيست يومئذ»^(٥).

ثم قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]. ولم يقل: ومن كان يريد حرث الآخرة لحرث الدنيا، ثم قال: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشيِّ يُرِيدُونَ وَجَهَةً وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨]. أفبيان أوضح من كتاب الله، ومقتدى أولى من رسول الله، وحجة أبلغ من دلالات العقول؟

قال: متّعك الله وإيانا بآياته، وهدانا إلى الحق بدلالاته، ووفّقك لشكر ما استنار صدرك لقلبك، وإيائي لشكر ما وفّقني لمثلك، فنعم الرفيق أنت، ونعم الطريق هذا، ما بقي إلا السلوك، ثم الوصول عن قريب، والله تعالى أستعينه وأستهديه فهو السميع المجيب.

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٩٧/٤).

(٢) رواه البخاري في كتاب (الجنائز) باب (رثي النبي ﷺ سعد بن خولة) حديث رقم (١٢٩٥)، ومسلم في كتاب (الوصايا والصدقة) باب (الوصية بالثلث لا يجاوز) حديث رقم (١٦٢٨).

(٣) رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

(٤) قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجُكُمْ كَالْأَرْوَاحِ أَلَمْ يَقُولْ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تُخْلَعُونَ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

(٥) رواه أبو داود في سننه.

ضلَّ عبد لم يهتد بعلمك، ولم يعتد بسمتك، ولم يتأمل بعد أن عرف أنه مخلوق للابتلاء في أقسامه، وضيع من غيرها ساعة من أيامه.

حصاد الفصول الأربعة

قلت: متى ترك خداع الأمل الناس في مدة المهل إنما يشعرون عند حلول الأجل، إلا قليلاً من أولياء الله وكأنك منهم. وإن الله ضرب للنشور مثلاً بحياة الأرض بعد موتها، فقال: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الْنُشُورُ﴾ [فاطر: ٩].

هل اعتبرت أيها الأخ بموت العالم، بموت بني آدم وبحياته، إذا ذهب الشتاء بحياتهم يوم الجزاء؟

أما ترى الأرض وقد حييت، بتقارب نباتها منظراً، وقد تباين مخبراً، فمن أزواج وأفراد، وجمل وآحاد، غفل الزوج عن أمثاله، وجهل الفرد بحاله، حتى إذا كان بعد حين اختلفت مناظرها بخلعها، من نبت زين بزهر، وقرب لمجلس الملوك بحسن خبره، ومن نبت لعين لشوكه، أو فساده، وجمع للنار، ومن نبت صفي طيبه من خبثه بعصار، ثم سُلم إلى الخزانة، وتميّزت العصاراة للإهانة.

أفلا تذكر نشورك ويوم حشورك، يوم بروز العالمين أشكالاً، غافلين أمثالاً، حتى إذا كان الحساب والجزاء كانوا سابقين، وأصحاب الشمال وأصحاب اليمين، وسُلم الخبيث إلى الجحيم، والطيب إلى النعيم، والمغشوش يسبك بالنار ثم يحشر إلى الأبراز ما لك يومئذ في القسمة من تدبير ولا حيلة ولا تقدير، فاجتهد يوم زراعتك، هذا البذر لطيف الحب وشرف طاهر عذب.

أما رأيت الربيع أخضر لعينيك فزرعت منه نشاطاً في نفسك، أما ردعك عنه علمك بفراقه عنك إن عشت، وفراقك عنه إن مت، فتأخذ منه غير هذا خطأ، أو تلاحظه بموق^(١) القلب لحظاً، فتجني منه مكان أزهاره وعظاً، علماً بأن الله الذي خلقه لك حكيم، لم يخلقه إلا لحظ منه يبقى معك.

آه، فكل العبيد مغلوبون بطبيعة البلغم، ما بهم من قدرة قبل طبيعة الدم، وقل من غلب طبيعة دمه فترك لهو يومه، وقل من لم تغلبه طبيعة الصفراء، فلم يغالب الأكفاء.

وأغلب الطبائع للإنسان السوداء، فاحذر أن تكون مغلوباً بها فتبخل عن نفسك أملاً في غدك، وتغفل عن الحلول بلحدك فرحاً بولدك، فإنك إن غلبت هذه

(١) الموق هو الذي يلبس فوق الخف، فارسي معرب.

فحزنت لموتك، واستهنت بمالك، لم يضرك غلبتها إياك من قبل. وإن غلبت بهذه لم ينفعك، وإن غلبت ما قبلها في كل فصل.

أيقظ الله القلوب مكان العيون، ووقفنا لاتباع اليقين مكان الظنون.

أيها الأخ، قد بينا لك كيفية الابتلاء في أصل خلق الناس، ثم بلواك في صفات ذاتك التي هي الأساس: عبد فقير مأمور مسجون والله تعالى - وهو أعلم - قد ابتلاك على كل قسم من الأقسام الأربعة بأربعة من الأحكام. وإني إن شاء الله هاديك إليها بتوفيقه، وفقك الله على الحقيقة منها بطريقة، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، والله تعالى أستعين عليه إنه سميع مجيب.

كتاب العبودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله واجب على كل عبد لربه بحقه، عرف كونه بخلقه، ونشأه برزقه .
والصلاة واجبة على رسول ما جاهد نفسه والخلق في الله إلا شكراً، وما واصل
الدنيا وأنبياءها إلا ذكراً . فالحمد لله أبلغ ما يكون للرب الجليل، والصلاة أكمل ما
تقال على الرسول . أما بعد .

أيها الأخ المقتبس نوراً للهدى، ونجاة للورى، فاعلم أن الله تعالى منحك
في كونك عبداً بمعرفته، والرضا بقسمته، والانقياد بكلمته، والعمل بطاعته، فهي
وجوه أربعة من الامتحان: اثنان منها عبودية، وعبادة منها اثنان .

فالعبودية صفة نفسك^(١)، والعبادة صفة فعلك^(٢)، إذ واجب على كل ذي
عقل وتميز، أنعم عليه بالتكوين أن يعرف منعمه، وأنه هو المولى، ثم يرضى بما
قسم له، إذ الموجود بقدره إنعام من المولى الأعلى، فلا أقل من الرضا إن عجز
عن شكره عليه، والحمد بما أحسن إليه من بره، ثم الانقياد بكلمته وحكمته، إذ
لم يجد عن وثاق عبوديته وغاية سلطانه مخرجاً . ثم العمل بطاعته إذ لم يستجز
عليه سفهاً^(٣) .

(١) فهي عمل القلب .

(٢) فهي عمل الجوارح .

(٣) قال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله: العبودية أتم من العبادة فأولاً عبادة ثم عبودية ثم عبودة، فالعبادة للعوام من المؤمنين والعبودية للخواص، والعبودة لخواص الخواص . وقال: العبادة لمن له علم اليقين والعبودية لمن له عين اليقين والعبودة لمن له حق اليقين . ويقال: العبودية القيام بحق الطاعات بشرط التوقير، والنظر إلى مأمرك بعين التقصير وشهود ما يحصل من مناقبك من التقدير . ويقال: العبودية ترك الاختيار فيما يبدو من الأقدار، ويقال: العبودية التبني من الحول والقوة والإقرار بما يعطيك ويولييك من الطول والمنة، وسئل أبو عبد الله محمد بن خفيف: متى تصح العبودية؟ فقال: إذا طرح كله على مولاه وصبر على بلواه . وقال ذو النون المصري: العبودية أن تكون عبده في كل حال، كما أنه ربك في كل حال .

- طرق معرفة المنعم أربع :

ثم معرفة المنعم من طرق أربع، النظر في جسمه، والنظر في حياته، والنظر في رزقه، والنظر في وقته.

فإن من أنعم النظر في جسم عرف حدوثه، لتجسمه باجتماع الأجزاء، والاجتماع عرض يضاد القدم، وإذا نظر في أبيه وجده كذلك، وإذا نظر في كل العالم وجد الحجة قائمة هنالك، فإن عناصر مختلفة وطباعاً لم تقو لإحداث المحسوس إلا باجتماع. فيلزمه اعتقاد محدث قديم واحد لا شبيه له مما ظهر فيه آيات الحدوث فيزول بها عن صفة القدم.

ومن أنعم التأمل في حياته وجدها مقرونة بأنفاس إن أرسلها كلها جاء الموت، وإن أمسكها تعجل الفوت، فيعرف بتعلق حياته بسبب ليس في ملكه أنه عاجز عن دفع هلكه، ومن عاجز عن إبقاء الموجود كان أعجز عن إنشاء الوجود. ويعرف أن الذي أنشأه قادر ليس كمثله شيء، ولا يجد ذلك في أصله، ما لم يصل إلى القوة والقدرة، الخلاق بلا فكرة.

ومن نظر في رزقه فوجده مما تنبت الأرض بماء ينزل من السماء وبحرارة تتصل بها من الهواء، على أساس يشهد بالحكمة، وما له ولأصله من صنعة ويرى هذه الأصول مع قربها مسخرات للإصلاح، وما له دون التناول من نزلها بقاء وفلاح، عرف يقيناً من سخر الكل للبعض، ومن قرن بين منافع السماء والأرض.

ومن نظر في وقته وهو الأيام والساعات والشهور والسنوات، رأى حدوثها بدوران الفلك، وجريان الشهب، ورأى الحوادث كلها مما ينفعه ويضره في الأوقات، ثم رأى ذلك الفعل منها عن تسخير، ثم يرى نفسه صاحبة التدبير وهو تحت ما يبدو من المسخرات مقهور، ويعتد بمن سخرها، ورفع السماء فقدرها، وبسط الأرض ففطرها، تبارك الله من صانع على الأشكال، ومبدع غني عن المثال.

- طرق الرضا بالقسمة أربع :

فإذا عرف الله جلّ جلاله وقدرته على الحق، وحكمته فيما فتق ورتق، رضي بالقسمة من طرق أربع: معرفة أصل الوجود، ومعرفة حال الوجود، ومعرفة النفع فيما فات، ومعرفة العوض عن الآفات، لأن العبد وإن حرم المواهب، وأحاطت به المصائب، فنفس الوجود نعمة من الله تعالى عليه، وإحسان لا يماثله ما سواه، وما له فيما حرم من حق، فلزمه الشكر.

متى نظر بالصدق ثم تمكنه من أن استدامة الحياة في حالة أعز وأنفس ممّا

حرم من صحبته وماله، والموجود موجود بإحسان من الله وفضله، والمعدوم معدوم من طريق العدل، والعدل مرض، والفضل مشكور، فقد الباقي من المحبو أصل، ووجوده من الله تعالى إكرام، وقدر الغائب من حرمان المواهب فرع ونقصان من الإنعام، والمكرم على ما أكرم مشكور بثناء، وفيما حرم مسؤول بدعاء.

فإذا عرف الحال من الزيادة والنقصان أهل لله شكراً، ولم يحتج إلى تجرّع الغصص صبراً، ثم يعرف الفائتة منه ممّا تحبه الطباع والنفوس من قوة البدن وصحته، واعتداله، وأهله وولده، وماله. فيجدها أعوان النفس على الروح، ودعاة الدنيا سرّاً بلا تصريح، فإن صحّ اعتدل، ومن اعتدل قوي، ومن قوي علا.

ومن سلم أهله كثر ولده، ومن كثر ماله وعدده طغى، ومن علا وطغى ترك العبودية، وعصى روحه، وأطاع نفسه، وهي العدو المبين، ومن فقدتها خضع لضعف البدن والاعتدال، وذلل بفقره الأهل والمال، وقام في مقام العبيد، فصار مطيعاً لروحه، وهو الأمر الأمين.

وإذا عرف الفائت، وعرف ما فيه من انغزال عدوه عن ولايته، واستيلاء أميره على رعيته، لم يرض من نفسه بالرضا حتى يفتح فاه بحسن الثناء على المولى.

ثم ينظر بعد ذلك إلى جميل ما وعد الله تعالى على الصبر عليها، والرضا بها، على خلاف النفس بدلائل السمع والعقل، وتبشير الله تعالى إياه بقوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿ [البقرة: ١٥٦، ١٥٧].

وينظر إلى جميل ما وعد الله لعباده على عبادتهم ببذل الطاعة له في أوامره ونواهي، فإن العوض أجمل وأجزل على عبوديتهم ببذل الرضا فيما أمضاه ويمضيه.

فالقسمة قبل الأمر، والرضا فوق العمل، حتى كان ترك الرضا كفراً، وترك العمل فسقاً، فإذا عرف جزيل العوض على ما ألمّ به استحلى ذواقه، وتمنى إعتاقه، حتى اضطرب العقلاء لكره الأدوية، واحتموا عن لطيف الأغذية مختارين لما في عاقبة الدواء من حسن الشفاء، وقد قيل: ما ألم من علم ما نال فما ألم.

ألا يشكر عبد رباً خلق الدنيا سجنّاً لا ابتلاء، والآخرة ملكاً لعطائه، ثم سلبه أسباب المقام أيام احتباسه، ثم ابتلاه بالمكارة فيه ليفر عن احتباسه، ثم جزاه على جده في الفرار عنه، وكراهية القرار فيه.

فإن عمي عن هذه البواطن كيف عمي عن كثرة سخطه على القسام، فإنه غير راد شيئاً من الأحكام إلا بزيادة من حيث ضعيف القلب عن الآلام، فإنه أمر موجود

يقيناً، لا ينكره ذو بصيرة فيتركه، فما اشتغل عاقل قط بزيادة ضرر، أو زلة ألم، ألم تسمع قول القائل:

الدهر يخنق أحياناً بلا دية فإن خنقت فلا تضجر ولا تثب
حتى يؤخرها تأخير مدتها وقد يزيد خناقاً كل مضطرب

- وجوه الانقياد لكلمة الله تعالى أربعة :

فإذا ملأ عين الرضا بالنظر في حسن القضاء، ورأى الإحسان منه إليه في كل حكم انقاد لكلمته بوجوه أربعة: الإقرار بالملك لله تعالى، والإقرار بالملك على نفسه، والإقرار بعلم الغيب لله، والإقرار بجهل الغيب على نفسه. إذ تحقيق الملك لله ينافي الاعتراض عليه، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. وثبوت الملك عليه من كل وجه يحجزك عن المحاجة، كما انحجز عبدك بين يديك، وكون الله عالماً بالغيب مع جهلك دليل على ألا لبس على الله تعالى، وإنما التبتت عليك الحكمة، قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فإذا انقاد لكلمته، موقناً بحكمته، بعد ما عرف من نعمته، رغب في طاعته بدعوة اللب، ومحبة القلب، وتلذذ فيها تلذذ المشغوف بالحب وقت الوصول إلى الحب، بل إلى حد لا مثال له فيما سوى العبد والرب، وذلك تأويل قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «وجعلت قرعة عيني في الصلاة»^(١).

- أقسام طاعة الله أربعة :

فالطاعة لله أقسام أربعة: الكفر بالنفس وأعوانها، ومخالفتهم في الله، ودعوتهم إلى الله، وأسر من قدر عليه منهم، فهي أعمال أربعة.

فإذا كفر بالنفس لم يتخذ إلهه هواه، وإذا خالفه لم يعطه مناه، وإذا دعاه إلى الله تعالى فأبى جاهده وعاداه، وإذا أسره أمن في مغناه، وإذا لم يكن إلهه هواه كان الله مولاه، وإذا خالف هواه في أعماله، أطاع الله تعالى بكل أفعاله.

فالإيمان بمنزلة شراء الجنة بالنفس، والطاعة بمنزلة إيفاء الثمن بلا بخس، والجهاد بمعنى تخليد الحياة، واستعجال بعض الموعود بعد جواز الصراط.

أما الإيمان فلقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

وأما الطاعة فلأن تمامها في الاستقامة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا

(١) رواه النسائي في كتاب (عشرة النساء) باب (حب النساء) حديث رقم (٣٣٩١).

اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴿٣٠﴾ [فصلت: ٣٠].

وأما الجهاد فلقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. ثم يبعث يوم القيامة وعليه آثار الجهاد، مشرفاً على كثير من العباد، تأتيه خلعة المولى، وأنواع البشرى، حتى الرؤية واللقاء، إلى ملك وبقاء، وأنواع كرامة، والناس سكارى بأهوال القيامة.

قال الأخ: هذا جزاء من قتل. وأنت في بيان جزاء من ظفر.

قلت: إن الذي جاهد فظفر، فوق الذي قتل فعذر، فكان جزاء المعذور جزاء للمنصور إلى مزيد إن شاء الله وخير كثير.

وإنما مثل ذلك مثل ملك كريم من ملوك الأرض، جهز عبداً له إلى عدو خرج في مملكته، فكفر بالعدو وخالفه، وقد خوفه العدو ومناه، ثم دعاه إلى مولاه فعصاه، فغالبه ومنعه عن دعواه، ثم عاد بعد أسره إلى ملكه بأمره، فأتاه رسله بالمواعيد الجميلة، والبشارات الجليلة، كلما ازداد قريباً من الحضرة ازداد كرامة، جزاء على الاستقامة، حتى بلغ الحضرة، فما وقف إلا بقدر ما استخبر عما جرى بأوجز عبارة، ثم أذن له بالدخول للقاء والزيارة، ثم خرج إلى خلقه وإمارة.

فكيف استجاز العبد أن يكون مع ملكه دون عبد العبد مع مالكة، وهذا يخاف الهلك قبل الوصول إلى الخلقة والملك، ويخاف - إن جنى - على مالكة الخلف والعجز، وعبد الله لا يظن إلا القدرة والنجز.

ومن هلك في جهاده حيي وملك جزيل الثواب، وليس يلحق العبد فيما يبتلى من الجهاد أكثر من الفناء، فما باله يخاف وعنده الولاية والبقاء. يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

العبودية لله والعبودية لغير الله:

أيا عبد، نسيت مولاك، وشايعت من عاداه وعاداك. أخبرني وأنت الغافل عن جدواك، أتعنتك نفسك عن الرق؟ أم تنفذك من الفقر؟ أم تطلقك عن الحجر؟ أم تخرجك من السجن؟

فقال المغرور بحبائل الزور: نعم، أعتقتني فملكك العبيد وأمرتني فجمعت الجنود، واستوليت على الأرض، واستوليت على سرير الملك، فلم يبق إلا واحدة، ومن ذا الذي ينجو من الهلك.

فقلت: أضللت رأيك جاهلاً أم عالماً؟ وضللت في التيه مخطئاً أم عامداً؟ أخبرني عن تفسير الملك، فقد ادعيتك لنفسك بما آل إليه مالك، وتقررت عليه حالك.

فقال: الملك التحكم بما شاء الملك على قوة واقتدار، بلا ممانعة صغير، ولا معارضة كبير، ولا مغالبة كثير، حتى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

فقلت: صدقت، أو أدركت هذه الجملة؟ وبلغت هذه المنزلة؟

قال: نعم، زلت لي الصعاب، وخضعت لي الرقاب، واتفقت لي الأسباب، وعبدني الأرباب، فأنا اليوم مطاع على عزة وامتناع، ولا تعز عني عظيمة، ولا تعجزني عضيبة^(١).

فقلت: أليس استقر سلطانك، وعلا مكانك - بجنودك، وبأس عبيدك؟ لا تستغني عنهم ساعة، لاستدامة ما أنت عليه من الطاعة، فأنت تطلبهم بهوهم، وتنيلهم مناهم، صدقاً برغبتك فيهم. والناس يطلبون رضاك رياء، لخوفهم إياك، أو طمعاً في جدواك، فصار ما لزمك من الطاعة لهم أوفر ممّا لزمك من الطاعة لهم إذ طاعتهم لك بواسطة منك، وطاعتهم لك بباعثة فيك، فكم بين لزوم بمعنى في نفسك، ولزوم بمعنى في غيرك.

ثم إنك تطيع من دونك وإنه لمر، وإنهم يطيعون من فوقهم وذلك يسر، ثم إنك مضطر إلى طاعتهم، فلن تكون على هذه المنزلة دونهم بحال. وطاعتهم لك غير ضرورية، لبقاء منزلتهم في أنهم عبيد فقراء مأمورون بلا وإل، غير أن طاعتهم بأجسامهم، فظهرت للعيون، وطاعتك بقلبك، فما شعرت بها إلا النفوس، وإن ما يلزم القلب لأشد ممّا يلزم الجسم، لكون الجسم تبعاً للقلب، غير أن النفس هي العدو، زينت لك حبّ الظاهر، فعميت بفرط المحبة عن الغيب الباطن، فجلست على سرير العبودية للعبيد، وكان ائتمارك للجنود، وأحاطت بقلبك المكاره والآفات، وظننت أنك مللت، هيهات.

لو وافقت نفسك في حالك، ورأيت احتكام الهموم والأوجال على بالك، ومنازعات الرعية معك بالشكاية والسؤال، ومنازعات سائر الملوك من أشكالك بالغلبة والقتال، لرأيت الهموم والأوجال لا تسأل عما تفعل بقلبك وأنت مسؤول، ولرأيتك تأكل من فضول الناس وقلبك مأكول.

دع هذا وأخبرني عن الإمارة.

قال: نفاذ الأمر بلا حجر.

فقلت: وهل نفذ أمرك على رعيتهك إلا من طريق نفاذ حكمك؟ وهل نفذ ما نفذ من أمور حاشيتك من ذلك الطريق على قلبك؟ إلا أن الرعية لم يتسارعوا إلى

(١) الأمر العظيم.

إرادتك حتى ألزمتهم بأمرك فظهر، وتسارعت أنت إلى إرادات الحشم حباً لنفسك فاستتر، فساويتهم في الائتثار، وإنما فضلتهم بالبدار^(١).

فتحاكم إلى قلبك ثم انظر لمن الإمارة، فما يغني عن حقائق الأغراض حسن العبارة.

ما أنت إلا مأمور حشمك، والرعية مأمور ملكهم، غير أن النفس ليست عليك مقام الائتثار بمسارعتك إلى الفعل قبل الأمر والإظهار، فكنت أنت والرعية بالائتثار مرعيين آمنين في سربكم، مكفين معافين في أبدانكم مرضيين، مع ما لزم قلبك دونهم على صدر الإمارة من أعباء الرعاية، وما لزم مالك لجماعتهم من أثقال الكفاية، وزال بدوام الخوف، ومناوأة الأشكال عن بدنك العافية، ونطقت مكان الرضا من كل ناد ألسنة شاكية.

ثم دع هذه، فأخبرني عن الملك الذي يزول به الفقر.

قال: إنه خلوص حقك لك، باقتدار عليه، وانقطاع منازعة غيرك فيه.

فقلت: نعم، فهل خلصت أموالك حقاً لك، أم وجبت حقوقها في حفظها واستئثارها عليك؟ هل صارت في يدك باقتدارك عليها، أم بافتقارك إليها؟ فإنك قبل أن اقتدرت عليها بالوصول، افتقرت إلى سبيل التحصيل. إنما أنت رجل ملكتك أموالك، فبذلت عمرك لجمعها، وأسرتك آمالك، فأتعبت جسمك في طلبها.

أخبرني عن ابتداء نشوئك إلى اليوم، أما لك على زيادة أم عمرك؟ بل انتقص العمر وزاد المال، فما أنت إذاً إلا مملوكه على أي حال. غير أنك خديع النفس، تعجل للمال منفعتك مدة أجلك، طمعاً في نيل منافع المال مدة أملك. تنبه، فإنه غرور، فعدة الأمل بعد الأجل بكثير.

ثم دع هذه وأخبرني عن العتق.

فقال: قوة في الذات حتى يفوز بها على مراده وأمره، من قولنا: عتق الطير، إذا طار عن وكره. وعتاق الطير: الجوارح منها.

فقلت: صدقت، أقدرت بما رأيت لنفسك من عتاق، وتبسُّط وانطلاق، على تقييد غرض أو إطلاق؟ فلا تكذب، فقد بينا أنك مملوك أموالك.

إن قلت: استغنيت، فما أنت إلا عبد عبيدك. وإن قلت: استوليت. فما ازددت بما توهمت إلا رقاً. ولعمري إن بعد عن المنزل الضال بالخيب إليه كان حقاً.

(١) أي بالتعجيل.

أخبرني أيها المخدوع المصروع عن صعلوك أراد أمراً ممّا تهواه النفس من مغالبة، أو أخذ أو سفر أو لهو. أهو أقدر أم الذي كثرت حواشيه، وعمّت مواشيه، ولزمه النظر فيما يذره ويأتيه، ليومه وغده، وأهله وماله وولده؟
قال: الصعلوك.

قلت: فدع إذن ألقاب الأغنياء والملوك، فالاسم بلا معنى فاسد من الدعوى، وكنت إذا حققت النظر فيه، كمن نحت حجراً فسماه إلهاً، وسمع له قاهاً.

فقال: كأنك فيما تحقق من الأمر بالعقول راد للشرائع والرسول، قد عرفنا الأملاك بالكتاب، كما عرفنا الأسباب، ولنا فيها تصرف نافذ، وأمر جائز.
فقلت: قبل تحقيقي لك الأمر على وجهه استدللّ بما استدلت به على الملك وعلى فقده، فإن تصرفك في أملاكك كلها متردد بين جائز ومأمور به، وفاسد منهي عنه. وما هذا علامة الملك والقهر، لكن علامة الإذن على الفقر.

غير أن الله تعالى خلقك للابتلاء مدة بقائك، وقرن بقاءك بغذائك، وخلق ممّا في الأرض منفعة لك إلى وقت انقضائك، فقسم لكل عبد نصيباً، كيلا يتغالبا فيتفانوا، وجعل عليهم من أصلحهم قيماً، وهو السلطان، وذلك تأويل قوله عليه الصلاة والسلام: «السلطان ظل الله في الأرض»^(١). إذ بالظل الانتقاء من حريق الشمس، وبالسلطان الانتقاء من حريق البأس. فهم يتمتعون بالأنصبة على يد القيم عن طفولتهم وصغرهم. فإذا عقلوا سلمت إليهم الأنصبة لحق الإذن في التجارة، دون إثبات الملك. فإذا بلغوا وكملت الحالة، ضربت عليهم الضرائب للمولى، وخوطبوا بأدائها في مدة الحياة ليعتقوا إذا أدوا، وسلمت إليهم في الحال الأنصبة لحق الإذن تسليم يد، ليتصور الأداء بحكم تباين الأيدي، وإن لم يكن في الحقيقة ملكاً للمؤدي، حتى لم يملكوا من أموالهم إلا بمقدار ما فك الله الحجر عنهم بالعقد.

ثم أوضح لك ذلك بعبيد لك صغار، تفرست فيهم الخير، فقصدت ابتلاءهم لتعتقهم، إظهاراً لكرمك وفضلك، فأفرزت لكل عبد من مالك ما يكفيه، وسلمت الأنصبة إلى قيم عليهم، فلما عقلوا أذنت لهم في التجارة في تلك الأنصبة، فلما ظهر رشدهم وصلاحهم لتحمل الضرائب كاتبتهم على مال معلوم، وأجل ممدود، وتركت الأنصبة عليهم، إحساناً منك إليهم. فتصرفوا بقدر ما انفك الحجر عنهم، كأنهم مالكون، وليسوا إلا عبيداً. وإنما يتحقق ذلك يوم ينقضي الأجل قبل الأداء،

(١) المقاصد الحسنة، ص (١٠٥).

وما عندهم بعد حلول الأجل من وفاء. إلا أن كتابتنا توجب عند الأداء عتاق الذات، وأداء فرائض الله يوجب عتاقاً في حق الصفات.

ثم الله تعالى بحكمه على المنكرين لعبوديته، المدعين لحريتهم بالرق للعبيد المقرين بربوبيته، أبان لكل عاقل أن مدعي الحرية جالب لنفسه رقاً، وملتزم ما أنكر من حق الله لعبيده حقاً، فالخلق كلهم عبيد الله. فمن آمن به كتبت حقوقه عليه، وتعلق عتقه بأدائها بنحو ما في حياته إلى حين انقضائها، لكن بفضل الله أوجبته حكمته، لا بحق العبد أوجبته عبادته.

ومن كفر وفسخ العقد، ورد الكتاب، بقي عبداً تحت الأوامر، وازداد عليه القهر، فالمولى قاهر لا يفوته الآبق، ولا يغلبه الغاصب، وإنما أمهلهم ساعة تأكيداً للأمر، وقطعاً للعذر، حتى إذا مضى مهل التدارك ردوا إلى المهالك، ليدوقوا وبال أمرهم، ويأخذوا جزاء كفرهم.

نسأل المولى الأعلى، الذي من علينا فخلقنا عبيداً له لعبادته، ثم أوجب علينا العتق لأداء أمانته، أن يحسن إلينا بالإعانة على الأداء، كما أعان مكاتبينا، فجعل لهم سهماً مفروضاً في أموال الأغنياء، ثم يحسن بالخط والعفو إلينا كما أمرنا بالخط عن مكاتبينا، فما نظن الله تعالى أمرنا بالخط مع حاجتنا إليه، وبُخلنا بمثله، إلا تأميراً لنا من كرمه، فقد حط كثيراً مما ألزمننا من قسمه، فهو الجواد الذي لا يوصف ببخل، والغني الذي لا يمسّه فقر.

ولم يجعل الإبراء طريق العتق كالأداء إلا ليعلمنا بحكمة فينا لمن شاء فيمن تمسك بالعقد، وأعرض عن الأداء الواجب عليه، مرتكباً ما دعت إليه نفسه، تباركت أسماؤه وتظاهرت نعمائه، والحمد لله على كل ما أبدى من نعمه، وأخفى من حكمه، والصلاة على من نزلت عليه هذه المواهب، وخفت بسببه الضرائب، وعلى آله الطاهرين، وعباده الصالحين.

كتاب الفقر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمدت من ألزم العباد في الدنيا صفة الفقر إلزاماً، من أنكره وسعى للغنى لم يزد إلا فقراً وإعداماً، ثم وعد لهم كفايتهم بأسباب ظاهرة ضماناً من وثق به جاءت الكفاية من غير سبب إيقاناً.

وصليت على رسول الله عرف الحكم صدقاً، والوعد حقاً، فاختار الفقر وقد خیر، وأصاب الكفاية وما قدر.

وما على العبد إلا الانقياد لحكم ربه، والاقتداء بالرسول في سمته، غير أن الانقياد وإن لزم العبد إسلاماً، فما يهون إلا إذا عرف من الحكيم حكمته، وعرف من سمت صاحب الشرع معناه وحقيقته، وعلى بيان ذلك أيها الأخ بتوفيق من الله تعالى، هداية الله تعالى وإياك إلى ما عناني من أمور دين وعناك.

- وجوه تحقق الفقر أربعة :

اعلم أن الله تعالى لما خلقك عبداً ألزمك الفقر^(١) بناء على صفة العبودية

(١) يقول إبراهيم الخواص: الفقر رداء الشرف ولباس المرسلين، وجلباب الصالحين وتاج المتقين وزين المؤمنين وغنيمة العارفين ومنية المريدين، وحصن المطيعين وسجن المذنبين ومكفر السيئات ومعظم الحسنات ورافع للدرجات ومبلغ إلى الغايات ورضا الجبار وكرامة لأهل ولايته من الأبرار والفقر هو شعار الصالحين ودأب المتقين. وقال الكتاني: إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى لأنهما حالان لا يصح أحدهما إلا بالآخر.

ويميز الطوسي بين ثلاث طبقات من الفقراء:

- منهم من لا يملك شيئاً ولا يطلب بظاهره ولا بباطنه من أحد شيئاً ولا ينتظر من أحد شيئاً وإن أعطي شيئاً لم يأخذ فهذا مقامه مقام المقربين.

- ومنهم من لا يملك شيئاً ولا يسأل أحداً ولا يطلب ولا يعرض وإن أعطي شيئاً من غير مسألة أخذ.

- ومنهم من لا يملك شيئاً وإذا احتاج انبسط إلى بعض إخوانه ممن يعلم أنه يفرح بانبساطه إليه فكفارة مسألته صدقه.

وقيل: لو لم يكن للفقير فضيلة غير إرادته سعة المسلمين ورخص أسعارهم لكفاه ذلك لأنه =

- على ما سبق القول فيه وأقيم الدليل عليه - وابتلاك بأربعة من وجوه المحن متعلقة بهذه الصفة: معرفة الغنى، والقناعة بما أوتيت، وترك الفرح عليه ملكاً، وترك الأسى على ما فاتك.

فهذه وجوه أربعة، لأن العبد مع فقره مستغن بما نال من الكفاية، فكانت نعمة عليه من الغنى، فلزمه معرفته، والقناعة بما أوتي لأنه - وإن قل - فنعمة نالها بغير سبب سابق منه. ولا يفرح عليه فرح الملك لأنه فقير بسبب العبودية، لا يملك على الله وإن آتاه. ولا يأسى إذا فاتته لأنه لم يكن له حين آتاه.

أولاً

طرق معرفة الغنى أربع

ثم معرفة الغنى من طرق أربع: النظر في حاله قبل التسبب، وفي حاله بعد التسبب، وفي حاله بعد الإصابة، وفي حاله بعد الانتفاع به.

١ - فإن من نظر في حاله قبل انعقاد سبب الملك له عرف نفسه فقيراً لا يملك شيئاً، محتاجاً إلى ما يربيه من الأغذية، أو يشفيه من أدوية، وإلى ما يصونه من الآفات مدة بقائه.

ثم وجده يصل إلى ما يحتاج من لباسه وغذائه، فعلم أنه من مالِك غني، ضامن لذلك مليّ. فنظر في أصوله فإذا هم في صفة الفقر على سبيله. فنظر في البساط الممهّد، والبناء المشيد، فرأى الموجود فيهما من مطر أو نبات على سبيل التسخير بلا اختيار لتقدير، وعلم أن الغنى من خلق الأرض والسماء آلة للابتداء والإنماء، ثم الإخفاء والإيلاء.

٢ - ثم ينظر في حاله بعد التسبب. وأصل التسبب: الاستخراج من الأرض، وبه قوام كل أحد فإن التجارة النقل من يد إلى يد - فلا يجد من نفسه إلا سبب الإتلاف ببذر الحب وإخفائه، والفرح من إنباته وإنمائه، وذلك بطباع هوائية تتصل بالأرض، ما لأحد عليها من يد، فعلم أنه من مالِك الأرض والسماء، ومغير أحوال الهواء.

٣ - ثم ينظر في حاله بعد الإصابة، فيجده لا ينتفع به إلا بعد حاجته إليه، من جوع

= يحتاج إلى شرائها والغني يحتاج إلى بيعها، هذا لعوام الفقراء فكيف حال خواصهم؟
وسئل يحيى بن معاذ عن الفقر فقال: حقيقته أن لا يستغني إلا بالله تعالى ورسمه عدم الأسباب كلها.

أو عطش أو شبق، وتلك حوائج لا تثبت إلا بقوة طبائعه، ويجد نفسه لا تملك من قوتها شيئاً.

٤ - ثم بعد الحاجة لا يصل إلى الاستيفاء إلا بسلامة آلات الاستعمال، والسلامة مقرونة بانعدام الآفات، ويجد نفسه لا تملك من ردها شيئاً.

ثم يجده بعد سلامة الآلات لا يقدر على الاستيفاء إلا ببقاء ما نال من الأرزاق، وهو عاجز عن حفظ بقائها، كما عاجز عن حفظ نفسه وإبقائها.

فيجد نفسه في حال الإصابة أشد افتقاراً من حال العدم، لافتقاره في حال الإصابة إلى الحفظ ليبقى، ثم إلى الاستنماء لكيلا يغنى، فيعرف عنده مالك الغنى^(١).

فقال الأخ: جاء موضع الإشكال، فكأنك مخطئ في ذا المقال. إن حفظ المال أيسر من ابتغائه، والاستنماء أخف من إنشائه.

قلت: تلك بغية من ألزمك تعب الطلب إذا لم أنك عن السبب، وإنما قلت لك: نيل الكفاية حال الفقر، وما عليك من غم ألد من نيلها مشوبة بالهم.

وذلك تأويل قول الرسول ﷺ في الذي يصيبه شيء من الدنيا: «إن الملك الموكل به يقول: هاك بمثليه من الغم». أي غم الحفظ، وغم الاستنماء. فقل من طلب فنال فلم يحفظ، وقل من حفظ فلم يستتم، وكيف يدعهما ولم يطلبه إلا لمحبه، ومن ظفر بمحبوبه اهتم لحفظه خوفاً على فراقه، وسروراً بالظفر بمشتاقه، وفي الإنفاق منه فراق، فيبخل ويكد لاستنمائه، خوفاً من فائه، وحباً لنمائه، ولن يتمتع المرء بالمال إلا بعد الإستهانة به، ومن استهان به لم يطلبه إلا لضرورة، ومن توكل على ربه جعل له من الضرورة مخرجاً.

ثم نقول لك: إن الطلب للكفاية أيسر وألد من حفظ ليست له نهاية. الكفاية فرض وقت الحاجة، وذلك تافه ينال بأدنى عمل، وأما وقت الحفظ فما له من نهاية، فهو من فروض الأمل. ثم عمل الكفاية يسير، لا ينازعه على الإصابة - لتفاهته - كثير، والحفظ عسير، ينازعه عليه - لنفاسته - الجمهور، وأما الاستنماء ففيه القيمة، وسيأتيك إن شاء الله بيانه في باب القناعة.

ثم ينظر في حاله وقت أكله وشربه، لا يصل إليه نفعه، ولا يتخطاه شره، إلا

(١) يقول المحاسبي: الغنى هو أعظم النعم والدوام في أداء الشكر، ومثله الاعتماد بما تكفل به الرب، فمن عظم نعم ربه أحبه، وأدام شكره. فالذي يبعث على إعظام النعمة النظر فيما يعقبها إذا زالت لأن عاقبة النعمة البلية، فمن عظم ما أصابه من النعم حل به الغنى ولم يأسف على ما فاتته من الدنيا.

باعتدال الطبائع التي لا يد له عليها، ولا وصول بالحيلة إليها، إلا بالاصطبار على ما يكره من الأدوية، والاحتماء عما يجب من الأغذية، وربما أخطأ في تدبير الدواء، أو تقدير الغذاء، فأتصل به الغناء، فيعلم عند افتقاره إلى الصلاح، وعند الاستيفاء من جمع له بين هذه الطبائع الأضداد على اعتدال، أجراها على ما شاء من الزمان على مثال، وأنه هو التقدير الغني عن الثقلين.

ثانياً

وجوه القناعة الأربعة

فإذا عرف الغنى بالأحوال الأربع، وعرف فقره فيها أجمع، قنع^(١) بما أوتي من وجوه أربعة: معرفة أصل الكفاية، ومعرفة اجتماع جدوى جميع الدنيا فيها، ومعرفة قبائح الطمع، وفضائح الحرص.

أما معرفة أصل الكفاية فلأن يجدها من الله تعالى إحساناً بلا سابقة كانت منه إليه، وإكراماً بلا لاحقة تكون منه به، فإن شكره على ما تمتع به رضي به وقنع. فإذا قنع بالموجود، واشتغل بشكره، عرفه الله تعالى فرائد الموجود وعوائد أمره، فيجد نفسه على سنام اليسر والغنى إن تصورا في الدنيا، متختماً بخاتم الملك، على سرير الإمارة بقدر ما تجوز عنها من حيث الأملاك والاستيلاء في العاجل.

قال الأخ: فصل بديع، وأمر فظيع، أمرت رجلاً بلا جاه علم ولا زهد، ولا نسب ولا ملك عبيد ولا حشم ولا نسب، بل بقوت يومه، وإن من أخسر قومه، ازدرتة العيون، ولفظته الظنون، ما أرى هذا أمراً يكون.

قلت: تأمل بقلبك مكان عينيك، فالذي حكيتة ممّا تمليه الحواس، ويستحليه عوام الناس.

فقال الأخ: كيف السبيل إليه، وما الدليل عليه؟

قلت: أخبرني عن الذي ملك الدنيا بأسرها، وأعطى عمره في مهرها، ما الذي استدر من ضرعها؟

فقال: ملك الأمصار، واستخدم الأحرار، وصف الأشجار، وخرق الأنهار،

(١) قيل: الفقراء أموات إلا من أحياء الله بعز القناعة، وقال بشر الحافي: القناعة ملك لا يسكن إلا في قلب مؤمن، وقال أبو سليمان الداراني: القناعة من الرضا بمنزلة الورع من الزهد، هذا أول الرضا، وهذا أول الزهد، وقال وهب: إن العز والغنى خرجا يجولان يطلبان رفيقاً فلقيا القناعة فاستقرا.

وشيد القصور، وابتكر الحور، وأكل الألوان، وشرب على الألحان، واتخذ المغاني، وأدنى الأغاني، وتلهى بالغواني، وأطاعته الجنود طوعاً وكرهاً، وجاءته الوفود رغباً ورهباً، وما عليه من كل ذلك من وزر، إذ قام فيها بالأمر. أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. وقال: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مَّلَكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]. أفترى الله تعالى من بالمرتبة المهجورة؟

وقال سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلَكًا لَا يَبْغِي لِأَخِي مِن بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]. فكانه سأل المرتبة المذمومة. وقال في قصة يوسف: ﴿وَكَذٰلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوْهُ مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَّشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]. بين أن التمكين في الأرض رحمة منا وجزاء على ما سبق من حسن تسليمه لربه. وقال لمحمد خاتم المرسلين ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٧، ٨]. يعني: من عليه بالغنى، كما من عليه بالهدى. فما الدعاء إلى القناعة - وله طريق إلى المراتب العليا شرعاً - إلا من طريق العجز والعبادة. فأما إذا لم ينلها إلا بوزر، فليدعها لله بحكم الأمر، وإنما المناظرة معك على بيان الأولى منهما، مع انفتاح الطريق شرعاً إليهما.

فقلت: غصت لعمرى في بحار خواطرك لتخرج منها دراً فما أصبت إلا الصدف الخالي، وكأنك قد علوت، فذلك سبيل كل غال.

أما علمت أن الجسوم لتتعب في نيل هذه الأمور، وما لها منها من عثرة، غير قضاء شهوة بطن أو فرج أو بدن؟ والقانع بما أوتي قاضٍ لهذه الشهوة بلا تعب على سكن، فإلى كم تتبع الأسامي، وتترك المعاني؟

فقال: إن الغنى ليقضيها باللين والحسن، والفقير يقضيها بالحشب^(١) والخشن.

فقلت: تنبه، فكلامنا في القانع والحريص، ليس في الفقير والغني، وكم من قانع أوتي الملك، وكم من حريص استعجل الهلك، على أني فرضت الكلام في فقير قنع بقوت يومه.

فأقول: إن منزلة معتاد الفقر من قلبه مثل منزلة معتاد الغنى من نفسه، فقد هانت منزلته لديه ليسر الإصابة، وعزت منزلة هذا لدى الفقير لعسر الإجابة،

(١) أي الغليظ.

والظفر باب الملاة، والحرمان باب الاستطراف، وإن التافه قدراً ليحلوا في العين عند العزة، ويسقط قدر الرفيع مع الكثرة.

ثم الفقير لحاجته إلى التقلب ببدنه في حوائجه لعدم الخدم والعبيد، ولضرورة الأكل عند الحاجة لقلّة الوجود تقوى طبائعه، وتتقد نار شهوته، وتفاوت الاستلذاذ بسبب الشهوات أكثر من التفاوت بسبب المطعون.

فإن قلت: وراء قضاء الشهوة سرور.

قلت لك: فما السرور إلا من نيل المحبوب، ولكل قلب معتاد محبوب يناله من دنياه على اختلاف الطبقات على ما ذكرت لك في معتاد قضاء الشهوات، بل الفقير القانع يفضل المكثّر في سروره من حيث قلّة الهموم، فإنها تعتري القلوب لفوات المألوف، ومألوف المكثّر أكثر من مألوف الفقير بكثير، وكل على شرف الفوات والرحيل، فعلى قدر ذلك منزلتهما في الهموم.

فإن قلت: وراء هذا نشاط النفس حتى نفاذ الأمر، وعلو المكان على بساط الأمن.

قلت: إن الأحوال طبقات. وما من حالة للعبد إلا وهو منها بين طبقتين: عليا، ودنيا. وأمره نافذ في حاله على من دونه، غير نافذ على من فوقه. ونشاط كل نفس في معتاد حاله في طبقته مثل حال الأخرى، كما في السرور وقضاء الشهوة.

ثم القانع فضل الحريص بإغماض عينه عن الطبقة التي فوق طبقته، فكان نشاط نفسه في نفاذ أمره فيها غير مشوب بالتحسر على ارتداد أمره فيمن فوقه، ونشاط الحريص مشوب في النفاذ بالتحسر والتنغيص، وعلى هذا علو المكان.

وأما الأمن فللقانع دون غيره، إن الأمن بعد الأعداء، وعدم الأعداء بعدم المنازعة مع الناس، وذلك في القناعة بما أوتي سهلاً، وجنى عفواً، يتمتع بلا منع، ويتبرع بلا طمع.

إن الدنيا عجوز بكر، تبرجت لأزواجها، وأطمعت في ازدواجها، فعشقها الكل، إلا من شاء الله، وجادل بعضهم بعضاً لتخلص له فهلکوا قبل الوصول إليها، منعوا إلا من تمتع بمسّها قانعاً بالشركة حال غفلته بضرورة شبق، ثم طلقها بموجب الغيرة نادماً على ما سبق، تأكل الميتة وعليها الذئب والكلاب لسد الرمق.

أما علمت أن التعب في ترك القناعة لجلب صفة الغنى؟ وأنه عبارة عن صفة

الاستغناء، وأنت إذا بلغت مرتبة من سميته غنياً افتقرت لحفظ مالك إلى من دونك، افتقاراً اضطراراً، وكان افتقارك وأنت على الكفاية إلى الزيادة على سبيل الاختيار، فإنك تجد كثيراً من الفقراء القانعين من أهل الزهد والوحوش تمضي أعمارهم بغير ادخار، ولا حاجة إلى أهل اليسار، ولا ترى غنياً مستغنياً بنفسه عن خدم وعبيد، ولا أميراً إلا مفتقراً إلى عساكر وجنود.

فلماذا التعب فراراً عن الفقر وأنت متهافت في حبائله؟ أو لماذا الحرص وروداً على الغنى وأنت ضال في مناهله، فالقانع بحاله قد استغنى بتعففه، وهيب بتحملة، وأحب في مروءته واستشير لحسن رأيه، وأطيع لإصابته، فسوده كرم نفسه، وأمره عظيم خلقه، فأصبح مقصوداً وما عليه أثقال الحشم، ولا أوزار الهموم، آمناً عن جدال الأضداد، وما يشغله إلا حسد الحساد، وذلك باب مفتوح على كل طبقة، من تأمل في سببه حمد الله تعالى عليه، ولم يطلب في منازل النعم مقاماً إلا لديه، فإن الحسد نار تتقد في الحاسد بنعمة من المحسود، يزداد أبداً بزيادة النعمة فيه.

فقال: ومن أين التجمل والمروءة للقانع الفقير؟

فقلت: إن تجمل كبار النفوس ليس بزيهم، ولا مروءتهم في حليهم، وإنما تجملهم بمكارم الأخلاق، وإن تمام كرم الخلق بترك الدنيا لأهلها، فإنهم طالبوها، فالبخل بعد الطلب قبيح بالمصائب، فكيف البخل قبل الإصابة بالأسباب؟

وأما المروءة فكلها من الإحسان. وحده: ترك حقك لغيرك. وأصله: ترك المنازعة فيما لك من خيرك.

فإذا عرفت هذا تبين لك أن طيبات الرزق متكاملة لذي القناعة من الخلق، وما حرمانها، وإنما منعناك من كشف الفقر بالحرص، وإتعاك النفس بالطلب، واحتمال الذل بالطمع، غير أن ملك القانع ملك خفي، ولا يصل إليه إلا قلب ذكي، عمل صالحاً فأنا الله تعالى صدره بالعقل، وبصر روحه بالقلب.

وقد تكلم في تأويل الحياة الطيبة. فقل: رغد العيش على سلامة النفس. وقد يصيبه القانع عطاء من الله تعالى، كما أصاب الأنبياء عليهم السلام من غير إذابة نفس، ولا إتعاب جسم. وقيل: الحياة الطيبة: لمن تلذذ بما أوتي بقوة طبائعه، وصحة بدنه، ولم ينقصه ما فات بقناعته. وقيل: الحياة الطيبة: لمن شغل عن الدنيا بالمولى، فطابت حياته في مقام الخلوة، قريراً بالقرب مسروراً بزوال الوسائط والحجب.

وأما قول الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨]، فمعناه

- واللّه أعلم :- ووجدك عائلاً تفتقر إلى العمل لقوتك فاغتنال عن العمل بمال خديجة، ولم ننكر عليك من مالك إلا الحرص. ويحتمل: ووجدك عائلاً برؤية نفسك، فأغناك برؤية ربك.

أما الملك العظيم لآل إبراهيم فكان في النبوة والعلم، والحكمة والقناعة والرضا، والشكر على المقسوم لهم من ظاهر النعمة. فقد بينا لك أن الملك في الدنيا إن تصور لكان فيهما لا يعدوهما، ولم نقل فيما سبق: إن زيادة النعم الظاهرة عقوبات في نفسها، فقد ذكرنا أن قدر ما أوتي من الكفاية نعمة، فكذلك الزيادة من جنسها تكون على صفة أصلها بطريق الكفاية لا بطريق الحرص.

وأما سؤال سليمان فحسن. سؤال فقير من أغنى الأغنياء، وإنما نهيناك عن الطمع من أمثالك من الفقراء، والسخط على ما قسم لك، والشكاية مع ما أسدي إليك. وقد نطق القرآن به: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧]. ومن قصص الأنبياء عليهم السلام كلهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠]. فالسؤال من الرب حسن، وما يجوز للعبد قط أن يشبع من إحسان ربه، أو يدع الافتقار إليه، غير أن الأنبياء صلوات الله عليهم سألوا الدنيا ليأسروها للمولى، ويتوصلوا بقهرها وإهانتها إلى العقبى، كما فعل سليمان عليه السلام، وأنت تسألها لتكرمها وتهين نفسك، وتعلو بها وتنسى ربك، وتكون عبداً من عبيدها، وواحداً من جنودها.

ثم ندع هذا الذكر، ونرجع إلى الشرع والأمر، فأعلى المنازل ما صرت إليه بأمر شرعك، لا ما ملت إليه ببعث طبعك، وإن الغني مأمور بالزكاة فرضاً، وبإقراض الله تعالى نفلاً، والفرض يأتي على البعض، والقرض يأتي على الكل، فيصير فقيراً بالأمر، والفقير ما أمر بالكسب إلا حال الضرورة قدر الكفاية، والزيادة عليها تكون بدعوة الطبيعة، لا بأمر الشريعة.

- أقسام الناس أربعة :

ثم الناس أربعة: مشغول بالدنيا عن المولى، ومتخذ إلهه الدنيا، ومشغول بالمولى عن الدنيا، ومسؤول على الدنيا للمولى.

١ - **فالمشغول بالدنيا عن المولى:** جهال الكفرة من الذين اتبعوا آباءهم، ولم يعرفوا إلا أرضهم وسماءهم، فشغلوا بها عن الله تعالى فيجهلوه.

٢ - **والمتخذ إلهه الدنيا:** حكماء الفلاسفة من الطبائعيين، والقرامطة من الباطنيين، تأملوا فيما أحسوا من الظواهر، فوجدوا فيها إمارة الحدث، فتعدوا عنها إلى

العناصر، وسموها «الهيولى». وقالوا: هي العلة الأولى.

٣ - **والمشغول بالمولى عن الدنيا:** أولياء العزلة، من الذين علموا المحدثات بحقائقها، فتعدوا عن العناصر إلى خالقها، فبقوا عنده طالبين رضاه، أو راغبين في ثوابه، أو خاشين سخطه، أو هاربين من عقابه، واشتغلوا بشدة الطلب أو فرط الرغبة، أو صدق الخشية، أو قصد الهرب عن الدنيا خوفاً من تقاعدهم عن مقامهم إن التفتوا إليها، فهي في أيديهم كأنها ليست لهم، وليست لهم كأنها لهم.

- مقامات أولياء العزلة أربعة:

ومقاماتهم في ذلك أربعة: مقام المحبة، ومقام الخشية، ومقام الرغبة، ومقام الرهبة.

فمقام المحبة: بمعرفة الله على صفة الكمال^(١). ومقام الخشية: بمعرفة العبد نفسه على النقصان والقصور^(٢). ومقام الرغبة: في معرفة ما في جميل الموعود. ومقام الرهبة في معرفة ما في شديد الوعيد.

(١) يكون حال المحبة لعبد نظر بعينه إلى ما أنعم الله به عليه، ونظر بقلبه إلى قرب الله منه وعنايته به وحفظه وكلاءته له، فنظر بإيمانه وحقيقة يقينه إلى ما سبق من الله تعالى من العناية والهداية وقديم حب الله له فأحب الله عز وجل، ويميز السراج بين ثلاثة أحوال من المحبة:

- الحال الأول من المحبة محبة العامة، يتولد ذلك من إحسان الله تعالى إليهم وعطفه عليهم وهذا الحال من المحبة شرطها.

- والحال الثاني من المحبة يتولد من نظر الطلب إلى غناء الله وجلاله وعظمته وعلمه وقدرته وهو حب الصادقين والمتحققين وشرطها هتك الأستار وكشف الأسرار.

- الحال الثالث من المحبة هو محبة الصديقين والعارفين، تولدت من نظرهم ومعرفتهم بقديم حب الله تعالى بلا علة فكذلك أحبوه بلا علة.

(٢) يتحدث الدقاق عن الخوف فيقول: الخوف على مراتب، خوف الخشية وخوف الرهبة، فالخوف من شرط الإيمان وقضيته، قال الله تعالى: ﴿وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، والخشية من شرط العلم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ويميز أبو القاسم بين خوف الرهبة وخوف الخشية: صاحب الرهبة يلتجئ إلى الهرب إذا خاف، وصاحب الخشية يتجه إلى الرب.

ويرى السراج في أهل الخوف ثلاثة أحوال:

- خوف العامة: اضطراب قلوبهم مما علموا من سطوة معبودهم.

- خوف الأوساط: من القطيعة واعتراض الكدورة في صفاء المعرفة.

- خوف الخصوص: الذي قصدهم سهيل بن عبد الله: لو قسم ذرة من خوف الخائفين على أهل الأرض لسعدوا بذلك أجمعين.

فالمحبة أصلها: الصفوة، وفرعها: طلب رضا المحبوب، وثمرتها: أنس المحب.

والخشية أصلها: الحياء، وفرعها: الاعتذار، وثمرتها: القبول.

والرغبة أصلها: الطمع، وفرعها: التعب، وثمرتها: الوجود.

والرهبة أصلها: العجز، وفرعها: الهرب، وثمرتها: النجاة.

فمن رهب عجزاً أمسك عن سببه، ومن رغب طمعاً سعى لأربه، ومن خشيه حياء شغل عن رؤية أعماله بالتهذيب، ومن أحب صفوة عمي عن تفاوت أقسام الحبيب.

فالمقامان الأولان للمستدلين، والآخران للمستحقين. فالوصول إلى علم ذات الله تعالى، وقصور ذات العبد بالاستدلال، والوصول إلى الجنة والنار بالسمع. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]. وإنما لإثبات المذكور، ونفي ما عداه. فأينا العالم يخشى الله تعالى، ويرهب من سواه، فدل على أن الخشية غير الرهبة، كالرغب غير الرهب. فالخشية بمعرفة العبد نفسه على النقصان والقصور، فلا يتصور ذلك من جاهل بنفسه، رهب الله تعالى بالسيف والسعير. وقال تعالى: ﴿ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وإنما خشي رسول الله ﷺ الناس حياء أن ينسب إلى الاستنثار، لا لمكروه يلحقه منهم على اقتدار.

والله تعالى ذكر المقامات كلها في كتابه، فقال: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكهف: ٢٨]. فهذا مقام المحبة. وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]. فهذا مقام الخشية. وقال تعالى: ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. وهذا مقام الرغبة والرهبة.

٤ - والمستولون على الدنيا للمولى: الأنبياء عليهم السلام، وورثتهم من أولياء العشرة، وهم الزهاد من الفقهاء، عرفوا الله تعالى وآمنوا به، وعرفوا أعداءه فقصدوهم بالاسترقاق، وعرفوا إمامهم وهي الدنيا فقصدوهم بالاستغنام، ليكون الكل لله، ولعباد الله، مصروفاً إلى سبيل الله، فتصير الدنيا عند ذلك للوصول إلى الله تعالى أسباباً، بعد ما كانت عن الله حجاباً، ولله أنصار بعد ما كانوا كفاراً، وإنها لمن أعلى المراتب، وهذه القوة من أعلى المواهب.

ومثال الفريقين من أصحاب ملوك الأرض: الندماء، والوزراء. غير أن الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين منهم من سألها ربه لنفسه، ليصرفها إلى عباده

في سبيله وجهاده، كسليمان عليه السلام، ومن أوتي ملكاً في الدنيا من النعيم الظاهر.

ومنهم من سألها لعباده، ليكون أقرب إلى الكرم والسخاء، وأدل على هوان الدنيا، وكيلا يرى فيما هو نعمة عند الأعداء، تحقيقاً لديهم: أن الدار للابتلاء، وإنما نعيمها متاع، ثم حساب، أو غرور وعذاب، وإنما هو عبد فقير مأمور مسجون في مملكة الأعداء، ما يريد براحاً عن الفقر، ولا إعراضاً عن الأمر، ولا عتقاً في الحال عن الرق، بل يعاديهم في الله ليفتح المملكة لله، ويأسرهم لله، فيرجع إليه منصوراً إن رجع إليه وإلى العزلة مدعوراً، كمحمد رسولنا عليه السلام، وإنها لأعظم الدرجتين، وأعلى المنزلتين عند الله.

- مقامات الأنبياء عليهم السلام في حق الدنيا أربعة:

ومقامات الأنبياء عليهم السلام في حق الدنيا أربعة: من زويت عنه الدنيا فلم يطلبها، ومن عرضت عليه الدنيا فلم يقبلها، ومن لم يعط فطلبها، ومن أعطي فلم يردّها.

فالأول: مقام الرضا والهيبة، والثاني: مقام الكرم، والثالث: مقام الافتقار، والرابع: مقام الجود.

١ - رضي الأول بالقسمة، فلم يتحرك لغيرها هيبة، فشكر مكان الشكوى من غيره، وسكت مكان السؤال من خيره وكرمه.

٢ - وأما الثاني فآثر غيره على حظّه، وقد خير في أخذه لله تعالى، شكر الخالق بالتفويض إليه قسمة الرزق، فآثر الله تعالى على نفسه بالشكر، وعباد الله عليه بالملك، فكان شكر الأول وسكوته، وكم فرق ما بين العبد وملكه، وما بين الله وملكوته.

٣ - وأما الثالث فرأى فقره وغنى ربه، فلم يصبر على الإظهار إليه، ليحقق بلسان ما اعتقده بقلبه، ثم سأل عن ملكه تحقيقاً لما أيقن في وعده بنجزه، فشكا إلى الله تعالى مكان رضا الأول، وطلب مكان سكوته وسأل.

٤ - وأما الرابع فقد أوتي النعيم في الدنيا مصفى عن خبثها، كما صفيت نفسه عن دنسها، فقبلها ليجود بها على خلقه، تحقيقاً لكرم الله عليهم بفعله، فاستأثر بالحظ قبل أن آثر، وأثبت الجود لنفسه قبل أن أظهر، لكنه جاد على خلقه مكان شكوى الثالث ورضا الأول، وعمل لله مكان سكوت الأول وسؤال الثالث.

فصار مقام الكرم أعلى المقامات، ثم مقام الرضا، ثم مقام الافتقار.

أقسام الناس في منازل الدنيا أربعة :

والناس في منازل الدنيا أربعة أقسام : قسم رأوا الرزق من الدنيا ومن الأسباب ، وقسم اتكلوا ، وقسم رأوه بالأسباب من المولى ، وقسم توكلوا .

١ - فالأولان عامة الناس من الذين لم يعلموا إلا ما أدركوا بحواسهم ، فأقبلوا على الأسباب بأنفسهم ، غادين على تعب ، راثحين إلى نصب ، ما باينوا الأنعام إلا بفرط الكد بدعوة الأمل ، وترك التمتع في مدة المهل ، فأولئك الذين قال الله تعالى لهم : ﴿ إِنَّهُمْ إِلَّا كَالنَّعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٤] . مع ما لم يصلوا إليه إلا بخدمة الأنعام ، أو صحبة الطغام ^(١) .

٢ - وأما المتكلمون فالمكدون الذين لا يرون رزقهم إلا من أموال غيرهم ، فيتكفونهم خاضعين بالسؤال من غيرهم ، وإنهم لشر الفريقين في باب الطلب والخشوع . فالأولون ما رجعوا فيما باشروا من السبب إلى ذل وخضوع ، وما لهؤلاء إلى غير هوان ومذلة من رجوع ، وإن الذل والهوان لأحط منزلة من الكد ، والسؤال والأخذ أدون درجة من البخل .

٣ - وأما الطالبون من الله تعالى بأسباب ، فعامة المسلمين ، باشروا الأسباب بظاهر الشرع ، وتوكلوا على المسبب بحقيقة الأمر ، كما قال النبي ﷺ للأعرابي الذي قال : أرسل ناقتي وأتوكل : قال : « بل اعقلها وتوكل » ^(٢) . وقال الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ فَاتِّفِرُوا نَابِتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء : ٧١] ، ﴿ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وكان عليه الصلاة والسلام إذا خرج إلى الغزو لبس درعه ، ويوم أحد ظاهر بين درعين ، وكان ينصب الحراس حتى نزل : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] .

إن رسول الله ﷺ كان قدوة للناس كافة ، وصلاحيهم في هذا ، إذ توكلهم على الله تعالى لا يبلغ منزلة تلغي السبب ، فذلك أعلى الرتب ، لا ينال كل أحد .

فمن تسبب بقدر الكفاية كان عدلاً في دعوى توكله صادقاً ، ومن تسبب للتكثير كان رذلاً ، وخفنا أن يكون في دعوى التوكل كاذباً ، فإن لم يكن فلازم عليه السفه . جمع في غير منفعة ، ومنع في وقت الحاجة لا لمتعة .

٤ - وأما المتوكلون فهم خاصة المسلمين الذين اطمأنت قلوبهم إلى الضمان ،

(١) أي أوغاد البشر .

(٢) رواه الترمذي في كتاب (صفة القيامة) باب رقم (٦١) حديث رقم (٢٥١٩) ، وقال : غريب لا نعرفه من هذا الوجه .

وانشרכת صدورهم بنور الإيقان، فتأتيهم الكفاية كما تأتي الأجنّة والطفول والدواب التي ما في أيديها إلى أرزاقها من أسباب، يرزقها الله تعالى وإياهم، وهو العليم القدير.

وبلغنا أن أهل الصفة زمن رسول الله ﷺ كانوا من المتوكلين، ولما كان عهد عمر رضي الله عنه، وخلفهم خلف بدلو طريقتهم بقلوبهم، وسلكوا بجسومهم، قال لهم عمر: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون. فطردهم وقال: «أنتم المتأكلون».

ألا يعلم العبد لو حقق النظر أن الأرزاق مقسومة، والأمور كلها مكتوبة، لا تبديل فيما سبق، وهو الحكيم العليم، وأن رزق المرء لا يأكله غيره، فلماذا خوف الفوت فالهرب، ورزق غيره لا وصول له إليه؟ فلماذا الجمع والطلب؟

كم من أكل ممّا جمع غيره، فكم جامع لغيره خيره، وكم من ميت جوعاً وله مال، وكم من ميت شبعاً ورياً وما له حال. وإنما خففت المؤنة على نفسك في توكلك من حديث النفس، فلن تموت نفس إلا بما قدر لها من الأزل، ومن كتب عليه القتل أبرز إليه في المنزل، وقد قال جعفر الصادق رحمه الله: «علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت، وعلمت أن عملي لا يعمل له غيري فاجتهدت، وعلمت أن الموت كائن فاستعددت»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إن الروح الأمين نفث في روعي: أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»^(٢).

قال: فعلى هذا يجب ترك العبادات، فما بجهد يتغير الحكم الماضي، ولا يرجع بسببه عن قضائه القاضي.

فقلت: أجل، غير أن الله تعالى ابتلانا في أسباب الآخرة خلافاً لأنفسنا بتركها إلا الحاجة، فما الابتلاء إلا في جهاد النفس، وسبب السعادة هو الطاعة في الأصل، فبذل مباشرته أسباب الآخرة على السعادة، ومباشرة أسباب الدنيا على الشقاوة، ودليل ذلك: أن الحكيم عزّت قدرته كما جعل الآخرة جزاء، والجزاء لا يكون إلا خفياً، علم أن العمل لها سابق، ولما جعل الدنيا متاعاً لك قبلك علم أنك بلا عمل لها بها لاحق، ولأنه خلقنا فيها للابتلاء بالعبادات، وذلك بالعمل، فعلم أنه حق مطلوب، وبني الخطاب على قدرة لا تنالها إلا بالرزق، ثم لم يلزمنا طلبه، فعلم أن الرزق مضمون.

(١) رواه القضاعي في (المسند) ص (١١٤).

(٢) رواه ابن ماجه، والهيتمي في مجمع الزوائد (٧١/٤ - ٧٢).

فإن اشتبهت عليك هذه الجملة فاقراً كتاب الله تعالى، وعد الأوامر بجمع المال، والأوامر بصالح الأعمال، وضمنان المغفرة بغير سبب، وقران الرزق بالطلب.

أليس قد قال عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿[الذاريات: ٥٦، ٥٨]. وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلْ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [طه: ١٣٢]. وقال: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٥٩]. قرن التهلكة بالبخل الذي يبقي المال، والنجاة بالإنفاق الذي يغلقه، فكيف ظننت أنت أن النجاة في البخل، والهلكة بالجود؟ وقد قال رسول الله ﷺ: «الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه»، فقليل: يا رسول الله ففيم العمل؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»^(١). ثم تلا قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَفَى* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى* فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى* وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى* وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى* فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ٥، ١٠]. فأشار إلى أن السعادة مقرونة بعمل الخير، وبدأ تفسيره بالإعطاء والبذل، والشقاوة مقرونة بعمل الشر، وفسره بالاستغناء والبخل، فكل نوع من العمل دليل على ما تعلق به. قال تعالى: ﴿وَلَا نُزِدُ وَازِرَةً وَنَزِدُ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]. ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى* وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم: ٣٩، ٤٠].

وأما الرزق فمما ضمنه الله تعالى لخلقه، لأنهم عباده، لا لأنهم عابدهو لحقه، فقد اشترك الناس والوحوش فيما يتقون برزقه، وإنما الأسباب الظاهرة لبيتلينا بتركها إلى ما ضمن في الأزل، إلا لحادث أمر، كأسباب الآخرة، التي هي خلاف النفس لبيتلينا فيها بالعمل إلا لعارض عذر.

أم أنت أطعت النفس، وقلبت القصة، فتركت أعمال الآخرة اعتماداً على ضمان المغفرة مقروناً بأصل الجبلة، وباشرت أسباب الرزق لتعلقه بتلك الجملة.

فقال: فلا تظن أحداً أعلى مرتبة من الرسول الأمين المبين، الذي أكمل به الدين، وأنه ﷺ عرضت عليه الدنيا لما توكل، لكنه أعرض عنها استهانة بها، وإيثاراً لغيره، وتركاً لراحة ينالها بمال الدنيا وخيره، ثم اشتغل بالسبب خلافاً لنفسه، وتفريقاً لقلوب الناس عن كفايته بما أوتي من الطلب، ووصولاً إلى إقامة كفاية المحتاجين من الفقراء والمساكين، لا أنه رأى رزقه منه مضموناً، بل لينال بالطلب بتلك النيات مع حقيقة التوكل ثواب العمل، ثم طلبه بأسباب ابتلانا الله تعالى بفعلها ما تكرهها مرفقاً للمشركين، ورعاية للمسلمين، لا بالأسباب التي هي

(١) رواه مسلم بتمامه في كتاب (القدر) باب (في القدر والشقاوة والسعادة) حديث رقم (٢٦٤٧).

أسباب عمارة الدنيا، مما ابتلانا فيها بالشرك، من تجارة وحرارة أو صناعة. فقال عليه الصلاة والسلام: «جعل رزقي تحت ظل رمحي»^(١).

وإن ذلك للدرجة المتناهية علواً، الجامعة من العبودية والعبادة، فالتوكل عبودية، والطلب بسبب هو عبادة، وكما كان رسول الله ﷺ خير الأمم، كان أعلى الهمم، وذروة سنام الكرم، على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان مقتدى به، فباشر سبباً لرزقه، ممّا هو عبادة بنفسه، ليكون في ظاهره صلاح العامة، وباطنه صلاح الخاصة، لتتم عنده فائدة الاقتداء، وعائدة الاهتداء.

قال: فإذا، قد رجحت مقام الصبر - وذلك مقام الفقر - على مقام الشكر، والصبر ضروري، والشكر اختياري، ومقام صاحب الاضطراب كمقام المختار.

قلت: إنك أيها الأخ إلى الاسترشاد أحوج منك إلى الاحتجاج قبل الفهم، فإنك في المقامين - وما لك بهما من علم - مضطر من ترك الغنى مختار من تطبيق البر فراراً، إنما مقام الصبر عند ترك الجزع على ما كرهه كرهاً، لا عن النجاة عن الحجاب والحساب طوعاً، وسيأتيك شرح ذلك في ذكر الدنيا إن شاء الله تعالى.

وقد سئل رسول الله ﷺ الذي اختار الله وترك الدنيا عن جهده في عمله، فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(٢). وقد سئل واحد من الزهاد، فقال: «الذين إذا وجدوا شكروا، وإذا فقدوا صبروا. فقيل له: وكذلك الطلاب. فقال: من هم؟ قال: الذين إذا وجدوا أثروا، وإذا فقدوا شكروا».

فقال: وما تأويل قول الرسول عليه الصلاة والسلام إذن: «حبب إلي من دنياكم ثلاث: النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة»؟^(٣). وقد ذكرت أنها عرضت عليه منكوحة فطلقها، ومملوكة فأعتقها. فكيف أحب منها النساء والطيب؟ «دنياكم»: أنها ليست له، وأبان بقوله: «حبب» أن الذي بيده القلوب حبب إليه منها النساء، لأن في النكاح وصلاً وإحساناً قبل قضاء الشهوة، ووجوب نفقة ورعاية، وضروب محنة من جنس ما يكون في رعاية الأمانة. ثم فيه إقامة حكم الله تعالى، علق بفعلنا، من تعلق بقاء العالم بنسلنا، ولا ننسل إلا بالماء، وبقاء علق بماء الرجل لا يتصور من ماء غيره، ولا يتصور من مائه على ما شرّع الله إلا بعد ملك، ولا ملك إلا بعد سببه المشروع، فصار مبتلياً بفعله طاعة لربه، في إقامة حكمه.

(١) رواه البخاري في كتاب (الجهاد).

(٢) رواه البخاري في كتاب (التهجد) باب (قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه).

(٣) رواه النسائي في كتاب (عشرة النساء) باب (حب النساء) حديث رقم (٣٣٩١).

ولأنه أمرنا بالجهاد لتبديل صفة الكفر بالإيمان خوفاً من القتل، وفي النكاح تسبب لإيجاد المؤمن من الأصل، غير أنه علق بالشهوة ليكون أدعى إلى إقامة ما فيه بقاء العالم إلى يوم القيامة.

فأما بقاء الحياة المعلق بأكل الرجل من خيره، فما بمال غيره، فلا يفوت حكم الله تعالى بإعراض عن التكسب إلى التوكل والترهب، فصار الأصل في باب الرزق لما كان يحصل بالمباح، جاز الإعراض عن سبب الملك، إلا إذا خاف الفقر، وفي باب بقاء الجنس بالنسل لما لم يشرع بغير ملك، وجب الاشتغال بسببه إلا إذا خاف الظلم.

وأما الطيب فإنه خط الروح والملائكة، حتى لا يكاد ينتفع بأصله إلا الروحانيون من بين الحيوانات، والملائكة رسل الله، والروح من أمره، جاء من عنده من بين الموجودات، فكان الطيب من حظوظ أهل الآخرة، وإن كانت جواهره في الدنيا ظاهرة.

وأما الصلاة فرأس العبادات ظاهرة وباطنة، فكان ذكر الصلاة معها دليلاً على أن المذكورين قبلها في المعنى مثلها، ولهذا قدم العلماء النكاح على التخلي لعبادة الله تعالى، وجعلوا التطيب من سنة العيد والجمعة، وآداب سائر الصلوات لله تعالى.

- مصالح ترك الطمع أربع :

فإذا عرف العبد نظام الأمر في الغنائم، أعرض عن الأسباب التي لم يبتل العبد بفعلها، لولا الشهوات الداعية إليها، طلباً للراحة والدعة قبل أن ينظر إلى التقوى والدعة، ثم ينظر فيما يدعوه إلى تركها فيجد مشتته من الطمع فيما ليس عنده، حتى إذا ما تأكد طمعه حرص على طلبه.

فيلزمه بموجب العبادة ترك الطمع، لما فيه من مصالح أربع: أولها الكفران الظاهر ثم الفقر الحاضر، ثم الذل اللازم، ثم الأسف الدائم. لأنه لا يطمع فيما ليس عنده حتى يستقل حظه، ولا يستقل حظه حتى يقوم عن مقام الشكر، ولن يقوم عن مقام الشكر إلا بضده وهو الكفران، وأنه سبب ذهاب القديم دون وجدان النعيم، فلن يزداد العبد كفراناً - وهو رأس القبائح - إلا ازداد حرماناً.

ثم يتحوّل عنه في قيد الافتقار إلى شكله، وقد أطلقه الله تعالى عن مثله، وذلك لأن المظموع خط هو عنه ممنوع، فإذا أراحه - ولا يجد عنده - كان العدم فقراً اختياراً، ثم سعى إلى ذي اليد ليطلبه منه، فكان افتقاراً. وأي سفه وقبح أعظم من سعي عاقل لرد فقره بما يزيد فقراً في أمره.

ثم يتحول إلى مجلس الذل إذا سعى الطامع مع القلة سعي طالب وسائل عن افتقار، لا عن سعي مغالب على اقتدار، وإنما يتم سعي الفقير بالتذل والاستكانة، والملق والخيانة، وكلها خصال قبيحة، غير مرضية لمختار، ومناهل أجاج غير متأتية إلا عن اضطرار.

ثم يحلّ إذا افتقر وسعى وتذلّ، ورأى ما في أيدي الناس - بميادين الأسف، وسقيهاها: المني، وغراسها: النغيصة، وجناها: الأسى، فيجتني منها للوجه صفرة، وللعين سخنة^(١)، وللقلب حسرة. فإن تعدى بها تولد منها علّة الحسد، وإنه لنار تحرق الكبد، وتأكّل الجسد، والمحسود له غافل، والطبيب بعلته جاهل، وما بعد التحسر بالفوت إلا تجرّع كأس الموت، على حال قبيح، وبال جريح.

- ترك الفضائح الأربع:

ولئن أخطأ الأجل دعاه الشر إلى الحرص، ولقد وجب تركه لفضائح أربع: أولها: إرقاق الجسم بلا متعة، ثم إعلان الفقر بلا حاجة، ثم استعذاب البخل بلا فائدة، واستحلاء الكل بلا ثمرة.

لأن من حرص على شيء دام عليه دوام الرقيق بوثائق الرزق، وعبد عبادة العبيد في لباس الذل، ليس طوعية تعلم من الفقر أبداً علانية.

فالفقر صفة لازمة للعبد لجانب مولاه، مستور عن أهل دنياه، ما يعلن إلا الحرص، ولا يحمله على الحرص إلا شره النفس، وأي فضيحة أسوأ من إعلان الفقر للبشر، وفيه ذهاب القدر والمنزلة والخطر.

ألم يبلغك قول علي رضي الله عنه: «استعز عمن شئت وكن نظيره، وامن على من شئت وكن أميره، واحتج إلى من شئت وكن أسيره».

فالطمع: إحضار الفقر، والحرص: إظهاره. وذهاب القدر والمنزلة ثماره. بثت الشجرة، وبثت الثمار، وبثت التدبير، وبثت الاختيار.

وليته رجع إلى فائدة فيما أرق نفسه، فقلّ من حرص فلم يحرم، وقلّ من أنصف فلم ينعم، غير أنه أعلن فقره للجماعة، وكان مستتراً بالقناعة، فلم يغنم بإرقاق جسمه إلا حرماناً، فرباه بإعلان فقره، فأثمر هواناً، فذاق منه فاستعذب البخل بما عنده من الفضل. فمن دعاه الحرص إلى القلب بسبب يسير ألزمه منع الموجود، وأساءه الظن بالمعبود.

(١) سخنة العين ضد قرتها وهو ما يؤذيها ويضجرها.

والبخل كتاب عزل المهابة والمحبة والحشمة، ومنشور المسكنة والبغضاء والخسة، فإذا تملل في هذه الولاية الدنية بهمة في الحرص عليه، ملّ وتمنى الخروج، فنما واستحل الكدّ، واستراح إلى الجهد، وقد خانه جسده، وغرق سعده، فسار عن مملكة البخل في طريق الجهد إلى سجن الجزع في قيد من الهلع، لا راحة له قدر نفس، ولا نجاة له إلا بنفس.

فإن قلت: كم طامع نال، وحريص تمول، قلنا لك: أكان ما أصاب عوضاً يساوي ما لزمه من الفضائح، أو طهره عن دنس القبائح؟ وإن ساوى فماذا أفاد أو أثمر؟ هل أناله وراء المقسوم حقاً، أو أتاه فوق الكفاية رزقاً، إلا عذاباً من الكدّ عاجلاً وحساباً على الجمع آجلاً؟

على أنه قد نال مثل حظه من الناس من ليس بحريص، فما باله توسخ بهذه الفضائح، وما واسطتها إلا التنغيص.

ترك الفرح:

فإذا قنع لم يفرح بما أتاه من وجوه أربعة: اثنان في أن أتت نعمة، واثنان في أن أتت فتنة.

أما وجهها النعمة، فإن النعمة ذات مهر، لا تقيم عندك بإيفائه، وهو: الشكر، وأنه المهر الغالي، الذي أفلس الخلق عن وفائه، حتى كان الدعاء لرسول الله ﷺ بالرحمة موزوناً، ليخرج عن شكر نعمة خصّ بها من بين البشر، فقد كان غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وحتى تضرّع سليمان عليه السلام إلى الله تعالى ليوزعه شكر ما أنعم عليه وعلى والديه.

أملى له أحد بعد الأنبياء بما في يديه؟ كلا، مع أنها على شرف الزوال، ولعمري إن هم الفراق لينال في فرح الوصال، على أنا إذا ذكرنا لا نريد في متعتك ولا عزك ولا منعك، وإنما أثقل يديك، وشغل قلبك، لتعلم أن الدنيا دار محنة لا دار نعمة.

أما وجهها الفتنة: فإنها ذات غرور وخداع، بحسن إقبال وإطماع ووصال، ثم مهرها - وهي فتنة - كل عمرك، فإذا وفيتها كانت لا بد لغيرك، مع أنك إذا ظننت اعتناقها، وأمنت فراقها، نسيت ربك، فانتقلت عن مجلس النسيان إلى فرس الطغيان، فبينما أنت تجول في ميادين اللهو على فرسك الطاغية، إذ سلبك العنان، وجاوز بك الميدان، فصرعك في واد لا يغنيك فيه نادى: ما لك وجه خروج، ولا وسع عروج. فالدنيا راحلة عنك إلى مثلك بلا اعتداد، كما شاهدتها أقبلت إليك عن إعداد.

أيفرح عاقل بمثلها، أو يسرّ بوصولها؟ ما الذي حرم سروراً بالخديعة والغرور. هذا لك في الدنيا مع ما لك منها في الآخرة من القطيعة والسعير.

فإذا لم يفرح بما أتاه، لم ييأس ممّا فات من دنياه من طرق أربعة: أما إن كانت أتت نعمة، فلأنه بريء من المهر، ولم يرد شيئاً في الفقر، فالمتعة الأولى باقية، وذخيرة الصبر في الأخرى حاملة، ولأنها لم تكن وهي فريدة تملكه، بل كانت لربه ولم تنقص، وقد فات شيء من رزقه، فإنه على الله يؤتیه بحقه.

وأما إن كانت فتنة فإنه يأبى حذر الوقوع فيها فأمن، وانقطع عنه دعوة الشهوة فشكر، فما العبد في قناعته إلا كالمريض في حمايته، فإذا عدم ما لا يوافقه سكنت طبائعه. وإذا عرض عليه انبعثت نوازعه، وربما لا يملك أعينها فيهتلك في منيتها، وإن من العصمة ألا تجد، وهي أقل مصراعي باب الرحمة، والمصراع الآخر من التوفيق. وما الأمل للعاقل - وهو في باب الرحمة - برفيق، بل واجب عليه حمد ولي الرحمة والإحسان، مكان القناعة والصبر بكل لسان.

- أقسام الأموال أربعة:

ثم أقسام الأموال أربعة: حرام: ما لذي اليد فيه من ملك، وحرام: ما لمالكة فيه من نفع، وحلال: فيه لله حق، وحلال: لمالكة محصن.

١ - فأما الأول فالأموال المغصوبة، فهي المجموعة ظلماً بلا تراض من الخلق ولا إذن من الله تعالى، نحو ما في أيدي اللصوص المحتالين، واللصوص الغالبيين، ومن اتصل بهما من الظالمين، ما لهم خروج عن وبالها قطعاً إلا بالرد على أربابها، والتوبة عن أشباهها، على ندامة واستغفار، ومخافة واعتذار، إلا أن يعدم طاقة الإيفاء بفعل أو لسان فيقرب من رحمة الرحمن.

٢ - وأما الثاني فالأموال المستفادة بتراض على فساد أسباب نهى عن مثلها العباد، من عقود فاسدة شرعاً، وجنایات اتصلت بها وضعاً، وإن خبيث الأموال للأبدان أشر من السموم، إذ فيها قضاء الحياة الدنيا، وفي الخبيث نار الجحيم حتى أن رسول الله ﷺ ما وقي أكلة خبير وكانت مسمومة، ووقي أكلة الشاة المصلية إذ كانت مغصوبة. ما يخرج عن عهده إلا بصدقته، فإذا تصدّق بها حلّت يده غير مقضي.

أسفه برجل أتعب نفسه ليجمع الخبيث فمزق دينه ثم رفع بالتصدق وما صدق ظنونه فصار رداء الدين مرقعاً، وسكون النفس مودعاً.

٣ - وأما الثالث فما اكتسبه بأسباب صدق الشرع في إباحتها عقله، وحقق فعله في

أداء قوله، فطاب الربح وزكا الربح، وحلي ذوقه وحمد سياقه، إلا أنه ابتلي بأداء اليسير على اليسار، وإخراج العدد من الأوقار، وقد استحل ما يجامع، وشغفه حباً، فلم تطعه نفسه على بذله. خلا فزين له عند ذلك سوء عمله، ومدد أمد أمله وأنس هول أجله، وقال: في الأمر بعد تراض، وللخلل تدارك وتناه، حتى عدا على قلبه، وأسر الهوى ليه، فصار الشح طبعاً، والمنع عن نفسه شرعاً فهنالك حرم جلّ خير، وصار جماعاً لغيره.

فبينما هو في حساب أمواله إذ حسبت عليه أنفاسه، وأتاه ملك الموت وبعده كآس، وعاین مصيره إلى عذاب القبور، ومصير المال إلى كل وارث كفور، وما أخل به طوق ناري يكون به عنقه وصدرة، وحمل ثقل يقصف به كتفه وظهره.

٤ - وأما الرابع فالمال الذي حسن لصاحبه في الابتداء عقده، وفي الانتهاء قصده، وأسبق في منة متعته، وأمضى بالفضل صدقته، فكان قواماً لمدة حياته ولما بعد وفاته، فإنه قد زكى أسبابه، وسوى حسابيه، وأعد للرسول جوابه، فجاء الرسول للرحيل، فسارع إلى الطاعة، وحوسب فإذا بساعة، فكان حساباً يسيراً، ثم انقلاباً إلى أهله مسروراً، وذلك تأويل قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «حرامها عذاب، وحلالها حساب»^(١). ومصادقه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَسْتَلْنَ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨]. وقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا [الانشقاق: ٧، ٩].

مقامات المال أربعة:

والمقامات فيها أربعة: مقام الشكر والحمد، ومقام الكفر والسخط، ومقام الصبر والرضا، ومقام الجزع والشكوى.

١ - فسبب مقام الشكر معرفة الله تعالى في كل حال بالإنعام، فقبیح ترك الشكر بسبب انعدام ما لم يكن له، وعنده ممّا أنعم الله عليه أقسام أدناها الحيلة، فهي رأس المال، وأعلاها الإيمان، فهو المقصود في كل حال، فيترك القبيح. لكن الحسن من شكر بالقلب، وحمد باللسان، وذلك جهد الضعيف.

٢ - وسبب مقام الكفر: الجهل بالقسام، أو ظن الخطأ عليه في الأحكام، فيعد ما أوتي غيرَه دونه مأخوذاً عنه ظلماً، فيستحسن الكفر بمثله، والسخط على فعله.

٣ - وسبب مقام الصبر: معرفة الأعواض، فإنها تهون على المرء ما يلحقه من

(١) رواه البيهقي في سننه، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢١/٨).

المكارة والأعراض، حتى لا يسر العقلاء المكارة في الدنيا لأعواض قصدوها للحال دون العقبي، وشرب طيب الدواء لما في عاقبته من الشفاء، وكان ذلك وإن كان مكروهاً عند أولي العقول رضيعاً، وراود المريض شربه كأنه أصاب زللاً هنيئاً.

٤ - وسبب مقام الجزع: الجهل بالأبدان، فما اضطبر عاقل لرواجها من عاقبته الشفاء، ولا لابس جُرمًا ما لم يؤمل نفسه إصابة ولا جهد نفسه بدعاء ما لم يرج منه إجابة. ومتى أكره عليه جزع، ولم يفرح به حتى شكّا، وولى وبكى، وهل جزعه وشكواه لو عقل المحكوم عليه كرهاً إلا ممّا يزيد بلواه، فما الحكم من الحاكم يتبدل بجزعه، وإنما يزيده الجزع ضعفاً، وعليه حمل حال القوة، فيزيد في ضرره.

فسبحانه من ملك تمت نعمته، وعمّت رحمته، حتى لا يخلو عبد عنهما بحال، واستبان سبيله، واستنار دليله، فلم يعدمها ذو عقل وبال، فله الشكر على أقسامه، فما وجدنا قسماً خارجاً عن إنعامه، وإلا فالصبر فيما يعمي عن العوض صدر إلا ما أعمى بالكفر، والعياذ باللّٰه من عمى القلوب، وضيق الصدور، والمصيبة في الدين، والبينونة عن المسلمين، والصلاة على محمد وآله أجمعين.

كتاب الأمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لمن عظم قدره فلم يحد، ونفذ أمره فلم يرد، ولم يبق في أحد أمر ولا نهى ولا إطلاق ولا خطر.

والصلاة على من قام بأمره بلا مdahنة، ونابذ الكل بلا مهادنة، حتى أتاه اليقين، وعلى آله أجمعين، فكمّل الدين بشريعته، وختم الأمر على طريقته، ولزم المأمور معرفة الأمر ومعرفة الأوامر، والمسارة إليها، والانتقال إلى حدودها، فهي محن تعلقت بقسم أنه مأمور لأنه عبد فقير لا يملك شيئاً، ثم رآه يبسط يده إلى حوائجه، وينطلق في مناهجه، على ضرورة أن له ذلك بأمر الملك الغني، ولزمه بعده أن يعرف الأوامر بحدودها، ليتمكن العمل بها، والوقوف بحدودها.

طرق معرفة الأمر بالأوامر أربع :

فأما معرفة الأمر بالأوامر فمن طرق أربعة: المنهاج المشروع، وصاحبه، وسهولته، وقربه من المنزل.

١ - إذ المنهاج المشروع وهو شريعة الإسلام، مشتمل على مصالح العباد في أمور المعاش والمعاد، والعبد بقواه عاجز عن بلوغ مداه، دليل على أمر عالم لا على سبيل علمه، وحاكم حكيم فوق ما يخطر بوجهه، وقد فقد هذه الحكمة والعلم في الآباء والجدود، فعدّهم من العبيد.

فتأمل في الأرض والسماء ففقد فيهما كل صفات ذوي العلم وأمارات ذوي الحكمة والحكم، فأمن بعالم حكيم دبر الكونين المحسوسين فسخر، ثم ابتلى العالم المميز الذي سخرهما له فنهى وأمر.

٢ - ثم ينظر في صاحب المنهاج، وهو الرسول المبعوث إليه ﷺ، فيجده صاحب آية عجز البلغاء عن معارضته، والعقلاء عن مناقضته، كلام على غير وزن الشعر، وفوق نظم النثر، مبانيه فصيحة، ومعانيه بليغة، باين في تفصيله كل كلام الرسول في فصوله، إذا قرأته طمعت في مثله، فإذا قصدت حصرت عن

قوله، فاق بتأويله، وهو قصد الكتب كلها وهي فوق العد، ألزم صاحبه والناس ما كرهته النفوس من مخالفة الآباء، ومجادلة الأقارب، ومجانبة الأصدقاء، ومنابذة الأجانب، وهجرة الوطن والمال والأهل، وقتال أهل الجبل والسهل، واختيار الفقر، وتخيير أهله على ذلك، ما له في الناس من آخر هنالك، مع شهادة عليه بما كان يكون لولا العصمة، ويجب الستر عن مثله لولا الحكمة، فقال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. وقال: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] الآية.

فأظهر عليه ما كان ستره ليكون فعله شريعة لأولياءه، ما تلون قصده - وقد تلونت به الأحوال - كما تتلون همم الرجال من استكانة في قلة، واستكبار في منعة، بل كان أقوى ما يكون إذا انفردوا عنه، إذ يرى إذا توحد خرج إلى بدر الصغرى. وقد وقف أصحابه، وثبت يوم حنين وأحد، وقد تمزقت أسبابه. فيعرف بالكلام المبين سائر الكلام، والسيرة المبينة سير الأنام، أنهما ليسا من طريق قوي العادات في الورى، لكنهما من رب العلا والقوى، لاستحالة فعل الحر ما بال كل عنه عجز.

٣ - فإذا عرف الأمر برهانه، ومن وصل إليه الأمر على لسانه، تأمل في المنهاج، فيجده سهلاً، سمحاً حنيفاً، عدلاً وسطاً مرضياً، لا يتعب فيه إنسان، ولا يكسل عنه كسلان، فإنها صلوات خمس في اليوم واللييلة، ما تضعف عنها نفس على قدر وسع الجيلة، إما قائماً وإما قاعداً وإما على جنب، ما ينقص في ثواب، ولا يزداد في ذنب. وصوم شهر من جملة الشهور على العققلين البالغين الأصحاء الحضور. وأما الزكاة والحج فلا يجبان على فقير، فإن لم تتعب بحفظ المال أو جمعه لم يلزمك بشرعه. ثم بعد الصلاة والصوم كل الشريعة مبني على الترك والنوم.

أيكل عبد عنهما لرب كونه وصوره، ثم علمه وأقدره، ثم وعد له بهما العتاق والملك، والولاية والملك، بلا نهاية آجلاً، وعلى أحسن أحواله وتتمام كفاية عاجلاً، وما له من الناس كلهم دافعوه عنها، ومنازعوه فيها، ما هذه إلا صفقة خاسرة، بعد حجة ظاهرة.

٤ - فإذا أيقن بسهولة هذا المنهاج، وصعوبة ما له إلى الدنيا من المعراج، عادى نفسه وما ملكه، وأقبل على الطريق فسلكه، فما خطاً إلا خطوات إن خطاً بالمنزل الرفيع إيوانه، البسيط ميدانه، فحضرة الله أعزّ مكان، وأبسط ميدان، وما إليهما للقاصد مسافة، وصاحبه الله أغنى صحبة، وأعلى قربة، وما فيها

للمخلص من آفة، وللعبد هنالك الصحبة بلا حجاب في تلك الحضرة بلا حجر ولا حجاب.

فيعلم عند ذلك أنه ما شرع هذا الطريق على السهولة والاستقامة، والقرب إلى أعلى المنازل وأبعدها عن الحواس - إلا العالم الحاكم بغير مثال وقياس. ثم شاهد الحق بسره، وأيقن بعد العلم في أمره، واستغنى عن المحاجة، فقد صار حجة في حاله، وسكت عن التذكير، فقد أصبح عبرة بفصاله.

أعاقل يبيعها بحضرة ملوك الأرض، وإليها مسافات بعيدة ذات طول وعرض؟ ودونها حاجب لا يأذن إلا بنوال، وحجاب لا يرفع إلا بأموال، وبعد ذلك ما لها من صحبة، فمن عاداتهم الاستطراف، وفي همهم الاستنكاف، وما المستطرف صاحب، وما المستنكف راغب، إلى وجوه أخرى من الفساد، فما هم إلا آباق عباد، مع ما دعاه الرب جلّت قدرته إليه بأكرم رسول، وأحسن كتاب، واستغنى عنه الآبق الذي حاله ملكاً، ويحجب عنه بالعبيد والأبواب، ثم لا يروح عليه إلا المعيب، ولا يقرب منه إلا المريب، إذ لا وصول إليه إلا بمن حوله من الرجال، وإنهم قط لا ينصحون لذي كمال، مخافة أن يبذلوا به لو صدقوا فيه، وإن اتفقت له فرصه انتهزها للوصول إليه لزمه إن استطاب المقام لديه ألا يرد خطأه، ولا يظهر عليه عيبه، فيرجع عنه بعمى بصر القلب، وخرس لسان العقل، وكتف قلبه مثقل بسهام الأعداء، وقدم عقله حسير في الفرار عن حسد الأولياء، فجانبهم إن كنت على كمال البرّ الكامل، ودع الجهال الجواهر، فالشكل إلى الشكل أميل، والجنس بالجنس أفضل. وبلغنا عن معاوية أنه سئل: كيف مال الناس إليك وعليّ رضي الله عنه بفضائله عليك؟ فقال: إن أنوار الناس لم تبلغ نوره، وإن الشكل إلى الشكل أميل.

فإن جهلت هذه الطريقة مع وفور عقلك فتعلمها من البهائم، وتأمل في الأنعام السوائم، هل اجتمعت أضداداً وإن كن أفراداً؟ فإنك ما باينتها بطبعك، وإنما باينتها بعقلك، والله تعالى ما رزقك العقل إلا لترد سفه الطبيعة، لا لتزيد سفهاً لم يكن في الطبائع شريعة.

- معرفة الأوامر الإلهية الأربعة وحكمتها :

فإذا عرف الأمر، ووجب عليه العمل بأمره، احتاج إلى معرفة الأوامر، وهي أقسام أربعة: العبادات البدنية، والمالية، والمعاملات المالية، والنفسية. فالأولان حق الله المجيد، والآخران حق العبيد.

حكم الحكيم - دقت حكمته وجلّت نعمته - على هذا العالم بالابتلاء،

لحكمة الجزاء، فعلق بقاء أنفسها بالأموال، وبقاء جنسها بازدواج النساء بالرجال، توفيراً على النفس حفظها، في دعائها إلى جمع الدنيا ونعمائها، وإلى محالفة بناتها وأبنائها، وقرن أسبابها بشهوات الطبيعة، لتكون باعثة عليها، وسائقة إليها، وما خلقهم لذلك، بل يوحدونه ويعبدونه بأمره على خلاف الطبع، معرضين عما تدعوهم إليه الشهوات إلا بالشرع، فيكونوا مبتلين، تبارك الله أحكم الحاكمين.

وعلق ملك الآخرة بالتوحيد والهدى مكان تعليق ملك الحاضرة بالشهوات والهوى. ثم شرع العقوبات مكروهة بالطبائع لتكون زاجرة لهم عن طبع النفوس إلى موجب الشرائع مكان الشهوات الداعية إلى نفع العاجل، الزاجرة عن الآجل.

فالعقوبات زواجر، وفيها معنى التطهير عن آثام الارتكاب والافتراء لكن بشرط الالتزام والانتها، لا أنها أصل في باب الابتلاء، وإنما الأصل ما ذكرناه من الابتداء.

وإنما مثل العقوبات مع العبادات مثل الأدوية مع الأغذية. فالأدوية ليست مما دعت الطبائع إليها على الابتداء، ولا مما تعلق بها في الأصل البقاء من جملة الغذاء، ولكنها زواجر عن الإفراط فيها، والتناول فرق الكفاية منها، كما أنها في طباعها ومذاقها مما تنفر منها النفوس، وتقذفها الطباع، وفيها معنى التطهير من أمراض فضول الغذاء، ولكن بشرط الاحتمال والاحتماء.

فنشء الأغذية لما فيها من الإصلاح بشرط الحمية في محل الأجزية، وعلى الابتداء غير معدودة في الغذاء، فكذلك العقوبات تشاكل العبادات، لما فيها من التطهير، بشرط الانتهاء في محل الجزاء.

وعلى الابتداء ليست معدودة في أقسام الابتلاء، بل ابتلى الله العبد بالعبادات بعد ابتلاء النفس بالمعاملات من مالي وبدني.

فالمالي: ما يتأدى بالمال، والبدني: ما يتأدى بالبدن. والمالي تجزئ فيه النيابة، لأنه ابتلي في إخراقه بالنقصان، وحصوله بيده ويد غيره سيان.

والبدني لا نيابة فيه، فقد ابتلي بشغل نفسه في طاعة ربه، وإنه يفوت بنيابة غيره.

ثم إن الله تعالى شرع المعاملات لتعينه معنى العبادات بزيادة العبيد، وتقوية الأجسام بالنفس شرع في العبادات ليعينه على تحقيق الدنيا بكسب المحمدة من الخواص والعوام، تحقيقاً لمعنى المحنة والحبس والتسوية من حيث الظاهر من حظ الروح والنفس.

فصارت العبادات كلها مشروعة للابتلاء بخلاف هوى النفس والطبيعة، ولن يتحقق معنى الابتلاء في الأداء، إذ ذلك فعل العبيد.

فأما الوجوب فحكم الحاكم المجيد، فصارت الإقامة مطلوبة من المخاطبين بالعبادات، لا محيص لهم عنها إلا بأنفسهم فيما لا يحتمل النياية، إذ بالإقامة منهم فيما يحتملها ما لا بد لهم منها.

كما أن الحكمة في العقوبات: لما كان الردع لم ينفك من أقيم عليه عن ذوق ما يكرهه الطبع، فتبين للعبد أن عمله لا يعلمه أحد من الورى، وبذلك نطق الكتاب: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ*وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٣٩، ٤٠]. فيجتهد في تحصيله قبل أن تخطفه أيدي المنون وهو على مطي الأمل، سائقاً بسوط الظنون.

وأما المعاملات فالمالية منها لبقائه مدة مهله، وتلك الفائدة حاصلة بغير عمله، ممّا خلق الله مباحاً له من خيره، وممّا خلق بسبب من غيره، فلا يشغله به قلباً، ولا يعده خطباً.

وأما البدني من النكاح فإن لم يقم ما كان يكون منه بغيره فما عليه بأس إن انقطع النسل، وهلك الناس، ولا يميلن إليه إذا خاف فما عليه خلاً، بل مال إذا لم يخف على سبيل الترحم على الجنس منتقلاً.

- العبادات رياضة وخدمة:

ثم العبادات في حكم الابتلاء على قسمين: في معنى رياضة وخدمة. فالخدمة: ثمرة الرياضة، والمملكة والولاية: ثمرة الخدمة، كالدابة تراض لتصلح لركوب الملك وخدمته، ثم تجري عليها وظائف دواب نوبته، وكالأمر يمتحن كثيراً من قومه لفتح البلاد، وقمع العدا ثم يقربه للخدمة والنجوى، فإذا صلح لهما في صرفه خلعة الوزارة على نسبة الإمارة.

فعلى مقدار حسن الرياضة يكون حسن الخدمة، وبقدر قبول الخدمة تجب الخلعة، والصوم والحج والزكاة والجهاد، وكل العبادات في معنى رياضة العباد إلا الصلاة، فإنها محصن عباده على بساط قربه، فإذا صلح لها صرف إلى دار الجوار، وأرض المملكة، ولهذا كانت الصلوات الخمس عهد الله لإدخال الجنة، وكان رسول الله ﷺ يجد فيها للعين قرة.

أما يرى العبد سائر عباداته لا ينادى بغير الله، من بيت في الحج بزيارة، وفقير في الزكاة بالمبرة، ونفس في الصوم تقهر بالكف عمّا تعلق به قوامها، وبه

يتأدى صيامه . والصلاة لا ينادى فيها إلا بالله العظيم ، كالخدمة اسم لما لا يتأدى إلا بالمخدوم .

وكذلك سائر العبادات تتأدى بما لا يعرف مثله في الشاهد خدمة ، ولا يستجاز نحوه على بساط القربة ، بل أركانها تتأدى بما يكون رياضة للنفس في مخالفة شهواتها ، ومنازمة إراداتها . كالصوم تؤديه بالكف عن الشهوات الطبيعية من أكل وشرب وجماع ، التي هي أصول ما في الدنيا من متاع ، فإن فعل ما ينافي الخدمة ، وينفي عن بساط القربة ، من الخذلان بلا حق ، والقول بغير صدق ، وجميع أحوال الدنيا التي لا تضاد التقوى . فإنما الأحسن له أن يقرن الكف عمّا لا يعنيه من المعاملات بالكف عمّا عناءه من المفطرات ، فصار معنى الرياضة أصلاً ، ومعنى الخدمة فرعاً ، كيلا يخلو الأصل عن ثمرته ، والسبب عن فائدته ، حتى قال رسول الله ﷺ : « الغيبة تفطر الصائم »^(١) . أي : تذهب ثوابه ، وتصرم ثمرته ، وهو في مقابلة ما يدعو الطبع إلى الحمية عن الغذاء لطلب الشفاء .

وكذلك الحج ، تؤديه بالوقوف على فناء بيت الله بعرفة ، ثم بالمزدلفة ، ثم القران بمنى ، ثم الطواف حول بيت المولى ، وابتدأه بفرقة الأهل والوطن بوداع الوصول ، بعد طلوع السفر إلى هذه البقاع ، وما هذه الأمور كلها إلا على سبيل الرياضة لنفسه ، على خلاف شهواته في حب وصال السكن ، والمقام بين الأهل والوطن ، وهي في مقابلة حب الأسفار إذا كبرت النفوس ، وعلت الهمم ، وبسطت الأمل لطلب أنفس الأموال ، ونيل عظام الأعواض من الملوك ، والوقوفات على أبوابهم إظهاراً لصدق اعتقادهم ، بتحمل مشقة الأسفار ، على فراق أهليهم وأوطانهم وأسبابهم ، وتجرّع كأس المذلة بالوقوفات ، والتردد في تلك المقامات ، ليتوصلوا بما يظن منهم إلى بساط القربة ، ويصلحوا لإقامة مرضى الخدمة .

فما يكون قبل الوصول إلى ملكهم رياضات غير متصلة بالملك فوائد تلك المقامات ، حتى كانت تلك الأعمال من كثير منهم لا يشعر بها صاحب السرير ، والخدمة اسم لا ينفك عن المخدوم ، وغير صالح إثبات هذا الوصف للملك إلا لمن هو عبده معلوم .

فعلى ذلك تحقيق معاني العبادات للرب ، وإن لم يقع شيء منها على غيب ، كما شبهنا مكة بالحضرة ، والكعبة بالإيوان ، تعالى الله عن تحديد مكان له فما له من مكان ، بل كان ولا مكان ، فخلق المكان فبقي على ما كان ، فدلّ هذا البناء

(١) رواه الدارمي في كتاب (الصوم) باب (الصائم يغتاب فيخرق صومه) .

على الرياضة، ودلّ على تأديها مع أعمال الدنيا على ما ليست بعبادة، وإنما ندبنا إلى تحصيل معاني الخدمة، من التهليل والثناء، والتلبية والدعاء، ليتصل بالرياضة معنى الخدمة، ولتتزين النخلة بعد عثاكيلها^(١) بالثمرة.

وكذلك الصدقة يؤديها بإزالة ملكه إلى الغير على سبيل الإيثار خلافاً لطبعه في الاستئثار، مع ارتكاب ما ينافي معاني الخدمة على ما ذكرناها في الحجة إلا على سبيل الأدب والسنة، وهي في مقابلة ما تأمره النفس بالوجود في شهواتها العاجلة.

فإذا آل الأمر إلى الصلاة ألزم شرائط الخدمة في الشاهد، من التطهير من أنجاسه، والتزين بلباسه، ودخول مكان خاص للرحمن، ثم استقبال الكعبة مقام جهة الوجه، لملك بلا جهة، وإذا شرع فيها لم تتأد إلا بما يحقق معاني الخدمة، من قيام على استقبال واستقامة، وكلام يليق بتلك المقامة، وتذلل بالركوع، وتحشم بالسجود، وسؤال على الجثو، ما تحلّ فيها التفاتة، ولا لغير الله حركة، ثم يتصل بهذه المعاني التي هي خدمة معاني الرياضة في مخالفة شهواته الداعية له إلى خدمة الكبراء بالأفعال، من قيام وانحناء وسجود وقعود، وبالأقوال من شكر وثناء، وتمجيد وتحميد.

غير أن هذه المعاني فيها اتباع، والتي ذكرناها أصول، حتى ارتفعت بوادرها من مقول أو مفعول لتجني الخدمة التي هي ثمرة من أصلها، فأحسن ما تكون القطوف على غصنها، وفي ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «حب إلي من دنياكم ثلاث: النساء، والطيب، وجعلت قرّة عيني في الصلاة»^(٢). لأن الكريم من قوم الملك العظيم من بيتهم الصالح لنشاط القرب والنجوى، ولا تفر عينه بما ينال فيما يراض، ويمتحن بالأسفار، وقمع العدا، وإن استولى على من تحت يده من العباد، ونفذ أمره فيما فتح من البلاد، وإنما تقربه عين المنقوص حاله من محل المشاهدة والشورى، من العاجز عن الخدمة على بساط القرب واللقيا، حتى لم تعرف رتبة قرّة العين في الصلاة إلا لسيد السادات، خاتم النبوة والرسالات، قائد قومه للقيام، ولهذا تكرّرت الصلوات في اليوم والليلة، وتفرّقت غيرها على الأحياء بناء على ما يكون من تكرار خدمة الوزير ونجواه، وتأخر الأمر عن زعماء الجيوش وأمرء أطراف المملكة إلى حين.

ولهذا اشتملت شروط الصلاة على معاني الحج والصوم، ثم فضلتها

(١) مفردها عثكول، وهو الرباط في النخل بما فيه من ثمر.

(٢) رواه النسائي في كتاب (عشرة النساء) باب (حب النساء) حديث (٣٣٩١).

بأركانها. فالرياضة لا تقصد إلا لتحصيل الخدمة بها في أوانها، وكانت الخدمة زائدة على بنائها.

فقال الأخ: كلام بديع، ولكنك سكت عن جهاد المشركين، وقتال الباغين، وبه نطق القرآن وجاء به من الرسول عليه الصلاة والسلام البيان.

قلت: أما عرفت أنا في شرح أقسام الابتلاء الذي لزمنا على الابتداء وقتال الناس جاء من بعد، جزاء لهم على حربهم، وحملًا على سواء أمرهم، كما وجبت إقامة العقوبات للزجر على من تولى عن الأمر، وإنما هذا في مقابلة ما تبعث نفوس شرار الرجال على طلب الدنيا بالقتال، لينضم معنى الرياضة في مخالفة النفس إلى طلب مصلحة الزجر، كما كانت في عادات الظلمة طلب مصالح خزائنهم ومملكتهم بالسياسة والقتل والجلد، فشرع الله لإقامة مصالح الشريعة أمثالها من كل حد، ولذلك سقط الجهاد إذا كفيت بغيرك، وحد العبادة والابتلاء الأصلي مما لا يسقط إلا بك.

فإذا علمت أيها الأخ أن الابتلاء بدني ومالي.

والمالي عارض لا يأتيك إلا بنكاح، ويبني عنك بالسماح، فأكفف عن كسبه، إذ تلفه في رضا ربه، فلا تردد على نفسك نصف الابتلاء إن لم تقدر على إسقاط ما لزمك بحق البدن على الابتداء.

أما يعلم العاجز عن نفقة نفسه أنه غير جائز له الطمع في ثواب نفقة امرأته، أو نكح لتكون نفقته على امرأته؟ فإنه للؤم على اغترار بلعل وعسى، ثم اختداع بالأمل والمنى، وما للعاقل أن يبني أمره إلا على الحقيقة، ولا أن يسلك إلا ما نهج له من الطريقة.

دع أيها العاجز عن نفقة امرأته ثواب صلة النكاح إلى القادرين، فما أنت فيما قصدت من الصادقين، إنما سعيك إليه سعي مخدوع من الطامعين. فإن لم تشعر وتزوجتها طمعاً في مالها، ورغباً في جمالها، فبخلت بالمال عليك، وطالبتك بالنفقة والسكن، وحبستك وهي تنطلق، ونفسك في غيرها تتعلق، فلماذا منك إمساكها وقد تركتك، ورضيت بالافتداء. أم طلبت زيادة؟ كلا، بل كسبت بالطمع في مالها حبساً، ولتكسبن بجمالها قيادة، ليكون من منى النفس انطلاق المجبور وأنت في الحبس.

إنه لعمرى سوء اختيار، فما لك إليها من اضطرار بالطلاق في ملكك، وإلا فأبشر بهلكك، وما عليّ إلا البلاغ، إن أنا إلا نذير، وما التوفيق إلا بالله رب العالمين.

– مقامات العبادات :

قال: زادك الله لصدرك نوراً، ولقلبك بصراً وسروراً، لو مننت عليّ، بل على أناس زمانك بكشف ما يتوصل به إلى إقامة ما ابتلينا به على وجهه من بيانك، شركت في ثواب المهتدين من البرية، وفزت بتراث من تراث النبوة.

قلت: استجيب دعوتك، وأجيب لك منيتك، وإنا بادئون بالرياضات، وخاتمون بالخدمة، بتوفيق من الله ورحمة، وذلك من باب الإقامة.

فإن العبد إذا عرف ما ابتلي به – ولا بد له من فعله – يسارع إلى إقامته من طرق أربعة: لعلمه أنه لا يعمل غيره، ولعلمه بما فيه من إظهار صدقه، ورغبته في اكتساب شرف تلك المقامات، ثم ثوابها في الآخرة. إذ معدوم في عادات العقلاء التكاسل عمّا لا بد لهم منه حال الاقتدار، فيبقوا تحت وبال الترك، وما بهم وسع الفرار، وغير موجود فيهم كتمان الصدق، وإعلان الكذب في مقام التجربة للمجازاة على ما يعلم منهم حال المقدرة. فإذا لم يستجز الكسل جد في العمل، وإذا لم يرض بالمذيق جاء بالصريح، إذ هو قادر على نوعي الكلام فصيح، فإذا كابرته نفسه على ما علم، رغبته في شرف المقام ترغيب نصيح، فيرغب بالصيام. فنقول والله أعلم:

– مقام الصيام :

مقام الصيام: مقام الصديقين، ومقام المخلصين، ومقام الواصلين بالرب بلا حجاب من المخلوقين، ومقام الخلعة المخزونة على أيدي الملائكة والناس أجمعين، ومقام الأضياف، ومقام استخدام الأشراف ومقام الرضا به.

أما مقام الصديقين: فلأنه خالف شهواته الطبيعية بأمر ربه، من جماعه وأكله وشربه، وما الصدق إلا في خلاف النفس، وإن بقدر ما يدعو إليه الطبع، وذلك تأويل قوله والله أعلم: «**الصوم جنّة**»^(١) لأن شهواته تفتت بالجوع، فتصير جنّة عن طباعه، ليثبت معنى الصدق في مخالفتها.

وأما مقام المخلصين: فإنه يتأدى بالكف الذي لا يطلع عليه إنسان ولا جني وشيطان، إلا الملك الكاتب بأمر الرحمن، وذلك تأويل قول الرسول ﷺ: إن الله تعالى يقول: «**الصوم لي وأنا أجزي به**»^(٢). وكل العبادات لله تعالى. فدلّ

(١) جزء من حديث رواه البخاري في كتاب (الصوم) ومسلم في كتاب (الصيام) باب (فضل الصيام) حديث رقم (١١٥١).

(٢) انظر التخريج السابق.

تخصيص الصوم بالإضافة إليه على أنه لا حظ لأحد فيه، لعدم اطلاعهم عليه، فإذا لم يطلعوا عليه سلم من شرعه الرياء فخلص لله تعالى.

وأما مقام الواصلين بلا حجاب: فلأنه ثمرة الإخلاص، وهذا عمل مستور عن الجن والإنس.

وأما مقام الخلعة المخزونة: فلأن الجزاء وفاق الطاعة، وهذه الطاعة عن الكل مصنونة، وذلك تأويل قوله: «وأنا أجزي به». فكل الأجزية من الله تعالى، فدلّ تخصيص هذه بالإضافة إلى نفسه على خروج رسول بين الله وبين عبده.

وأما مقام الأضياف: فلأنه خالف نفسه بأمر ربه جلّ وتعالى في تناول ما يشتاقي إليه الناس، مع القدرة في الدنيا، فيجازيه الله تعالى بأضعاف ذلك حين العسرة في العقبى، يؤتون بموائد يوم القيامة على ما جاءت به الأخبار، حيث الناس في الحساب، وما وصلوا بعد إلى ثواب، وذلك أيضاً تأويل قوله والله أعلم: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه»^(١). أي: جازيناه على الكفّ عن غذائه بفرحة زائدة في فطوره قبل عشائه، ما لم يكن ينالها لو تفكّه بغذائه، ثم يجيز منها عند لقائه والناس في الحساب، وما وصل أحد إلى جزائه. فإنما لهم ذلك في الآخرة مقام الفطور قبل الصلاة في العاجلة، فيحلّ الصائمون يوم القيامة محلّ الأضياف، والناس حلّوا محلّ الخصوم، ومن كان ضيفاً لكريم خدّمه الأشراف، وما هم إلا الملائكة، فكم بين قوم خصوم قامت عليهم الملائكة موكلين طالبين، وبين قوم أضياف قامت عليهم الملائكة مكرمين راعين.

وأما مقام الرضا به: فلأن مقام الوصول بلا واسطة، ومقام الإخلاص بلا رياء - مقام الرضا بالعبد، وكذلك مقام الضيف، وذلك تأويل قول النبي عليه الصلاة والسلام: «ولخلف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»^(٢). والله جلّ وعلا غني عن وصول الروائح الطيبة والمؤذية إليه، ولكن هذا على مثال من رضي بإحسانه وأحبّه، واستحسن كل ما ظهر منه، أو رأى عليه. فكيف لا،

(١) انظر الحديث السابق.

(٢) نفس الحديث السابق ونصه بتمامه عند مسلم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله عزّ وجلّ: كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يسخب، فإن سابّه أحد أو قاتله فليقلل إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده لخلف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقي ربه فرح بصومه).

وإنما غير رائحة فم العبادة على الإخلاص، وطيب أثرها ممّا لا يعرف بالقياس .
 هذا للصائم، إلى كثير لا يخطر بالصدر، ولذلك خصّ وقت فرض الصوم
 بالإضافة إلى الله تعالى من بين الشهور، كما خصّ المسجد من بين الدور، ثم
 صدّقت فيه الشياطين تسبباً لصيانة ما شرع مضموناً بالضمير، وغلقت أبواب
 النيران، وفتحت أبواب الجنان، ليدلّ على أنه شهر العتاق عن السعير، وخصّ
 بليلة هي خير من ألف شهر، وذلك يربو على أضعاف العمر، ثم الحسنة بعشر
 أمثالها، والسيئة بمثلها، ليدلّ على أن من أحيّاها مرة وعصى كل عمره محاها
 بقدرها، وفاز بفضلها، وذلك قول النبي ﷺ: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له
 ما تقدم من ذنبه وما تأخر»^(١).

- مقام الصدقة:

وأما الصدقة ففيها: مقام الجود، ومقام الإحسان، ومقام الكرم، ومقام
 الرحمة، ومقام المحبة، ومقام الطهرة، ومقام الشكر.

أما مقام الجود: فلأن الصدقة لا تتأذى إلا بإزالة ملكه بغير سبب من المزال
 إليه، وذلك الجود متى كشف عن معناه، ووقف عليه. فأما من أعطى بسبب
 سابق، أو بمعنى لاحق، فما هو بجواد، ولكنه معوض معتاض، قال الله تعالى في
 صفة أبي بكر رضي الله عنه: ﴿وَسَيَجْنِبُهَا الْأَنْفَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُ مِنْ
 نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٧، ٢١]. وقال في علي رضي الله
 عنه وأهل بيته: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِينًا وَيَتَمَنَّا وَأَسِيرًا إِنَّمَا تُطْعَمُونَ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُبَدِّلُ مِنْكُمْ جَزَاءً
 وَلَا شُكُورًا إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٨، ١٠].

وأما مقام الإحسان: فلأنه كفاه بماله مهم في دنياه، ولم ينقله بعوض توخاه،
 وهو الإحسان متى يعرف معناه.

وأما الكرم: فإنه وحشي ما صيد إلا بشرك إيثارك على نفسك بحظ مطلوب
 من مالك، أو جاهك، أو اقتدارك، وإنه لباب أحد مصراعيه من صبرك، والآخر
 من فضلك، فلن تجد من النفس طاعة الإيثار إلا بعد حبسها في سجن الاضطبار،
 وذلك تأويل قوله تعالى: ﴿وَذَا مَرْوًا بِاللَّغْوِ مَرْوًا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٣]. أي: صبروا
 عن الجواب، وتركوا المناقشة في الخطاب، بفضل ركه الله تعالى فيهم، لا يعجزه
 عن مجاوبتهم، وفي حكمة الشعر:

واغفر عوراء الكريم ادخاره واعرض عن شتم اللئيم تكرماً

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده.

وما فتحت هذا الباب الذي سميناه كرمًا إلا بإيثار جاهي ومالي، فعلى المال والجاه يدور أصحاب الدنيا من الأقسام، حتى لا تجد قسماً منهم من الملوك والتجار وغيرهم إلا تمت أحوالهم جاهاً ختموها بالكنوز العظام، وبقدر ما يحب الرجل صفة الكرم يدعو إلى التبصّر على سنية الهمم، وقد بلغني عن كبير من الملوك أنه قال: حُب إليّ الفقر حتى كان الناس يتقربون إليّ بالذنوب - ولذلك نهينا عن الصدقة بالخبث الذي هان على النفوس، ليتحقق معنى التكرم في الجود به على الأمم.

وأما مقام الرحمة: فلأنه أشفق على غيره، حيث رجع حظه على حظه، بما آل إليه أمر الدنيا بأسره.

فهذه مقامات محمودة بينه وبين العباد، وبذلك الصفات ينادى، وعليها يقام التناد، فالدعاء يوم القيامة بأسماء الأفعال دون أسماء الآباء، تحقيقاً لمعنى المكافآت والجزاء. والمقامات الثلاثة بينه وبين ربه، كما كانت الصدقة بين الله وبين العبيد، إذ الإعطاء بأمر الله تعالى إخراج إلى الله عزّ وجلّ، وملك الفقير من ملك الله رزقاً وصلة.

وأما مقام المحبة: فلأنه ما لم يحب الله تعالى على الحقيقة لم يبغض الدنيا، ومن لم يبغض الحسناء لخير منها، لم يطلقها بلا جدوى. وعلى هذا التأويل لم يقبل النبي ﷺ الدنيا، واختار الفقر، ومروا عليه كبار الولد، وما تنعم باليسير.

وأما مقام الطهارة: فلأن الإعطاء طهرهم عن دنس الوصلة الذي كان فيهم للدنيا، قال الله عزّ وجلّ: ﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام - والله أعلم -: «الصدقة تطفيء غضب الرب»^(١). لأن الله تعالى لا يغضب إلا عن ذنب.

وأما مقام الشكر: فلأن الشكر بالقلب: أن يعرف النعمة أنها من الله تعالى. والشكر بالفعل. أن يصرفه إلى من احتاج من عباد الله. إذ الشكر واجب على العبد وجزاء الشيء بمثل ما كان ابتداءً، والعبد عجز عن مثله في حق ربه، فلم يبق إلا الإقرار بقلبه، لكن قدر في حق عبيده على شكله، فأخذ بحقهم بفعله، فالأمر المتصدق في مقاماته بعد تمامها بإعطاء الكل إلى أول مقامات الفقير التارك للدنيا مختاراً، ليعلم أن الترك مع القدرة أعلى درجة من العطاء بعد الأخذ، وأتم إثارةً. هذا للمتصدق، مع أنها تزيد في العمر للمتصدق، على ما قال النبي ﷺ:

(١) رواه المتقي الهندي في كنز العمال ج (٦) ص (٣٥٣).

«الصدقة تزيد في العمر»^(١). وتأويله والله أعلم: أن الله تعالى علم من أمره أنه يتصدق، فقسم له من العمر قدراً ما لو علم أنه يبخل لقسم له منه شطراً، أو لأنها تثمر له حديثاً حسناً، فيبقى به حياً بعده بذكره، فكأنه حيٌّ وإن انقضى عمره. وأيضاً تشفي من المرض. قال عليه الصلاة والسلام: «داووا مرضاكم بالصدقة»^(٢). وتأويله والله أعلم: أن الله تعالى امريض عباده ليكون كفارة لهم عن مظالمهم، تطهيراً لهم عن آثامهم، فإذا تصدقوا طهروا وشفوا من أسقامهم. وتكون أيضاً حصناً للمال عن السرقة، على ما روي: «حصنوا أموالكم بالصدقة»^(٣). وتكون ستاراً عن مكروه القبر، ولباساً والناس عراة يوم الحشر، ومركوباً والناس رجال، وظلاً والناس ما لهم ظل.

فالجزاء على شكل ما قدم العبد من المثال، المال بشبيهه من المال، قال الله تعالى في مانع الصدقة: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِحُلُوبِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. وقال في الكنز: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ [التوبة: ٣٥] الآية. وقال في الغلول: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

فلما كان جزاء المنع على مثال الممنوع دلّ على أن جزاء الدفع على مثال المدفوع. وقال عليه الصلاة والسلام: «سمنوا ضحاياكم فإنها مطاياكم»^(٤). وليعلم أن الجزاء واقع على مثال الابتداء.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا نَقْدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]. فالهاء كناية عن المقدم بعينه، فهذه الخلع جزاء مقام الجود والكرم، إذ الكريم الجواد في كل مقام بجوده محروس، وبكرمه معظم.

مقام الحج:

وأما الحج فله شبه بالصوم، لما فيه من الكف عن محظورات الإحرام، غير أنه مباينه من حيث إنه شرط في الحج يتأدى به، وركن يتأدى به الصيام. وله شبه بالصدقة، لما فيه من بذل المال ونقصانه، إلا أنه ليس بعينها، إذ في الصدقة صرف المال إلى الفقراء إخوانه، وفي الحج صرفه إلى نفسه وأعوانه. وله شبه بالصلاة، لما فيه من الوقوف والطواف بالكعبة، ولكن ليس

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه البيهقي في السنن الكبرى ج (٣) ص (٣٨٢).

(٣) ذكره المغربي في رد الاعتبار للجامع الصغير ص (١٨) قال الألباني: ضعيف جداً.

(٤) رواه المتقي الهندي في كنز العمال بلفظ - استفرهوا - بدل - سمنوا - ج (٥) ص (٨٨).

بنظيرها، لتأدي الحج ماراً بعرفة بغير وقفة، وتأدي الطواف منحرفاً عن القبلة، ولأن قضاء حق المكان في الحج ركن برّ، وفي الصلاة شرط. وفيه محل التهاون بالدنيا، ومحل الشجاعة، ومحل العزم للقوي، ومحل الصبر، ومحل الخلوة، ومحل الذكر، ومحل الرجاء، ومحل الفوز.

لأن من لم يتهاون بأحوال دنياه لم تجد نفسه بالخروج مودعاً أهله وماله ومغناه، ومن لم يشجع قلبه لم يألف السفر في المأمن والمخاوف والمهالك والمتالف، ومكة بين أيديها من كل جانب اختطاف واستلاب، أو قتال أو خراب، والسلامة بلا عدة نادرة، وما لها من عبرة، وذلك تأويل قوله ﷺ: «الحج جهاد»^(١).

ومن لم يقو عزمه لم يتم له هذا الغرض الخطير على خطر كثير، وسفر مديد، غير مرتدع عن خطبه، ولا منقمع لصعبه، مقبلاً في إعراض عن عواقب العاجلة، معرضاً في إقبال على مواهب الآخرة. ومن لم يستحل مذاق الصبر بعزيمة صبره بما له من الشفاء في آخر أمره، لم يقدم على معاوضة الحضر بالسفر، ومبادلة السراء بالضراء، ومرافقة الأجانب على خلاف مكان موافقة الأقارب على اتئلاف، ولم يتحمل ذلّ الغربة، وضرّ الافتقار، مكان عز الأسرة ويسر اليسار.

فأول مصراعي باب الصبر اختياراً من الشكر، كما أن آخر مصراعي باب الشكر افتقاراً من الصبر، وإنهما للعامة في مقامات العبودية والعبادة والمعرفة والزهادة. وإذا فارق الأهل والمال والوطن والأحباب والأولاد والسكن لوجه الله بمهجته، أخلاه بينه وبين حضرته.

ثم ذكره ببيان الموقف الأصغر الموقف الأكبر، وبالإضافة عنه إلى منى راجين الإجابة للدعاء إلى الحساب مهطعين، وبزيارة البيت الآمن زيارة الجنة آمنين، بل أكرم عبده بقاء بيت ربه بقاءه بلقبه، وأذاقه بكأس حبه، فذهل عما قدم وأخر من أمره، واستأنس عبده بذكره، فرحل عند ذلك اللقاء، فائزاً بالعطاء. هذا له، مع ما له - والله أعلم - من سوّد وزعامة يوم الحشر والقيامة، فعلى قدر عزم المرء وصبره، وشجاعته ونهوضه لعظائم الأمور، يسود ويقود الجمهور.

مقام الصلاة:

وأما الصلاة فعماد الدين، والأذان إعلان شعار المسلمين، وإنها لعلی مثال خدمة مشوبة بكرامة التقريب، بعد حسن رياضة وتهذيب، شاملة على معاني الجميع بأصولها والفروع، فيها محل الإعراض عن الدنيا بواحدة، ومحل الإقبال

(١) ذكره أحمد في المسند ج (٦) ص (٢٩٤) وابن ماجه في السنن ج (٢) ص (٩٦٨).

على الله تعالى بواحدة، ومحل الصفوة، ومحل القربة، ومحل الدعوة، ومحل النجوى، ومحل التقوى.

إذ دخل محلاً لصلاته لأحد فيه نصيب، بأصحاب ما لهم فيه إلى أمور الدنيا من سبيل، مقبلاً على الله بوجهه، متحرماً بقلبه ولسانه، مؤدياً لجميع أركانه، صفاً لله تعالى منه كل شيء بالخلوة عمّا سواه، والتحرّم عن كل أمور دنياه. فإذا دعاؤه مستجاب، وغرضه مصاب، ونجواه فيها مسموعة، وتقواه عن الدنيا بقلبه مقروناً إلى شخصه مرفوعة، فكأنه وقد قرت عينه على بساط القرب، وتنفس قلبه في مضمار الصفوة، وتعزز بسماع الدعوة، وعجل له اللقاء الموعود، وما شهد بعد اليوم المشهود ما يريم عنه براحاً، ولا إلى غيره سراحاً، فاز بالمنعم فنسي وطار إلى الآخرة وهو في الدنيا مقيم.

فإذا اهتزت الهمة العلية بهذه المقامات حثّها بسوط عوارضها حتى يستوي عليها، فالصلوات تكفر ذنوب الساعات، وما فضل منها في الأيام كفرته الجمعات، وما فضل منها في الشهور كفره الصيام، وما فضل منها في السنين كفره حج بيت الله الحرام.

فالصلاة كفارة الأصول، وما سواها كفارات الفضول، ولكل عبادة خاصية ما لا مثال في غيرها، والله تعالى أعلم بمقادير خيرها، غير أن الحجج والأدلة قد دلت على أن الصلاة أخص بالله تعالى من بين الجملة، وما على العبد أن يطلع على شرائط الثواب، فذلك فضل من الله تعالى، بل يطيعه متسارعاً إليه بحكم العبودية، فذلك من العبد عدل، وإنما ذكرناها ترغيباً للكسالى، وتنبهياً للسكارى، وهداية للحيارى، بل إبانة لفضل الله تعالى، فإنه الخالق الهادي، ثم الموفق للعمل، ثم المجازي.

فمن صام جانب شهواته طبعه، ومن زكى جانب شهواته نفسه، ومن صلى فقد طلق الدنيا، وقرت عينه باللقاء على بساط النجوى، وذلك تأويل قول الرسول ﷺ: «إذا أقبل العبد على صلاته أقبل الله عليه»^(١). ومن صام فقد تترس عن العصيان، ومن تصدق تبرأ عن الطغيان، ومن حج فقد حقق عهد الإيمان، ومن صلى فقد فرق حبائل الشيطان متصلاً بالرحمن. وذلك قول النبي ﷺ: «إن الشيطان إذا سمع الأذان أدبر وله ضراط»^(٢).

(١) رواه أبو داود في سننه.

(٢) رواه البخاري في كتاب (الأذان) باب (فضل التأذين)، ومسلم في كتاب (الصلاة) باب (فضل الأذان) حديث رقم (٣٨٩).

أو نقول - والله أعلم -: من صام - وهي العبادة المستورة - وفي العذاب المستور في القبر. ومن زكى - وهو الإحسان إلى الناس - وفي العذاب المشهور يوم الحشر. ومن حج - وهو ركوب الأهوال - وفي هول المرور على الصراط. ومن صلى - وهي عبادة على بساط الإكرام - دخل الجنة بسلام. وذلك تأويل قوله **ﷺ**: «خمس صلوات كتبهن الله تعالى على عباده في اليوم والليلة، من أتى بهن يوم القيامة كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة»^(١).

أو نقول والله أعلم: من صام مال إلى الوفاق، ومن تصدق تبرأ عن النفاق، ومن حج أقام التقوى على ساق، ومن صلى عجل إلى الجنة الصداق.

فيذا تسارع العبد بحق الألوهية أو بحكم العبودية، أو رغباً ورهباً إلى الطاعة، وعرف عظم الشأن، رغب في إقامة الحدود، فتركها ظلم بزيادة كان أو بنقصان، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْذُ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]. وقال النبي عليه الصلاة والسلام وقد علم الوضوء ثلاثاً ثلاثاً: «فمن زاد أو نقص فقد تعدى وظلم»^(٢).

حدود جواز العبادات وفسادها:

ولهذه العبادات حدود للجواز والفساد ظاهرة، وهي في باب الفقه، ذكرناها في كتاب «خزانة الهدى». وإنما هذا الكتاب لبيان الحدود التي هي للقبول والرد باطناً، وإنه لمن باب التعظيم والتقوى، وهي أربعة: حد الخطاب، وحد الزمان، وحد المكان، وحد الفعل.

يجب مراعاتها بطرق أربعة: في حالة إذا دعي، وفي حالة إذا أجب، وفي حالة إذا فعل، وفي حالة إذا استحق.

١- أما حد الخطاب فبأن يعرف منة الله عليه في نفسه بأن خاطبه داعياً، وأرسل إليه هادياً، على استغنائه عنه، وافتقار العبد إليه، باطناً وظاهراً، ورجوع فائدة الخطاب إلى العبد دونه أولاً وآخراً، كرماً وحكمة، وفضلاً ورحمة، فيجيب جواب مخبت بأعباء المنّة، مسرور بآلاء النعمة.

٢- ثم يعرف منة الله تعالى في بيان زمن الأداء، وتشريف خدمته، ليتمكن فيه من إقامته، ويحوز جزاء عائدته، وبترفه بالترك عند انقضائه، وبتمكينه من السعي لطلب فضل الله تعالى وابتغائه، تعالى الله عن منافع الأعمال ومضارها

(١) رواه البخاري في كتاب (الصلاة)، ومسلم في كتاب (المساجد).

(٢) رواه مسلم في كتاب (الوضوء)، والإمام أحمد في مسنده (١٧/٥).

بطاعات الخليفة وإنكارها. فيزداد إخباتاً وسروراً، فيبعثه السرور على شغل الزمان بالمأمور، ويرد عليه الإخبات عن النظر إلى غير ما أمر.

٣ - ثم يعرف منة الله تعالى في بيان المكان، ليكون للعبد متسلى إذا قصد بيت ربه، ومتشرفاً إذا دخله، ومستراحاً إذا نجاه فيه، ومثلاً على ما يرى من عادات الناس، وخدمة ملوكهم.

ثم الله تعالى سهل الطريق، ورفع الحجاب، وطرده البواب، وفتح الباب، ليسارعوا إليه رغبة، ولا يقفوا رهبة، فيزداد القلب خشوعاً بترادف المنن، والعين قرة بتضاعف النعم، فينبغي ألا يكون له عن ذلك المكان خروج، ولا إلى غير الله تعالى عروج.

٤ - ثم يعرف منة الله في الفعل، في إعطائه قدرة عليه، ثم في توفيقه له محسناً إليه، حتى اشتغل بأداء أمره مطيعاً، واهتدى بفعله بصيراً سميعاً، وفي الناس من علا شأنه، وعم سلطانة، وكثرت أنواعه، وهو مخذول لأموال الدنيا، طريد عن بساط المولى، وكلهم مشغولون بخدمة الوري، العبيد بجسومهم للأكابر، والملوك بقلوبهم للعساكر، فيزداد تواضعاً ونشاطاً، وخشوعاً واغترباطاً، فتصير الأجزاء كلها بعد الأعضاء في شغل الأداء تفرق على الانتهاء.

فإذا كان صوماً فكف عن المحظورات فمه وفرجه، وكف عن مثلها لسانه، ويخف عن نظيرها قلبه، حتى يكاد يصير الصائم صوماً، والعمر يوماً، لولا الأمر لما شعر بوقت الفطر.

وإن كانت صدقة وهو يعرف منة الله تعالى عليه في أن أغناه بالمال مرحمة، وأحوج غيره إليه حكمة، ثم جعل يده العليا، ويد غيره السفلى، مع ماله بعد اكتساب المال من النجاة عن فتن المال، أتاها وجهه يتهلل حمداً، وهامته تترفع مجداً، وقلبه يتخشع شكراً، حتى تمنى أن يجعل نفسه صدقة مكان ماله، لاستلذاذ شرف الإيتاء وجماله.

وإن كان حجاباً، وخرج إلى البيت وهو ينظر أنه كان عبداً، فصار وفداً، بنى الله بيتاً ليكون له بالوفادة إليه شرفاً وشأناً، وأمر خليله ﷺ بالدعاء إليه رجالاً وركباناً، ليريهام مثال الحشر الأكبر، واللقاء بعد المحشر، ويعجل لهم عتقاً خفياً سيظهر يوم الجزاء ظهوراً جلياً، ثم أكرمه الله بالاستطاعة، وجعل له في أهل بيته قدم الشفاعة، فألم بالخروج عنها، وتمنى الدوام فيها، فيصير وقد خرج ببدنه وراحلته، خارجاً بقلبه وكليته، يقوده النشاط، ويحدوه الاغترباط، حتى إذا طهر ظاهره للإحرام بالماء، طهر باطنه لله تعالى بالاصطفاء، ثم إذا أحرم بتلبيته جسده

عن الصيد والطيب والنساء وغيرها من المحظور، أحرم قلبه بإخلاصه لله تعالى عما يخطر بالصدور، ثم يمضي ملياً بلسانه، مصداقاً بقلبه، مستأنساً بذكر ربه، حتى يبلغ الموقف، فيقف بعرفة ظاهراً، ويقف بالمحشر باطناً، ويستقبل الكعبة بوجهه، والله تعالى والجنة بقلبه، ويدعو الله تعالى ويشني عليه بذكره، ويحاسب نفسه بصدوره، حتى يحل بمنى، فيأخذ النخيرة بيده ليزيحها لزيارة البيت العظيم، والبراق بعقده ليركبه إلى دار النعيم، فإذا لقي البيت ناظره لقي الله تعالى خاطره، فإذا طاف بالبيت برجله، طاف الجنة مع أهله، ومن ذا الذي لقي الرب عزت قدرته وهو عنه راض، ثم خطر وهم الزوال بباله، أدخل الجنة مكرماً، ولم يعلق على ارتحاله.

وأما المصلي فإذا سمع الأذان، وهو نداء الرحمن، على أعلى بنيان، إلى أشرف مكان، ما إليه مسافة، ولا فيه آفة، بل فيه كرامة الإذن بالنجوى، وشكوى البث والحزن إلى المولى، وعرف عظم هذه المذلة، قام ببذنه متواضعاً سريعاً، وبقلبه مسروراً سميعاً إلى طهارة الأعضاء عن الحدث الخارج لخدمة ربه، موصولة بطهارة القلب عن الحدث الداخل للقاء ربه.

ثم يدخل المسجد بأركانه، ويستقبل عرش الرحمن بجنانه، ثم يكبر بلسانه جهراً، وينادي بضميره سراً، وموقناً بقلبه أنه بين يدي ربه، عارفاً عظم شأنه، وعلو مكانه، حتى يصير ظاهره لباطنه دائماً، وباطنه عن مكانه إلى الله تعالى آيياً، فهو حاضر غائب، موجود معدوم، واصل بائن، عميت عن الدنيا عينك، وأبصرها شرك، والدنيا عن شرك على غفلة، سألتها بحق الإخلاص بقلبك، نعمة ما نلتها بحيلة.

تعبت يا رجل بمخالفة شهواتك على العادة، وما كتبت لك من عبادة، وغبت عن الدنيا ببدنك، وحضرتها بقلبك، فغابت عنك، فما لها بالقلوب من بصر، وحضرت العبادة ببدنك، وغبت بسرك، فغابت عنك الآخرة، فما للأبدان عند الله من خطر، فما أسوأ عادتك، وما أغبن صفقتك، أو رأيت فأحببت العمل بالكفر اللازم.

أقسام العابدين:

قال الأخ: لو خرجت عما أجملت من أقسام العابدين بأسامي مسفرة عن معانيها للسامعين.

قلت: وما توفيقي إلا بالله رب العالمين: إن العابدين أربعة: الفائز، والخاسر، والمغرور، والأحمق.

١ - الفائز :

أما الفائز فالذي عبد ببدنه، مخلصاً بقلبه، أعمى في حاله إلا عن ربه، سواء عنده ذم عليها أو حمد، قُرب فيها أو طُرد، أهين أو وقر، أتبع أو هجر، إلا شفقة عليهم إن كانوا ضالين، وحمية لله تعالى إن كانوا عاصين، لا يطلب منهم أجراً، ولا يتوقع ذكراً، إلا أن يستتبعهم إن أظهر العبادة قولاً وفعلاً نصرته لدين الله، أو يسكتوا عنه إن أخفى ليصونهم عن زيادة عصيان، ويكفهم عن سب الرحمن، ما لنفسه فيهم من نصيب عاجل في الدنيا إلا المحبة في المولى، عارفاً بعد الإخلاص منة الله عليه في توفيقه للثبات على طريقه، إلى ما لا نهاية له في أوهام الصدور، فيرجع إلى الإقرار بالقصور والاعتذار عن ترك الواجب في الأمور، قائماً مقام الافتقار، مستغيثاً في قيد الاضطراب، لا يرى من نفسه أمراً إلا ما يلتزم به لله تعالى شكراً، فتتحقق له عند ذلك العبودية في عجزه وإفلاسه، ومنة الله عليه بكل نفس من أنفاسه. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ لِأِيْمَنَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ١١]. وقال: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيْمَنِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]. وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ [المؤمنون: ١، ٢].

٢ - الخاسر :

وأما الخاسر، فالمتعب ببدنه بالعمل، الساهي عنه بقلبه، فنفوته الدنيا على سخط من ربه، فالدنيا تنال بظواهر الأمور، والمولى لا يرضى إلا بأسرار الصدور، وقال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

٣ - المغرور :

أما المغرور، فالمتعب ببدنه وسره، المرائي عباد الله في أمره، طمعاً في علو شأنه، أو حسن ذكره. وإن الرياء ليقع من طريقين: قصد بالقلب مكابرة، ودفعه يسير. واهتزاز النفس إلى ما يتعجل له من نفع على عبادته مخادعة، وإنه لأمر عسير.

فمن جبلة النفوس: الكسل، إلا بنفع عاجل لها من مال أو علو شأن، أو ارتفاع مكان، أو نفاذ أمر، أو حسن ذكر، بأي سبب كان، لا يخلو عنه إلا من محا عن قلبه حب العباد والدنيا بحب الله وحب الآخرة، وأبغضهم بمعرفته أن الناس طالبون من الدنيا ذلك الحظ، فهم مجادلوه عن ذلك غير باذلين، وإلا فحاسدون، وإلا فعاجزون عن تبديل قسمة رب العالمين.

فإذا أنس منهم، واعتقد أنهم منازعوه، قطع الطمع منهم، فنجنا عن سبل الإرادة، وإنها لشرك خفي، ونفاق غير مرضي، يتراءى تلك العبادات يوم الحساب، كما يتراءى للظمان السراب، وذلك في قول الرسول ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ، فَمَنْ عَمِلَ لِي وَلِشْرِيكِي، فَهُوَ كُلُّهُ لَشْرِيكِي». وقال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

٤ - الأحمق:

وأما الأحمق فالمجهد بدنه للعمل، وقلبه للإخلاص، الصابر على الفقر والخلوة عن الناس، فإذا هو في خلوته وطاعته، إذ وسوست إليه نفسه، فزيّنت له أمره، وشرّفت لديه في العبادة قدره، كأنه مبتدئ إلى الله تعالى إحساناً، تعالى الله عن ذلك شأناً. فنظر إلى حاله بعين العجب، وعقد عليه القلب، فاحترقت عبادته به احتراق الحطب بالنار، وتساقطت أعماله تساقط الثمار بالأغصان، فاسودت منظراً، وفسدت مخبراً، وإنه للكفر السري، والجحد الخفي، إذ كان التمكين من الله تعالى لعباده أعظم منة عليه من التكوين، فإذا رآها إحساناً منه إلى الله تعالى فقد كفر بمنة التمكين، وجحد إنعام الله تعالى عليه من بين العالمين.

خطر العجب على الأعمال:

دمار العجب أشر من دمار الرياء، إذ فساد الرياء لم يتعد إلى الصورة عن المعنى، ولا عن الآخرة إلى الأولى، ودمار العجب يشمل الأمرين، ويعم الدارين، فكان عملاً بلا جدوى، وما هو إلا عمل الحمقى.

والنجاة من العجب غريزة، فالنفس مدعية للملك والإمرة والإحسان والقدرة، ما ترجع إلا بالرجوع إلى معرفة عجزها وافتقارها، بالوقوف على أسرارها، ومعرفة قدرة خالقها ومنته عليها في جميع طرائقها. قال الله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ثم لا نرى معجباً إلا ممقوتاً بين الناس، مهجوراً بفرط الوسواس، فكيف حاله مع ربه، وهو مشرك بعجبه، بالله أستعين، وبه أعوذ، وإياه أستهدي، وإليه ألوذ تبارك من مقدر، لا يتحرك العبد ولا يسكن ولا يتكلم ولا يسكت إلا بنعمة من الله جديدة مضمومة إلى منة قديمة. فله الحمد دائماً سرمداً، والشكر متوالياً أبداً.

أعجب إبليس بكونه من النار اعتقاداً فكفر والتحق بالملعونين، وأعجب فرعون بنفسه في ملكه فادعى ألوهيته فأغرق بآله أجمعين. وأعجب سليمان عليه السلام

بالخيل فأحبها، فاشتغل عن ذكر ربه ففتن وانعزل عن كرسيه بجسد. وأعجب آل محمد ﷺ جند الله يوم حنين فهزموا، وما وقف أحد على أحد إلا نفرأ قليلين، مع الثابت بتأييد رب العالمين. ورأى يوسف صلوات الله عليه منته على صاحب الرؤيا فسأله التذكير عند ربه فلبث في السجن بضع سنين. وقال موسى عليه السلام لأخيه: ﴿أَخْلَفَنِي فِي قَوِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. فعبدوا العجل وموسى في مناجاة خالقهم وما يعبدون. وقال عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧]. فأظهر الله تعالى دينه بعد بالحواريين. ومحمد ﷺ توفي فلم يفوض الأمر إلى عين منهم، بل سلمهم إلى الله تعالى، فعمّ البلاد دينه بالخلفاء الراشدين، ثم بعده بأقوام أكثرهم ممن لا خلاق لهم في تتميمها لما فوض الله رب العالمين. وقال شعيب صلوات الله عليه لموسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]. وإسماعيل عليه السلام: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. فرفعا للبحر. وقال موسى عليه السلام للعبد الصالح: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف: ٦٩]. فأقر بالعجز، ولم يظهر فرق ما بينهم إلا من حيث تخصيص موسى نفسه من حيث الصبر، وتعميم شعيب وإسماعيل في بابهما الأمر.

فالعجب كل العجب أن ترى لنفسك فضلاً وشكلاً، وأن ترى لمن دون الله تعالى بغير أمر الله أمراً. فالأول طريق إلى الكفر، والثاني طريق إلى الذل، ولا يتحرر منهما عبد إلا بتثبيت من الله تعالى، وعصمة وتوفيق من لدنه ورحمته، ليرى بنور التوفيق القدرة والإحسان لله، والعجز والإساءة من العبد. فله الحمد أبداً على كل نعمة، والصلاة والسلام على رسوله محمد وآله صفوة الأمة.

كتاب السجن والمملكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لمن سجن عباده في بسط الأرض، حتى لو راموا النفوذ من طولها لتحيروا في العرض، تسجيناً من جرده بجهله ازداد احتباساً بقوله وفعله.

والصلاة على رسول عرف المملكة والملك، فلم يطلبهما في السجن ودار الهلك، فأقام فيه عبداً مسجوناً مقيداً، وخرج عنه مصوناً مؤيداً، واستدل بالسجن على الملك الذي حبسه فيه وهو عنده على الإطلاق، ثم نظر في حكمة حبسه فاستدل على مملكته بعد الانطلاق، فأبغض السجن بدليل، وأعد للرحيل، فهذه الأربعة خصال والمحن تتعلق بقسم السجن.

- أربع خصال تتعلق بحال السجن :

أولاً

معرفة الملك

فأما معرفة الملك فبأربعة وجوه: بمعرفة حال السجن، وحال احتباسه، وحال عمله، وحال إصابته.

١ - أما حال السجن فهو العالم المحسوس، من السقف العالي، والبساط الممسوس، فمتى تأمل العبد فيه وجده سقفاً رفيعاً لا يناله بصره، وبساطاً بسيطاً لا يحوزه قدمه، وأوتاداً راسخة لا يززعها بيده، وسراجاً وهاجاً لا تقاربه سرجه، فيتيقن ما يعجز عن صنعه من رفعه ووضع، ثم رأى ما فيها من الأشياء سواء مسخرين لمنافعه، مذللين لمصالحه، فيعلم أنها متاع، وأنه المقصود من بين الأنواع، وأن للبناء بناء غير شبيه بالبناء وبمن فيه، ممن اتصف بالعجز عن الإنشاء.

٢ - ثم ينظر إلى حاله، فيجده هالكاً فيه، لا يمكنه النفوذ من أقطاره.

٣ - ثم في عمله، فلا ينجيه عن مكاره أدواره، مع ما يرى في الدنيا من الفسحة، ويجد لنفسه من القدرة، ولقلبه من حسن الرأي والاختيار، بفرط الذكاء

وجودة الاختبار، فيعلم أنه مطلق ظاهره، محبوس باطناً، وحاكم في الأسباب، محكوم عليه في الأعراض، مبتلى بين ذلك، لا هنا ولا هنالك.

فالإطلاق الظاهر يسوله لنهوض إلى ما أراد، والحبس الباطن يقطع الطريق عليه إلى المراد، وحكومته تعطيه حلاوة الإمضاء لنفسه، والحكومة عليه تذيقه مرارة القضاء عليه، وأن له حابساً فيه، حاكماً حكم عليه بذلك.

والله تعالى حبس عبده في فسحة لا تعرفها العيون إلا بمملكة، وحكم عليه في حظوظه المتعلقة بأسباب لا تعرفها النفوس إلا ولاية.

٤ - ثم ينظر في إصابته إذا عمل وأصاب، كيف امتنع عليه مقصوده، وتباعد عنه

مطلوبه، ما دامت اليد تشهد بالامتلاك، والكاظم ينسخه في ورد الأملاك، إلا أنه يزيد عن نفسه صفة ملكه الذي متى جد في تحصيله قرب من هلكه، ومتى يصفو تمتع بهلاك المحبوب، أو تلذذ بزوال المطلوب، ولئن تلذذ متعة بلا إزالة كان كما كانت عليها قبل الحيازة فهي متعة نظر، أو متعة فكر، وصرت فيما حزت خالياً عن الغرض، فعادت حكمتك في فعله إلى غيب، وعلمت أن الذي حبسك وأنت مطلق، فحكم عليك وأنت حاكم، حرملك الغرض وأنت مصيب.

فسح الدنيا عليك وهي سجن، وأنت فيها محبوس عن النجاة ببدنك، محبوس عن الإصابة بعملك، محبوس عن الانتفاع بإصابتك، وإن الحبس عن الانتفاع بالمصائب لأضر من الحبس عن الأسباب، والحبس عن الإصابة بعد العمل والنصب لأوجع من المحبوس فيه بترك السبب، وإن حبس البدن بالعلة والحال لأشد من الحبس بالقيود والأغلال.

ثم ضرب الله تعالى لذلك مثلاً من أحوالك، بضال في التيه حبس عن الوطن بضالاه، ومحبوس في السجن عن أهله وماله، ومحبوس عن الثمرة بفساد نفاذ عمله، ومحبوس عنهما بكسله، ومحبوس عن التمتع باعتلاله، ومحبوس عنه بفقد ماله. فقلب الضال المجنون أضيق من قلب المسجون وقلب المحزون، وقد تعب بعمله ألم من قلب المحروم وقد استراح بكسله، وقلب الصحيح الفقير أسلم من قلب الموسر الكسير. ودل الاحتباس من الوجوه الأربعة على الحابس وهو الرب القدير.

ثانياً

حكمة خلق الدنيا سجنًا

فقال الأخ: أشحذ الله فهمك، وهذب علمك. لقد بالغت في بيان الحبس، فما الحكمة التي تطمئن إليها النفوس، فلسنا نريد حبساً في الشاهد إلا ردعاً أو

جزاء لظالم وقمعاً، فكيف جاز من الله تعالى ابتداءً، وكيف أنشأ الخلق فيه إنشاءً؟
قلت: كما خلق الله تعالى عباده على صفة الفقر، والافتقار في الشاهد بيننا أمر نكر، وكما جبلهم على الحجر حتى لم يتصرفوا في أملاكهم إلا بقدر الأمر، ومثله في الشاهد بعد الرشد جور، وكما كونهم على صفة العبودية ابتداءً، ولن يجوز في الشاهد نقض الحرية إلا على الكفر جزاءً، وأنت في الكل على إشكال، ناظر فيها بعين إغفال.

أما علمت أن العقوبة في حجبنا بزوال إطلاق أبنية الملك في حقنا؟ فأما الحجر عن الأملاك فأصل، والإطلاق فيه بالأمر فضل، وملك العبد في حق الله مجاز ما له أصل. وعقوبة الرق في حقنا كانت في نقض الحرية، وما العبد في حق الله تعالى إلا على صفة العبودية، فلما لم يكن حرمان ما لم يكن له عقاباً، بل كان إعظماً، أعطى ممّا لم يكن له من السكون عطاءً إحساناً.

وكذلك الإفقار عقوبة لما فيه من زوال الغنى، وما للعبد غنى في حق ما بينه وبين المولى، وكذلك السجن عقوبة لما فيه من حرمان نعمة الفسحة، فأما في حق من أخرج إليه من البئر فنعمة، وذلك مثل الآدمي في إخراج ابتداءً من بطن الأرض إلى ظهرها، وفي الانتهاء من بطن الأم إلى حجبها.

هذا بيان أن الدنيا سجن وعقوبة إذا قوبلت بالآخرة، فأما إذا قوبلت بالحال الأول فنعمة حاضرة. لأن الله تعالى حكيم لم يخلق هذا العالم عبثاً، ولكن للجزاء، ولا يصح الجزاء على سبيل الحكمة إلا بعد الابتلاء، فجعله مستعبداً فقيراً مأموراً محبوساً ليجازيه، إذ الطاعة بأضدادها، ويزيد من فضله على كل طاعة أضعاف أعدادها.

قال: فما حكمة إطلاق العمل، مع الحبس عن الغرض، هل يبقى دونه إلا تعب، وهل ذلك إلا عبث؟

قلت: أسأل الله في شرحه التوفيق، وهو المضل والمضيق. إن الأغراض الدنيوية إصابتها شريكة الحرمان في حق العامل والكسلان، ليعلم أن العمل ليس بلازم، وأن الحرمان مع العمل غير دائم، فيتوكل المبصر بقلبه عمل أم ترك على المسبب، ويتكل المبصر بعينه في الحالين على السبب، ويصير الجسم مبتلياً بين دعوة النفس إلى ما أبصرت عينه، وبين دعوة الروح إلى ما أبصر قلبه.

حكم نفذ عليك من الله تعالى في حظوظك، والنفس تراها متعلقة بأسباب وتأمرك بالعمل، كما نفذ القلم من قبل بأمور آخرتك، والشرع علقها بالعبادة، ونهاك فيها عن الكسل، وإن للابتلاء الذي ضلت فيه القرون، وحاتر الأفهام

والظنون، فلا عمل بغير قدر، والعبد مجازى على العمل، لا نجاة له وإن جد عن المقدور، وما في الاحتجاج بالقدر عند الله تعالى بمعذور، إذ القضاء من الله تعالى غير ماض بأقداره إلا متعلقاً بعمل العبد، على ما علم من اختياره.

فالعامل من جهة العبد غير مجبر عليه، ولكنه تحت مشيئة الله تعالى غير مفوض إليه، رداً على من فوض أو أجبر، أو سلط أو أكره، كيلا ينسب الصانع عز ذكره بمخالفة العبد مشيئته إلى عجز، ولا بمجازاته على عمله جبراً إلى سفه.

ثم ضرب لأقسام الآخرة مثلاً بالأقسام الحاضرة، من تعلقها بالأعمال الحسنة، غير خالية عن الأقرار السماوية، لا فرق بينهما إلا من حيث أن أقسام الآخرة متعلقة بأسباب ابتليت بفعلها، وأقسام الدنيا متعلقة بأسباب ابتليت في الأكثر بتركها، على ما مر بيانه. والغرض في البابين ممّا ينال ظاهراً بالسبب، ولكن لا ينال حقيقة إلا بالله العظيم، فهو الذي علقها به، وأقدره عليه وهو العظيم الحكيم، ما لأحد قدرة تعليق انقلاب الحب زرعاً، ثم حباً بالزراعة، ولا قدرة تعليق العتق ثم الملك، ثم الولاية ثم الملك بالطاعة، كيف وكانت الطاعة لزمك بحق العبودية؟ فمن أين قدرة اكتساب الحرية؟ بل ذلك من الله تعالى فضل ورحمة، ومجازاة بحكمة الله تعالى من محسن تصويراً بقدرته، ومحسن تحريراً بحكمته، فظهرت القدرة القاهرة بالإنشاء، وعرفت الحكمة الظاهرة بالجزاء.

ثالثاً

معرفة المملكة

وأما المملكة فتعرف من طرق أربعة: بحال السجن، وحال المسجونين، وأعمالهم، وحظوظهم.

١ - ٢ - أما حال السجن في أنه محبس، وحال المسجون في أنه في الاحتباس،

وهما مكروهان عند الناس - فدلّيل وجودهما بلا ذنب من الإنسان من طريق الحكمة على الامتحان، والامتحان كما دل على أن الدار للمحنة، وأن الممتحن في دار المحنة لا يكون مختاراً، بل يكون اضطراراً، دل من الحكيم على التمييز بين الخبيث والطيب، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. والتمييز دليل على التفرقة بينهما محلاً. وجزاء الطيب إلى دار الطيب مع الطيبين، والخبيث إلى محل الخبيث مع الخبيثين، على مثال صانع حكيم يمتحن التبر في بوتقة على

النار ليصنفي من الغش النصار. فيكون الصافي تاجاً ترفعه الهام، والغش سقطاً تطؤه الأقدام.

٣ - ٤ - وأما الأعمال والحفظ، فإن الناس اختلفوا في أعمالهم، واشتركوا في نيل أنزالهم، فلا عابداً أعطي زائده، ولا جاحداً حرم عائدته، ولا بر أغنى برأ، ولا شراً سقي مرأ.

فدل الأمران على دار أخرى للجزاء، يفرق بينهما في العطاء، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَجْزِيهِمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿[الجاثية: ٢١، ٢٢].

رابعاً

عوامل بغض السجن

فإذا عرف السجن والمملكة، أبغض السجن من طرق أربعة: للمحنة، ورغبة في النعمة، وحذراً من الفتنة، ونشاطاً في الأمن.

المحنة:

إذ السجن مبني للحبس، وإنه لمكروه وحائل عن المملكة وهي محبوبة، ثم يشتمل السجن على فتن من ضيق المكان، وشر الأقران، لا يخص بلواهما الظالمين، بل تعم المسجونين، مع ما عرف الأمن عنه بالخروج منه.

- رغبة الإنسان في النعمة:

ثم أنت نظرت بعينك في الدنيا، فلم تلق حبساً، وذقت بفمك النعمى فلم تجد بها بأساً، وتباعدت عن الفتنة بعلو شأنك، وأمنت بتمنع مكانك، فما أنت بمحتبس لو دمت على هذا إلا بأضييق مكان، لا تجد العين فيه مجالاً، وهو القبر ولا تذوق إلا أمر سم لا يدع عليك أوصالاً، وهو الموت، ولا تفتتن إلا بأقرب موجود لا تقدر منه فراراً، وهو النفس، ولا تخاف إلا في أهول مكان لا تجد فيه أنصاراً وهو المحشر.

أما علمت أن سجناً لم تعرف حدوده ولو بالظن لم يعرف جريان النعيم فيه بالعين، ولو تأملت فيه على جسمك وقلبك ممّا تخاله نعيماً، لسميته عذاباً أليماً، ولعلمت أنك دون النعيم بالسجن محروم.

ولو تأملت فيما ظننت به نفسك بين الأهل والولد والخدم سليمة، وجدها في فتنه صماء مقيمة.

ألم تسمع الله تعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤، ١٥].

أفتنة أعظم من مال يلهيك، وامرأة تلهيك، وولد ينسبك، استكنت في أعظم جهاد مع نفسك وهي فقيرة، وإنها مع المال أميرة، وقد انضمت إليها امرأتك فصارتا نفسين، وصرت رهين حاجتين، بل النفس الأخرى شر من الأولى في جوعها دفعا، وفي شبعها بطرا، وستصير ثلاثة نفوس إذا ولدت، وشر النفوس الآخرة، فإنها فقيرة محتاجة عاجزة، ومتى قدرت وبدا طلوعها ازدوجت الأخرى ولما لاح ينعها تناصرن عليك، ثم تشكو إليك.

هذا لك منهن ما دمن لك مواهب، وربما انقلب مصائب، وربما خانتك امرأتك في فراشك، وأنفقت على غيرك من معاشك وليشتغلن به قلب الغيور، وما الحكيم على مثله بصبور، ولا الحافظ إياها على كيدك بسليم، ثم يلحق به عتل زعيم دعي يكد لهما كدا، هما يتمنيان موتك جدا.

فإياك والاشتغال بها ولو بخطوة، فإنها تصير فكرة، ثم نظرة، وإذا أنت مسلوب العناية بفرط الشهوة، مستور لديك، وأنت بادي العورة، التمسست المرأة تطلب مالها وجمالها، وتبع جمالها الرجال، وأنت تبع المال، تحفظ بنفسك مالها، وهي ترضي بنفسها رجالها، ألا تميل عن مثلها إلى ذات الدين، امتثالاً لسنة خاتم النبيين.

وإن كانت على دمامة وفقر، فذلك المختار من الأمر، فتكون لك يد ما منها صفواً، وتقوم بفقرها مع حاجتك طوعاً، وكانت عوناً لروحك أنى ذلك؟ وكان ولدها الصالح بعد موتك من حماد أعمالك، غير أن يتمثل هذا الاتفاق ناقة صالح وما لك في مثلها من ناصح، والعياذ بالله من العمى، والتهافت في الردى.

خامساً

الاستعداد للرحيل

فإذا أبغضت المكان، واشتقت إلى المملكة استعددت للرحيل بأربعة: الثقلة، والتجرد، والزاد، والراحلة.

فرمان السفر إلى المملكة مديد، وأنت في سفرك فريد، ناقلاً للأهل والوطن والسكن، ومن رحل غير عائد قبل النقلة امتلاً غماً وحسرة، ومن لم يتجرد للسفر وهو يريد تخيل خوفاً وقد كره، ومن لم يستصحب الزاد والمنزل خراب عذب جوعاً وتحيراً، ومن لم يركب الراحلة والسفر مديد لقي جزاء وخسراً.

إلا أن النقلة عن الدنيا بالذل، والتجرد بالترك، والزاد بالتقوى، والراحلة اليقين. والتجرد والراحلة عبودية والنقلة والزاد عبادة، فمن ملك راحلة العبودية وضمهرها بمضمار العبادة سبح به إذا ركبها البر والبحر، ما يفزعه موج، ولا يجوعه قتر، حتى تجوز به إلى منازل، وتورده على مناهله مصوناً في مهالكه.

وقد كان إبراهيم عليه السلام من الموقنين فحل بالنار وهي عليه برد وسلام، وكذلك كان خاتم النبيين تداخله السم وما له إيلام، وقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: «لم يسبقكم أبو بكر بكثرة الصلاة والصيام، وإنما سبقكم بشيء ركز في قلبه». أي: باليقين سبق إلى ربه.

وعلامات النقلة أربع:

استيقان القلب، ثم ترك العمارة، ثم تفريغ المكان، ثم بيعه بما يصحبه.

وأما التجرد فيتم بأربعة:

تجرده بقلبه لله تعالى شكراً، وتجرده لله تبارك وتعالى بلسانه حمداً، وتجرده عن ملك الدنيا لله تعالى يداً، وتجرده عن عمل الدنيا لله بدنأ.

والزاد أربعة أنواع:

طعام وشراب، وإدام وملح، فالشراب وحده، والطعام تمام للإدامة، وطعمه بالملح. ومثاله من التقوى والإيمان، والعبادات المفروضة، وسننها وآدابها. فالإيمان وحده، وكمال المفروض بالمسنون، وحسنه بالأدب.

واليقين في أربعة:

التوكل، والتفويض، والصبر، والرضا.

فالتوكل: اعتماد العبد على فضل الله تعالى وقدرته فيما أراد، فلا يجازيه الكريم القدير إلا بالظفر، قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ ﴿[آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

والتفويض: نزول العبد على حكم القسام الحكيم كيفما كان، غير مبال بالمكروه منه، فيجازه الله تعالى بالوقاية دونه، قال الله تعالى: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوءًا ﴿[غافر: ٤٤، ٤٥].

والصبر أربة التوكل، والرضا جلاء التفويض، فمن يربط أربة التوكل بأربة الصبر لم يزعه ريب الدهور، وثبت عند المكاره وهو منصور، ومن جلاء التفويض بالرضا لم يغب عن قلبه غيب الأمور، فأيقن عنه كأنه عاينه وهو مستور.

وعلامات المسجونين أربع: رثاءة في الزي، وغثاءة في الأكل، وطاعة للأمر بما هو سبب الخروج، وبغض السجن بالقلب. ورثاءة الزي وغثاءة الأكل مترددتان بين شهوة وحكمة، والطاعة والبغض بين حكمة وذلة. فالذي يرث زيه ويغث أكله بشهوته. البخيل المحروم، خير عاجلته وآجلته بشر حاله بين أقرانه، المهان في ذله بين إخوانه، المسكين بفقر ظهر بخلاً، وغم بطن حباً، فخاف الخروج من سجنه وقد عرفه سجناً، خوفاً على ماله، وهو مفارق عن فوائده شحاً، في حاله. فيقيم ذليلاً مسكيناً، ويخرج شقيماً مهيناً وهو يتحسر على ما جمع بعمره، وحفظ بقلبه، فقد تركه لغيره، ولم يحظ بخيره.

أما يعلم هذا المحبوس إن رضي السجن مقاماً، ولم يتمن سواه إكراماً، أنه خارج عنه لآخر يزيد خلوته لا محالة، فلا يكثر من أحب من المال فيه على جهالة، بل احتال لتقدمه إلى ما إليه راحل، ليصل إلى محبوبه يوم إليه واصل، أم جاهل لا يعي شيئاً، أم متحامق متغافل.

أيها المتألم لزوال ملكك حتى حفظته عن زيك وأكلك، لتزولن عنه يوم هلك، وإن ألم الزوال جملة كرهاً لأشد من ألم الزوال شيئاً بعد شيء طوعاً، أو سفهت فلا تهتدي إلى حكمته، وشقيت فسدّ دونك باب الرحمة؟

وأما الذي رث وغث لحكمته فهو الذي أسخى بماله لراحته عن دار محنته، وقدمه إلى مملكة، ولم يرض أن يرى على زي الملوك وطعامهم وهم في دار المحبوسين ومقامهم، فيظن ظان أنه رضي به وطناً، واستطابه لنفسه مسكناً، فيغنى به عالم عمى، أو يضل به جاهل من الورى ويحشر في زمرة من يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طِبْنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠]. فأحبته القلوب إذا استهان بمراتبهم، فلم ينازعهم عليها، وقرت به العيون إذا لم يستح بمواهبه، فأثرهم بها، فهذا يقيم حميداً، ويخرج سعيداً.

وأما الذي أبغض وأطاع للذلة: فالخسيس المحروم نور الحكمة، أطاع السجن تحرياً لصلاح عاجل كرهاً، وملاً قلبه من أوامره بغضاً، واستأنس بمن في السجن من أجناسه، وشكا فيما عليه من الأهوال إلى جُلَّاسِهِ، يكره الخروج من السجن حباً لصحبه، وبغضاً لربه، فهذا هو الشقي الذي يركب ذروة الشقاوة، والغبي الذي صور من طينة الغباوة، فقد خالف هذا نفسه بالطاعة لغيره، وحرّم

بسوء نيته عن خيره، واستأنس بفرقة أمثاله، وشكا إليهم وهم شامتون بحاله، وأحب أصحاب السجن ولا بد له من الرحيل عنهم، وأبغض الرب مع علمه بالوصول إليه.

ألم يدر الشقي إذا التزم الطاعة أنها على الطوع أحلى، ولرب السجن أولى، وعلى سبيل يثمر له في العاقبة أخرى، وأن الاستئناس بالمصائب غير صواب، والشكوى إلى الشامتين لشر عذاب، بل لو جاز الاستئناس حال المصيبة فبالسليم، وإن حلت الشكوى حيال الثقيف فإلى صاحب الثقاف الحكيم، والخروج وأنت متوطن تجذب جذباً صيرت عن خروجك وأنت منتقل تخطو خطواً، ألم تر قول الله تعالى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ [النازعات: ١] في توفي الكافرين. ﴿وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطًا﴾ [النازعات: ٢] في توفي المؤمنين. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]. ثم العرض على الله تعالى وأنت راغب، خير من العرض وأنت كاره، فهذا الذي شرك العباد في محبته طاعة الدنيا، وشرك الكفار في محنته شدة اللظى.

وأما الذي أبغض وأطاع للحكمة فالسعيد الموفق لنور السعادة، أطاع رب السجن فراراً عن محبة السجن طوعاً، فملاً قلبه على السجن مما وقف على شدائده بغضاً، فاعتزل جلاسه مستأنساً بذلك الأمر، ويحمل لديهم فيما أصاب، تحلى الصبر، وتمنى فراق السجن، لبغضه إياه، وأحب لقاء الرب لعلمه برضاه.

فهذا السعيد الذي مُزج بالسعادة، وحلى بالعبادة، صفت في بغضه الدنيا لله سريرته، وحطت عنه أعباء الطاعة لله محبته، وقد استحضر في مقامه بقلبه، انتظاراً لرشد ربه، فإذا الرسل ينادونه بالبشارة قبل الحلول والزيارة، وهو متسارع من السجن الواسع، إلى الدهليز الضيق، مستبشراً لما نال من الرحمة.

فمكان الراحة - وإن ضاق - خير من واسع مكان الشدة، لا بل البيت الخصيب المضيء نهاراً، أوسع من التيه القفر المظلم سراراً، استبطاً إذن الخروج إلى فناء دار الملك مشتاقاً إلى اللقاء، مشغولاً بفرط محبة الملك عن الملك والجزاء، فصارت المقامات أربعاً بعد: الوجود الظاهر للدنيا، وهو السجن. والفقير وهو الدهليز. والمحشر وهو فناء المملكة. والجنة وهي المملكة.

هذا الذي عرف الدنيا سجنًا فأبغضها، وكذب العين في أنها مملكة فأعرض عنها. فأما من عرفها مملكة فأحبها، وكذب عقله بالكفر فسيغزله الله تعالى عنها، إلى أضييق سجن منها - وهو القبر - وهو راض بذلك الوهد جدًّا، بعد ما كان لا تكفيه الدنيا طولاً وعرضاً، خوفاً على جزاء فعله. إذ من عرف عقده، وذاق

النموذج في لحدّه، فبينما هو كذلك إذ نفخ في الصور، وجاء أوان النشور، فخرج من الضيق إلى السعة وهو يقول: ﴿يَوَلِّينَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدًا هَذَا﴾ [يس: ٥٢]. لما قدمت يده، وأظهره الله تعالى عليه وأبداه، فيستوي على متن جهنم للعرض، وعليه سيماء، فيخسف الله به خسفاً، إلى سلاسل وحمم، ودرك بعد درك في عذاب أليم، فكانت مقاماته أربعاً: الدنيا رهن المملكة، والقبر هو السجن. فينزح عن المملكة نزحاً، ويجذب إلى السجن جذباً، ثم يخرج للعرض إلى فناء الملك، وهو متمني السجن خوفاً من الهلك. ثم اللظى لا يموت فيها ولا يحيا.

فأرى الله عباده بلطيف حكمته الدنيا سجنًا بعيونهم بعد الوفاة، وكما خلقها سجنًا تراها القلوب حال الحياة، كيلا يبقى لأحد على الله حجة بعد البيان، ويزداد الذين آمنوا إيقاناً، والله المستعان، والعياذ به لأهله من الخذلان.

- والمصريون أربعة: مصر على هواه فعلاً وعقداً، ومصر عقداً لا فعلاً، وتارك لهواه ظاهراً وباطناً، وتارك باطناً لا ظاهراً.

١ - فأما المصر عقداً وفعلاً، فلا يزداد له إلا تضيقاً، ولا ينال إلا تشديداً، يزداد أبداً في إقلاله، ويرد إلى أسوأ حاله، من فسحة السجن إلى البئر، ومن النيران أخرج إلى المصر، وهو أظلم عليه وأضيق خوفاً من العذاب إلى لا ينجو بدون حياته من البئر العميق، وزاوية المضيق في ظلماته.

فعلى هذا: المصر على هواه عقداً وفعلاً في الدنيا لا يزداد بما يطلبه ملكاً وجمالة، إلا ضيقاً وسفالة، فاضطراره إلى منازعة الكبار من أشكاله، وافتقارهم في رد منازعتهم إلى من هو دونه في حاله، وكان من قبل أن نازع على النذرة نازع ضعيفاً، ومن احتاج قصداً شريفاً، غير أن الله تعالى قد أمضى حكمه في زيادة تضيقه وتشديده على مثال بناء السجن وتشبيده، تعرفها القلوب، وتنكرها العيون، حتى ترد إلى الحبس بعد الموت عياناً ثم يخرج إلى المحشر بعذاب لا ينجو عن نيرانه إيقاناً.

٢ - وأما المصر عقداً لا فعلاً، فمخادع بظاهره ربه، وما خادع إلا نفسه، وسيخادعه الله تعالى في سجنه، وسيستدرجه بمكره، فيبعثه على طلب الدنيا وما لديه من إصابة، أو يملأ كفه من النعيم وما لنفسه إلى التمتع به من إجابة، أو ترغب نفسه في التناول وشهواته فاترة لا يجد له لذة، وطبائعه فاسدة لا تعطيه إلا علة، أو تقوى شهواته الفاترة، فيقتضم النعيم قضمًا، ويسلمها إلى الطبائع فتهمضمها هضمًا، فيورث التناول فضولاً في القوى، فيبعثه إلى منازعات الوري، إما بلسانه أو بيده أو بماله وعدده، فيفقد راحة جسمه،

وأنس صدره، إلى أن يحل بقبيره، فلا تزال المصائب تصيبه في لباس المواهب، والأسود تعانقه في جسوم الكواعب، إلى أن يأتيه اليقين، فيساوي المسلم في مرائي العيون، ثم يخرج إلى المحشر مع معاشر المسلمين، يظن أنه خدع بما أظهر رب العالمين، غافلاً عن خداع المولى، كما أغفل عنه في الأولى، يمشي بنورهم إلى أن يعاين النعيم، معتقداً جواز الجحيم، إذ الله تعالى ضرب بينهم بسور له باب، باطنه فيه الرحمة والثواب، وظاهره في قلبه المخادع والعذاب، يناديهم: ألم أكن معكم؟ قالوا: بلى، ولكنك خادعت الله تعالى، واغتررت بإمهاله في الدنيا، فخداعك الله حتى مشيت بنورنا، إلى ما ورائك من النار، وإنما هي مأواك اليوم مع الكفار، فكان مأوى المخادعين مأوى الذين كفروا معلنين، وإنما ازدادوا حسرة بما عاينوا من النعمة، وحيرة على ما أخذوا بغتة.

٣ - وأما التارك لهواه ظاهراً وباطناً، فلا ينال من رب السجن ترفيهاً، ووعداً حسناً وتخفيفاً، يحل عند كل يوم نوع قيد، ويخرج كل يوم إلى خير سجن، وتصل إليه من لدنه ضروب مواعيد صادقة، ويدر عليه صنوف عوائد كلها بالفوز ناطقة، حتى يصير معه بقلبه احتباسه في السجن بجسمه، إلى أن يأتيه البشير بالإطلاق، فيقوم إليه مجيباً متسارعاً بأركانه، سابقاً في العرض كل إخوانه، فلا يقف حتى يعتق، فقد طهر حاله قبل عرضه، وخرج عن عهدة نافلته وفرضه.

٤ - وأما التارك لهواه باطناً لا ظاهراً، فلا يخفف تركه عقداً مكاره الحبس، ولا ينجو قلبه في محنته عن مساعدة النفس. فهذا عبد خادعته نفسه فأطاعها على جحده، وما خادع إلا ربه، فأماله في فعله عن سنن عقده، فصار يعصي بين ندم عنه بقلبه، وخوف عليه من ربه، فينمحي العصيان بين طاعة وطاعة، وتتلاشى بين عشرة وعشرة، فلا يزال عنه حتى يأتيه رسول الخروج، ناظراً بعين الرحمة، ناطقاً بلسان الهيبة، وهو على خوف ورجاء، فيجيب ولا يتسارع إلى الإجابة قلبه، ويتكاسل عنها جسمه إلى أن يبلغ شفا القبر، فيبصره مظلماً ضيقاً بظاهره، ولحده واسعاً نيراً بباطنه، فيمكث في قبره غافلاً عن حال غيره، إلى أن ينادى للعرض على المولى، فيقام للحساب مع أقران فعله في الدنيا، ونصب الميزان، وأزلفت الجنان، وسعرت النيران، وكورت الشمس، وانكدرت النجوم، وطويت السموات، وسيرت الجبال، وبسط الصعيد، وظهرت الآيات، وصفت الملائكة صفين للعزیز الوهاب، صف العقاب،

وصف الثواب، وجاءت الرسل شهوداً، وأقام العباد وفوراً، وأحاط دخان جهنم بالخلق محرقاً، وأضحى الصعيد بنور الرب مشرقاً، والعباد عراة حفاة، فهم مذعنون مهطعون سكوت لا يجسر أحد أن يقربه هيبة، ولا يرفع بصره إلى شيء خيبة، وتطايرت الكتب إلى الخلق ودعي كل أناس بإمامهم إلى الحق، والمسكين ذاكر ما أظهره، ناس ما أضمره، يذوب حياء عمّا في الكتاب، ويبكي خوفاً من سوء الحساب، يرفع يمينه ليأخذ رجوع غير راغب، فإذا ملك الرحمة بيمينه إلى كتابه يقول: لا تخف فأنا الكاتب، والرسول ﷺ بكنفه يقول: لا تستح فأنا الشاهد، واللّه تعالى يقول: أبشر فأنا المحاسب، فيخادع اللّه تعالى نفسه جزاء على ما خادع عبده، فيسلمه إلى الجنان من بين أهل النيران جزاء للظاهر بالظاهر، والباطن بالباطن، واللّه خير المجازين، وأكرم المحسنين، وإن غلبت سيئة حسنة طهره اللّه بما رحمه أو نار، ثم ألحقه بالأبرار.

- ذكر الدنيا وصفاتها الذميمة :

لا شيء سوى الدنيا : وهو قول الكافرين، زعموا أن الدنيا مرتعة وملهاة، ومملكة ومفخرة فيرتعون أيام صباهم ويلعبون أيام شبابهم، ويملكون إذا بلغوا أشدهم، ويفخرون بعد ذلك بأفعالهم وآثارهم، وليس الدنيا كذلك بل هي مخدعة بزخارفها، ثم متعبة في مطالبتها، ثم معركة في متاركة أهلها على مواهبها، ثم مهلكة عياناً، ولم ينل المني منها إيقاناً، وقد قدمنا فيما مضى عليه من البيان برهاناً.

هذا إذا سمينها مملكة، وطلبناها بولاية الأمراء والكبار. وإذا سمينها مملكة وطلبناها بعقد طلب الرغبة والفخار، فهي عجوز ذات عشاق، ملولة فاجرة.

أما عجوز فلأنها أم جداتك وآبائك، وقد كانت أسنت قبل أولئك، وللعجوز أربع خصال: غرور بالنقاب، وفرار عن الخلوة، وسماحة عند النظر، وبشاعة عند التمتع.

وأما ذات عشاق فلأن الناس كلهم يحبونها، وهي المتلفتة إليهم بغنج، ولها خصال أربع: الوعد، والخلف، والتحيز، والتلون.

وأما الملولة فلأنها ما دامت لقديم، ولا امتنعت لجديد، ولها خصال أربع: الاستطراف، وسرعة الإعراض، وسوء الاختيار، وترك الاختيار.

وأما الفاجرة فلأنها ما اجتمعت للعادة كنوز إلا عند الغاصبين من الولاة والظالمين، ولها خصال أربع: استلذاذ الحرام، واستبشاع الحلال، والتمتع على الطلب، وتتبع الهارب.

غير أنك حكيم تركت خصالها الذميمة، إلى خصالك الحميدة، فنظرت في طبائعك وفصولك، ووقفت على قبائحها الصحيحة، فأحببت أربعة: الراحة بالبلغم، والفرح بالدم، وعلو المهد بالصفراء، وحسن التدبير بالسوداء. فرأيت بذر الراحة في فراغ القلب، وغراس الفرح في طرب النفس، وعلو الهمة في استحقار أدنى الغرض مذهباً للطرب، وفراغ القلب منافياً حسن التدبير، وطرب النفس واضعاً علو الهمة، فتضادت أحكام عللك، فخسرت دون منهلك، ثم رجعت إلى حكمتك، واستخرجت الدفائن بفكرتك.

فوجدت الصفراء أميراً، والسوداء وزيراً والدم أنيساً، والبلغم نديماً، فجمعت بينهم على هذا الترتيب، فرأيت الأمير عالي الهمة، غيوراً غالباً يائساً ورأيت علو الهمة في أربع: التهاون بالبعض، وترك الرضا إلا بالكل، وطلب الكفاية للمنازعة، والعفو عند المقدرة، فتركت أبعاض الدنيا مستحقراً إياها، فإذا الكل فائت فيما تركت أبعاضاً على أهلها، فحملتك الشهرة على منازعتهم للأصفاء، فإذا هم ليسوا بكفاء، فأكثر من حظي بها التجار والملوك، وما بهم كفاءة الحكماء.

وقد امتزج بالشهوة الغضب، فأذاك إلى المنازعة، فلما قدرت عليهم حملتك الهمة العالية على العفو عنهم، فملت إلى الحالة الأولى، إلا أن تنتقم منهم فتصير تاركاً لعلو الهمة بتناكحها ضالاً عن مناهجها.

ثم رأيت الغيرة في أربعة:

سوء الظن على الغيب، والسخط عند العيب، فكراهة بالشركة، وإعراض إلا بالقدمة، فإذا أسأت ظنك فيما غاب عنك لم تصبر عليه فسلبته وأين الذي لا يغيب. وإذا كرهت الشركة ولم تنل الصفو صرت عنه، فإذا لم تقبل إلا على ما كان لك من القديم، وما حظ من الدنيا إلا وقد تمتع به من كان قبلك - تبرأت منه، فلا تكاد تظفر بحظ إلا رأيت الخيرة في نقض الغيرة، وكفى بالعاقل عاراً أن يكون صبوراً على حظوظ ينفىها الغيور.

ثم رأيت الغلبة في أربع:

قدرة حسية بلا عجز، وغنى بلا فقر، وهيبة بلا تبدل، وإعطاء بلا منع. فالهيبة تقضي بسوء المنازعة، والقدرة يقطعها الغنى عن الناس، والغنى يورث الهيبة، والإعطاء تشهدده القدرة، وإنك لا تقدر على الكل إلا بجمع البعض إليك، ولن تقدر عليه إلا بحيلة العاجزين قبل الإمكان، ولن تستغني إلا بالمال والخدم، وفي تحصيلها الافتقار إليهم قبل الاستغناء عن الأمم، ولن تهاب إلا بانقباض

وحجاب، وتحت ذلك الانفراد، ومن انفرد عن الكل بذاته هابهم قبل أن يهابوه باحتيالاته. والإعطاء بعد الأخذ، وأنه لازم من المنع، فلن تنصب حباله لصيد واحد من هذه الأربع إلا صادق بها ضده، ولا نظرت إلى مقصود نيل منها إلا وقد نقض به قصده.

ثم رأيت السياسة في أربع:

الحذر، واليقظة، والمعرفة، والعدل. فمن لم يحظر غلبته عيناه زمان الراحة، ومن نام غفل عن الرعية فظلم ونقص بنيان السياسة، فإنها عن الرعاية بالتأديب والكفاية، فمنع الكفاية يبغضك إليهم، والزيادة في التأديب ينفرهم عنك والإعطاء فوق الكفاية يشغلهم دونك، وترك الأدب يحز بهم عليك، ولم يحذر الوالي الكافي على رعيته وولايته بعد تيقظه إلا بالغفلة عن شهواته، وخاصة إيراداته، فلن تكفي قلنسوة رأسين، ولن يحوي غمد سيفين، ولن يقف على مصالح رعيته ليسوسهم بالعدل إلا بالجور على نفسه، والولد والأهل. فمن لم يعص نفسه ولم يحرمها جميع منها لم يسع بعض الخلق وهوها.

وأما الوزير فمشير عليك بأربعة أضداد لأوامر الأمير:

التواضع، والاحتمال، والحيلة، والإحسان.

والتواضع في أربعة:

القناعة باليسير، والإيثار بالكثير، والمعذرة للحقير.

والاحتمال في أربع:

حسن الظن على الغيب، والعمى عن العيب، والرضا بالشركة، ونسيان ما مضى من السيئة.

والحياء في أربع:

عجز حسي بلا قدرة، وفقر بلا غنى، وتبذل بلا هيبة، ومد بلا يد. على مثال من احتال بحبالته ليعيد، فإنه لا يتحين فرصة الأخذ لمثله إلا عن عجز وفقر، ولا يتوصل إليه إلا بتبذل وجهد، وضع الناس عن التعرض له بسوء، وما له عليه بعد مزيد.

والإحسان في أربع:

التغافل، والتفاؤل، والتجاهل، والإمهال. فمن غفل سكنت نفسه ونامت وجهلت فأهملت، وهذا هو مختار العامة، فإنهم يكرهون علم الغير بحقائقهم، والإنكار عليهم في طرائقهم، فمن أراد أن يتكتم بالإحسان إليهم تكلف الإعراض

عنهم، والستر عليهم، فتغافل مكان وتناول مكان قائم، وتجاهل إذا علم، وأمهل إذا لم يهمل. ثم لم يقدر على هذا إلا بالتجرد عن الدنيا، فما بهم من صبر عن استباحة ما لا يحمي، ولا فيهم انتهاء من قبيح لا ينهي. وسبقى من على هذا الحال - أعني الحظوظ النفسية - فقيراً لا أميراً ولا وزيراً، ومع ذلك ناقضت رأي أميرك في كل تدبيرك.

وأما الأنيس فمائل إلى أربعة:

اللهو، والطرب، والسخف، والكذب.

أما اللهو ففي أربع:

الإسراف بملك الحال، والإعراض عن المآل، واستطراف الحاضر، ونسيان الغائب.

فمن لم يسرف إنفاقاً لم تكمل متعته، ولم يتم أنسه، ومن لم يعرض عن العقابة لم تصف مسرته، ولم تطب نفسه، ومن لم يستطرف الحاضر لم تقر عينه، ومن لم ينس الغائب لن يأنس قلبه. وفي الإسراف إتلاف الأملاك، وفي الإعراض عن المعية إشراف على الهلاك، وفي استطراف الحاضر بلا تجربة غبن ظاهر، وفي نسيان الغائب هجر واصب. وهذه خلال لا ترضى لمن أنس بالدنيا بالإخلال حتى يقلع العروق، ويقطع الأوصال، ثم يخرج عرياناً ويقيمه حزيناً مهاناً.

وأما الطرب ففي أربعة:

الشرب، والسماع، والنظر، والفكر.

فمن عشق أنس قلبه بالفكرة في معشوقه، وسخت عينه للنظر إليه، وطرب فلم يرض بالاختصاص فأطرب معشوقه بالسماع، ثم نشط من الشرب نفيّاً للحلالة بالشراب، فإذا روى سكر، وجاد وافترق، مع ما يعقل بعد. فمقام السكر عن كل طربه، ويصحب بعد الصحو ضغطاً لخماره مكان فرحه.

وأما السخف ففي أربع:

الخسة، والدناءة، والجهل، والحمق.

ومن لم يجهل لم يرض بالدناءة، ومن لم يدن لم يقر على الخسة، ومن لم يخس نفسه لم يأنس بالسخف، وتحت ذلك سقوط الحشمة، وذهاب الهيبة، وجراءة الخسيس عليه، والانبساط بالجواب إليه، وإنها لأسباب الوحشة، متى أفاق عن الدهشة.

وأما الكذب ففي أربع:

الملق، والنفاق، والعذر، والسفه.

فمن سفهت نفسه استحلّى العذر، فسبب له النفاق، وتمكن منه الملق، ونطق بالكذب، وفيها زوال ثقة العامة به، ونفرة الخاصة عنه، وبعد عن القلوب، وسقوط عن العيون، وإنها لكؤوس وحشة الأمير، لا يصحو على خمارها برأي الوزير، مع ما طمس أنوار حكمة السوداء، وآثار همة الصفراء.

وأما القديم فداعيك إلى أربعة:

فراغ القلب عن الاشتغال، واليد عن الأعمال، والظهر عن الأثقال، والسكون إلى الحال.

وفراغ القلب بأربعة:

نسيان الفائت، والغفلة عن الحاضر، والجهل بالغائب، والنوم الدائم.

ومن نسي ما فات لم يلحق بغرضه، ومن غفل عن الحاضر خرج عن يده، ومن جهل بالغائب لم يشتغل بطلبه، ومن نام فقد غاب عن بدنه، ويستنبه وهو يريد الدنيا جائعاً، وإلى ما في يد غيره نازعاً، ويشتغل قلبه بالسبب، واليد بالطلب، والظهر بالتعب، وينتقل عن الحال لدرك الأرب، فيعود على ما شيد بالنقض، حتى لا يبقى له أساس، مع ما خالف الأمير والوزير والأنيس، لما قاسى، فهؤلاء قوام فيك وقد تناقضت آراء كل واحد منهم في ذاته، مع ما ناقض برأيه صاحبه في إرادته.

إذا طلبت عاجله، ونازعت فيه طالبه، وتعاونت الآراء وتعاونوا، متى استدلت بها على تركه إلا بمنعه بمسلكه، فيترك بعلو همته الأيسر الحقير، على الخسيس، وبالغيرة القحبة المشروك فيها على الديوث، وكررت بالغلبة على نفسك بالغلبة إن عصتك، لتهون وسنها بالعدل إذا أساءت الأدب لتلين، ثم تصغي إلى آراء الوزير، فهو مصيب، ورأيه عجيب، فتتواضع للورى، وتحتمل فيهم الأذى، وتحتال لصيد نفسك وتوثيقها، محسناً إليها بعد أسرها في تثقيفها. ثم تصغي إلى رأي الأنيس، فما أنت في استعماله بمحبوس، فتلهو عما لا يعينك، طرباً بتثمير ما عنك، ساخفاً بمناك، كاذباً نفسك إذا حدثتك بطلب دنيا، ثم تصغي إلى رأي النديم، فهو عليم حكيم، فتفرغ قلبك عن الملاهي، ويدك عن العوادي، وظهرك عن المنن، راضياً بما يكون، فصار في كل ذلك نصيب التأديب، والسياسة لنفسك، ونصيب الترك والإيثار للناس.

فلا تقبلن القسمة بالهوى ودرك الحواس، فيتناقض عليك البناء بالأساس، بل امض على ما أريناك بالاستنباط والقياس، تكن الأمير عند ذلك وأنت بذلك مطاع، والناس بحكمتك لك أتباع، وبوزيرك اقتداء وأتباع ولقول أنيسك سماع، ولسمت قديمك أشباع.

- الدنيا في مقابلة الآخرة:

- الدنيا في مقابلة الآخرة: نموذج، وحجاب، وزاد، وحساب.
- ١ - أما النموذج فلأن الله تعالى لما خلقها سجنًا للامتحان، ووجدت للترغيب في المملكة والجنان، ولن تقع الرغبة بوعده شيء إلا بعد معرفته بالعيان أو القياس، ولا معرفة للنفس بالنعيم إلا من طريق الحواس، فعجل في السجن من أنواع الموجود ما يكون نموذجاً تحقيقاً لحكمة الوجود، ولولا ذلك لم يستقم كل هذا النعيم في دار المحنة، إلا أنها متى رأت نموذجاً لم تكن نعمة.
- ٢ - وأما الحجاب فلأن الله تعالى خلق الخلق لتمييز الخبيث من الطيب، بأوامره على الغيب، إذ لو كانت الآيات عذاباً ما عصاه عبد إيقاناً، وما غابت الآيات القاهرة إلا بالدنيا، فكانت حجاباً بين العبد والمولى، ولولا ذلك لكانت من النعماء، وما هو بجائز من الحكمة فالدار للابتلاء.
- ٣ - وأما الزاد فلأن الله تعالى خلق الجسم محتسبين في الدنيا، والأرواح مسافرين إلى العقبى بالجسوم مدة حياتها، وقرن الحياة بأقواتها، فخلق الدنيا زاداً ليتم معه حكم الحكيم، ولولاه لكانت الدنيا من النعيم.
- ٤ - وأما الحساب فلأن الله تعالى خلقها لتكون زاداً ومتاعاً زمان سفره، لا ملكاً وكنوزاً ليده، فصار في الدنيا بين أمر ونهي، والثواب في مقابلة الصواب، ولن يتبين ذلك إلا بالحساب، ولولاه لكانت ملكاً بلا ارباب.
- فكونها نموذجاً دليل على الترك من وجوه أربعة: النموذج للإرغاب لا للطلاب، وللدوقة لا للشبعة، وللرؤية لا للغنية، وللسالك لا للتاجر، لأنه لا يقوم للعرض إلا اليسير الدال على الكثير، الهين الذي لا ينقص من الكل ولا يزيد، وذلك تأويل قول النبي ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله تعالى جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(١).

فدل الحكيم عزت قدرته عباده بما عجل لهم من النعيم حال حبسهم للمحنة

(١) رواه ابن ماجه في السنن ج (٢) ص (١٣٧٧) والمتقي الهندي في كنز العمال ج (١٥) ص (٢٣٢).

على ما أعد لهم من جنسه حال جزائهم بعد ظهور الطيبة، فكان الموعد من المشهود على مقابلة صفتي العبد من الخبث في الدنيا والطيبة في الآخرة، وعلى مقابلة المملكة من السجن ليرغبوا بهذه في الآخرة التي هي المقصود، ويرموا بهذا فإنها مردودة لا تصلح للتجار لهوانها، إلا للمفاليس الذين ما عندهم للسلع شيء من أثمانها. فهذه أعلى وجوه الترك، فقد تركها استحقاقاً ترك التاجر النموذج القليل اختياراً على طوعية من النفس في تركه، ورغبة في الكثير ومملكه.

وأي عاقل يستجيز من نفسه بعدما صدق صاحب الشرع في أنها أقل من جناح بعوضة بالعقل أنها نموذج معروضة لن يرضى بكلها لنفسه خطأ، أو ينازع الناس عليها بعضاً فبعضاً، على يقين أنه غير آت على كلها، ولا قادر على أهلها، بل من عقل أدنى عقل سفه المنازعين في الجناح، ولو سلم له تركه للرياح.

وأما الحجاب فدليل عقلي من وجوه أربعة: فراراً عن استخفاف الحجاب، وأنفة عن مقام الحجب، ورغبة في دار المملكة، وشوقاً إلى لقاء الملك.

فلن ينجو المحبوب عن الأولين، ولم يظفر بالآخرين إلا بأخذ الحجاب للرفع دون الإمساك والنفع، فإن الحجاب لا يعدو الباب، ولا يلقي عنده إلا البواب، إلا أن يرضى بالمقام فيه، وما يرضى به الكامل، ولا يقف عنده العاقل.

فهذا هو الترك الثاني للوجه الفاني، فقد لزمك بغضاً، وإن ثبت لنفسك، فالترك لباعثة فيك فوق الترك لباعثة في المتروك، لأنه إذا كان لداعية فيك تركته قبل الخطرة، ومتى كان لباعته في غيرك لم تبصر بنظره، وتركت النموذج وهو معوض، وتركت الحجاب وهو محفوظ، فتركت النموذج وهو منبوذ، وتركت الحجاب وهو مأخوذ.

وأما الزاد فدليل على الترك إلا مع قدر المتعة من وجوه أربعة: جمعه، وتعب حمله، وخوف الكلال بسببه، والاستغناء عنه عند المنزل، فلن يحصل من الدنيا حظ إلا بعوض، ولن يحمل في السفر إلا بتعب، وخيف عند الزيادة هلاك الراحلة، وبقاء المسافر حسيراً، أو قصد اللصوص وصيرورته أسيراً، وإن سلم وفضل لم يطب فريد الأسفار مع نعيم الأمصار.

فهذا هو الترك التابع، فقد لزمك اضطراباً خوفاً من الهلاك وفراراً، والثاني لزمك اختياراً، وتركت فضل الزاد ومعك منه مقدار، وتركت الحجاب أصلاً وأنت مختار، وتركت الحجاب فكان مأخوذاً، وأكلت الزاد قدر ما كان محمولاً.

وأما الحساب فدليل على الترك من وجوه أربعة: حاجتك إلى طلب الصواب، وتحرير الكتاب، وإشهاد العدول، والإثبات عند القاضي يوم أنت

مسؤول، وإنها كلها ومضاء إلا أن تغفل يوم تسأل، فهذا هو الترك الرابع، وإنه لبعء التابع، فقد لزم ترك الزاد وهو للحال متعة لضرر في المآل، والحساب مما يجب تركه لضرر الحال، فما الأمر بمبني على الإغفال، وتركت فضل الزاد وهو لك، وتركت الحساب وهو عليك، وتركت الفضل وقد ذقت حلاوته وتركت الحساب وقد استشبعته مرارته.

فصل

في التجارة

ثم إنا قد عفونا لك عن هذه الخلال التي هي للترك في مقابلة الآخرة لخصال حميدة رزقها لجميع الحاضرة: فإنك أمين مشهود، تاجر كبير، حازم يقظ، سليم مجدود. فما يوصف التاجر بالكمال إلا بهذه الخصال، ولن ينال إلا بهذه التجارة جم الأموال.

فأما ما عند الملوك فغصوب، وما عند غيرهم فكفاف، وقد عفونا لك عن الزهد، فإنه عزيز على العبد، ومثلما اشتهرت بالأمانة فازدحم عليك الناس للتجارة، فتيقظت لها، وحزمت فسلمت عن الآفات، مجدوداً بالأرباح.

وإن أمانة التاجر في أربع:

في الصدق، والنصح، والحفظ، والرد.

لأن التاجر المشهور بالأمانة لا تخلو يده عن ملك ووديعة، وحكم الملك ما يزال عن يد المالك إلا به طوعاً، والوديعة ما يلزمه إزالة يده إلى غيره كرهاً، وعليه فيما يتصرف بحق الملك: الصدق والنصح، وفيما يتصرف بحق الوديعة: الحفظ والرد. والصدق في ألا يروج الزيف بثمن الجيد مدحاً، والنصح في إثارة المشتري على نفسه بأجود السلعتين عرضاً. وحفظ الوديعة في حفظها عن الناس أجمعين، وعن نفسه لصاحبها، والرد: إعادة اليد فيها كما طلب لطالبها.

عدنا إليك يا تاجر الدنيا ليلاً ونهاراً، وجامع أموالها أوقاراً وقنطاراً، أريدك فيما ظننت ملكاً لك احتوت على ما لا يزال عنك إلا بك اختياراً، وما يزال عنك دونك اضطراراً.

فأما الأول فما صرفت إلى مصالح بدنك مما دفع عنك شراً ينشأ عن باطن، من نحو الجوع والعطش والشبق والمرض، أو دفع شراً يلحقك من خارج، من

نحو البرد والحر وأنواع الضر، أو اكتسبت به جمالاً للعيون، من الحلى والزخارف والنجود، أو ادخرت جمالاً للنفوس بالإحسان إلى الخلق ومكارم الأخلاق.

فهذه أربعة أنواع من الوجوه تزول يدك عن مالك فيها باختيارك، فأنت فيها مالك، والفضل مما تزول عنه يدك إلى الوارث كرهاً يوم أنت هالك، فأنت فيها مودع، وذلك في قول النبي ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي، مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأبقيت؟»^(١) وما سوى ذلك فهو مال الوارث.

فإذا اقتصر ملكك مما في يدك على ما صرفته إلى حوائج نفسك دون ما بايعت به العباد، وضربت بسببه في البلاد، فعليك بالصدق لنفسك فيما تصرفه إليها، والنصح لها فيه بالكف عن ترويج الزيف، وترك الإيثار عليه، فإنك مبايعه بذلك وهو مبايعك هنالك، تؤتيه من مالك وهو يرد عليك في عوضه قوى يتوصل بها إلى جميع آمالك. وإن صرفتها إلى التحصيل فقد رددت على العيون قرة، وإن صرفتها إلى مكارم الأخلاق زدت على القلوب بالذكر الحسن مرة.

فهذه مبايعة تتحقق بها يد ملكك، ولا يزول عنك قهراً إلى غيرك يوم هلكك. فأصدق نفسك، ولا يتم الخبث بتملكه ترويجاً بقولك، من لسان بخلك، ثم انصح، فآثر بأطيب الأصناف عند الخلق، فما حرم الله الطيبات من الرزق. أتعجيز أن تتخذ الخبث ملكاً، والطيب ودیعة، وأنت في القسمة مختاراً؟ أم أن تغش نفسك بما تصرفه إليها من لباس وطعام، وتأخذ منه عوضه وما بك اضطرار؟

وأما الإحسان إلى الناس فمبايعة مع ربك عزّت قدرته، وذخيرة نفسك إذا أینعت ثمرته، فإن الله تعالى أمرك به وسماه قرضاً على نفسه، وضمن لك عوضه في الثاني بضعفه، فتخلص منفعة العائد ذخراً لنفسك في الأخرى، ما لغيرك فيها من جدوى.

فبأي عقل تتجاوز الغش في مثله، إلا لأن الله تعالى غافل عن أصله، أو لأنك آيس من خيره أو لرجل سحري علمك لغيره. ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَتِمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٧]. وقال: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. ألم يبلغك قول النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «أطعمين ما تكرهين»؟.

فإن لم تجد نفسك تجعل الكل ملكاً، فكن في الفضل أميناً، ولا تحفظ لنفسك فتصير ضنيناً، ولا تمنع صاحبه عند الطلب فتكون خوئناً، بل ظالماً لنفسك بتحميلها مشقة الحفظ والاسترباح، ولا محالة يأخذه صاحبه في صباحك والرواح،

(١) رواه أحمد في المسند ج (٤) ص (٢٤) ومسلم في الصحيح ج (٨) ص (٢١١).

فإن شق عليك حفظ مالك لغيرك، أو إثارك إياه عليك بخيرك، فاصرف الكل إلى مصالحك قبل نبذك حالك، ليصير الكل من مالك، فما يفضل عنك شيء ولو ملكت الدنيا ذهباً إذا صرفتها إلى معالي الأمور، وعملت فيها بمكارم الأخلاق، فإن البخل وإن كان مذموماً على كل حال، ففي حق نفسك أذى، والجود وإن كان محموداً بكل حال فبحال نفسك أتم.

كيف لو بخلت على نفسك فحرمتها طيبات الرزق، ولم تذقها طيب ثناء الخلق، وكنت حافظاً أميناً على شرطه، كنت فيه أخسر من المستودع أموال غيره، فإنه راجع بعهدة الحفظ على الأرباب، وأنت لازمك عهدة حفظه يوم الحساب، بل ذلك المودع حافظ بمنة وحسبة، فائز بثناء وثواب، وأنت حافظ بلا منة ولا احتساب بأي حساب أو عذاب، وإن شر المحتسبين من أتى به على سبيل الاكتساب، فيحرم للحال فائدته، وفي الثاني عائدته.

فما لك وجه إلا أحد طريقين: احفظ الفضل على سبيل الحمية، فيسلم إلى صاحبه إذا جاءت الطلبة، فتصير يدك صفراً. أو الأخذ على سبيل الملك فتصرفه إلى وجوهه، فتبقى دون الدنيا فقيراً.

فإن قلت: لعلي أعيش فأحتاج. فقابل بعد شبعتك توهم حلول جوعتك، بما تخاف أو ترجو بعد صرعتك، ثم اعمل بأهم الأمرين حلولاً، وأخوفهما نزولاً. أليس قد أمنت شر الجوع إلى عشائك، ولم تأمن الموت متصلاً بغذائك؟ فما كان لصدق رأيك، تبخل بما تحتاج إليه بعد الصرعة لما تحتاج إليه بعد الجوعة، وقد أمنتها ولم تأمن الأخرى، مع أن حاجة الجوع تزول بمال غيرك، وحاجة ما بعد الموت لا ترتد إلا بما قدمت من خيرك.

فإن سامحت نفسك وقلت: الغالب أني أعيش يوماً، فأنت مغرور. فما لك تبخل من نفسك بقوت الشهور؟ وإن سامحت نفسك وقلت: الغالب أني أعيش شهراً أو سنة، فما لك تبخل بحفظ قوت الدهور؟ ما نراك ترجع في حفظك إلى ما ترضى به القلوب التي في الصدور.

ما بقي لك إلا أن تقول: الجوعات في العادات تترادف في العمر، وعلى العادات الغالبة ما يبنى الأمر.

فنقول: أليست العادات الغالبة أن المرء لا يعيش فوق كل أقرانه، ولا يختص بعمر زائد على أهل زمانه، فعد سني أقرانك، وعامة أهل زمانك، واحفظ ذلك القدر، وأنفق البقية إن صدق الأمر.

وإننا لنراك وقد أضعفك المشيب على حفظ وإمساك، عجب لم تكن عليه وأنت صبي، ومدة حياتك مديدة، وشباب شهواتك شديدة.

أوردها على الأولاد، فإنك تحفظها لهم فهم أكباد، وإنك تنازعهم إذا طمعوا في قليل منه نزاعاً عظيماً، وقديماً كان الملك عظيماً، فما أنت في ملكك إلا سفيه، وفي وديعتك إلا خوون، وإنما كلمناك على أنك تاجر أمين.

وأما التجارة فمحتاجة إلى اختيارات أربعة: اختيار السليم عن العيب إذا اشترى، واختيار المليء الوفي إذا أسلم أو دأين، واختيار الأمين إذا أودع أو أبضع، واختيار المأمّن إذا سافر تاجراً، أو جهز مضارباً.

وإن رأس العيوب آفة الفوت، فما دونها ينقض البعض، وهذه تأتي على الكل، فليشتر التاجر الجيد الاختيار ما يأمن هلاكه، وليجمع من هذا الجنس بجنس التجارة أملاكه، ثم ليختر إذا أسلم ولم يصل إلى ما يبقى من لا يخاف عجزه عن الإيفاء، فعسى العجز يضطره إلى مماطلة في الأداء، والضرورة تحمله على إنكار القضاء.

فإذا ظفرت بمن أمنت عجزه، فأسلم عليه وداينه بما شئت، واعتمد ما لديه، فقلما يكافئك القادر على حق، أو يقابلك بمطل. ثم اختر لوديعتك وبضاعتك - إن لم تحد من قدر في كل وجه - من لا يحتاج إلى ذلك القدر، فلعل الحاجة تطمعه فيها، وعسى. فإن اتفق لك ذلك أبضعته وأودعته غير خائف، فليس المستغني عن شيء من كل وجه بمشتغل به عن قلب غافل.

وإذا سافرت أو ضاربت لم تتيقن بالمأمّن، فاختر موضع غوث، وتناصر وعون على الحق، يحكم لك بوجوده يقيناً الصدق. فقلما يقطع عليك الطريق، حيث عليه من الرصد فريق.

فهذه إباحات لك بالتجارة، خارجة عن وجوه الحزم، منبئة عن حسن النظر، وغلبة الوهم، فرب غوث يلحق التاجر، ولكنه عاجز غير ناصر. ورب غني عن شيء مشتغل به عبثاً، وفاعل سفهاً. ورب مليء مماطل، وقادر متكاسل، ورب باقي حقك معيب، وسهم مرمي غير مصيب.

ومع ذلك ناهيك عن التجارة إلا مع المولى جلّ جلاله، فما في الدنيا حظ يرجى دومه، ولا مداين فيها يؤمن عجزه، ولا مثبت يده على ما يتيقن بغناه عنه، ولا طريق لم نشك في غوثك فيه إلا أن تشتري به حظاً من الآخرة، فحفظوها سليمة عن العيوب باقية.

وتسلم إلى المولى جلّ جلاله، فهو القادر الذي لا يوصف بفقده، وتجهز مالك إلى العقبى، فإن الله تعالى عونك، ضامن رده عليك بأرباح، وما بينك وبين الالتحاق بها غير صباح أو رواح.

وأما الحزم فناهيك عن البناء على غالب الظنون، إلا أن تقطع الشبهة باليقين في أنواع أربعة: هي التي تقوم بها التجارة، وتسد أبواباً فتحناها عليك بتلك العبارة، حتى لا يبقى للوهم مجال في ترخيص التجارة مع أهل الدنيا، إلا التسليم أو الإسلام إلى المولى جلّ وتعالى، فذلك الحزم، والأمر العزم.

وأما السلامة ففي أربع:

سلامة الصفقة عن الخسران، والعوض عن الحدثان، واليد عن فقدان، والنفس عن الحرمان. فاختر إن عاقدت من يستكثر قليلك مرحمة عليك، ويستقل كثيره كرمًا وإحساناً إليك، واختر لرأس مالك عوضاً لا تناله الآفات السماوية، ولا يزول عن يدك بالأحوال الاختيارية، ولا تحرم متعته بعوارض نفسية. وإنك لن تجد في الدنيا من أبنائها من يتجرك إلا مستريحاً ولا تأمن معه الخسران، ولا تنال عرضاً إلا مرهوناً بالإقرار عرضاً للحدثان، مع ما أن للعبيد إباقاً عن يدك، وللحيوانات ضللاً عن قيدك، وللسرائر اغتصاباً عن يدك، إلى بخل فيك، وسوء اختيار، يمنعناك التمتع به مع القرار.

فمل إلى صفقة هي طاعة، ومعاهد هو رب الساعة، وخالق الجماعة، ما عاقدك إلا ليظهر لك إحسانه وجلاله، ولا كونك قبل أن عاقدك إلا لتعرف كرمه وأفضاله، فيأخذ منك قليلاً مما ليس لك إلا عارية منه بكثير، ليصير لك خالداً من لدنه ولا تصيبه آفة، ولا تحول بينك وبينه مسافة، ذلت قطوفها لمتعتك، وخلدت لقضاء شهوتك.

- شهوتا الباطن وشهوتا الظاهر:

لا تدع أيها الأخ اللطيف لسان التأليف إلى لسان التعنيف، فقبیح ترك الإنكار بعد التعريف، إلى كم هذا الكلام، كأني بين نيام موتى، لحوم وعظام، أما إنك عبد أسير شهوات أربع: شهوتي باطن: الفرج والبطن. وشهوتي ظاهر: مما تراه العيون من الزينة، وتعيه القلوب من نفاذ الأمر في طاعة مبتلى بها من الله تعالى بأربع ضواها: المعرفة، والإيمان، والإحسان، والإسلام.

والإحسان والمعرفة: علمك أن الله تعالى واحد لا شريك له.

والإيمان: تصديقك.

والاعتقاد: حجج الله التي أوجبت العلم به.

والإسلام: تصديقك الله تعالى، باستسلامك لأوامره ونواهيه بحسن الطاعة.
والإحسان: في ألا تشغل قلبك إلا بشكره، ولسانك إلا بذكره، وبدنك إلا بعبادته، وسرك إلا بذاته، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان، والله قد أحسن إليك ابتداء بتخليق قلبك وتنويره، وانطلاق لسانك، وإقدار بدنك بعد تصويره، وآراء سرك ملكوته بنوره.

وعلامة المعرفة: الشكر على جميع أقسامه، فلا يجده العبد بعد أن عرفه إلا محسناً بحكمه.

وعلامة الإيمان: الرضا بكل أحكامه، فلا يلزمه منها - وقد صدقه - إلا عائداً عليه.

وعلامة إسلامه: الصبر على الشهوات عند ترادف المصائب، فلا يلقاه إذا استسلم إليه إلا مريد شفاء بدواء، أو مقيم بقاء بغذاء. فإن لم تصبر على شهوة أكلك، نكست في عللك، وإن لم تصبر على شهوتك لم تعد إلى صحتك.
وعلامة الإحسان: الجود بقدر الإمكان. فمن أحسن إليك فخلقك، لا يقتلك جوعاً، وسيرزقك.

فالمعرفة والإيمان في مقابلة شهوتي باطنك. والإسلام والإحسان في مقابلة شهوتي ظاهرك. فمن ملأ قلبه معرفة لم ينل المرأة سكناً، ومن روي من شراب التصديق لم يجد من الخير شبحاً، ومن رأى سربال الإسلام لم يلتفت إلى سراويل أهله، ومن عرف وجوب الإحسان عليه جزاء لم يعمل معجباً بفعله.

قال الأخ: كلام حسن، لولا أنه خلاف الشريعة، بعد أن كان خلاف الطبيعة، فإن الله تعالى أمر بالنكاح، ونهى عن البسط كل البسط، وأمر الرسل عليهم السلام بالتصرف في الدنيا، وولاهم أمور الورى.

قلت: بشر الله تعالى عبداً سمع القول فاتبع أحسنه، وما أوله على باطنه، أما علمت أنني لم أقصد بما ذكرت إلا معاملتك مع ربك عزت قدرته على سبيل العزلة، كأن ليس معك أحد سواه، وذلك فيما بيناه.

فأما إذا آل الأمر إلى الجمع بين معاملة الله بالتصديق على سبيل العشرة مع الخلق فلا بد من النظر في أربعة: نظر لخاصتك، ونظر لأهل زمانك، ونظر للنسل، ونظر للمال. والأنبياء عليهم السلام كانوا قدوة الخلق دعاة، ومتبوعين هداة، فما كان لهم بد من موالاته الله تعالى على سبيل العشرة مع البشر،

واستجماع هذه الوجوه من النظر، فعندها تمام الابتلاء، وفيها تظهر مراتب الأنبياء، فيكون النبي عليه الصلاة والسلام مع الله تعالى في خاص ما لزمه كأنه لا شيء سوى الله، ومع الناس كأنه لا حظ لنفسه، ومع النسل كأن الله تعالى ما علق حكم وجودهم إلا به، ومع المال كأن الله تعالى ما علق الوجود إلا بغيره، وكأنه ممن لا يحظى بخيره.

فإنه متى رأى مع الله تعالى غيره لم يأمن الشرك عقداً وفعلاً، فلا أمان إلا في العمى عما سواه عيناً وقلباً.

ومتى طلب من الناس حظاً لنفسه كان ناظراً لهم ولاحظاً، والله تعالى ما ابتلاه بهم وبترك التحلي بعبادة الله تعالى خلقه إلا ليهدبهم إليه مجاهداً في الله بصدقه.

وأما النسل فالله تعالى علق وجودهم بالمياه التي في الأصلاب والأرحام، ولا بد للعبد من إقامة حكم الله تعالى، وإنه لباب لا تجري فيه النياية بين الأنام، فما يتصور ولد علق بماء الآخرين، فكان البدار إليه أولى من التفويض، لحصول النسل بسائر الناكحين.

وأما المال فمعلق بأسباب تجري فيها النياية، من التجارة والزراعة، وبغير أسباب كالأشياء المباحة، فكان التفويض إلى الغير أولى من توليها، لوصوله بغيره إلى معانيها.

وأما رسول الله ﷺ فما نهى عن البسط إلا لاحتباسه في بيته عن حوائج الإسلام وأهله، لا لافتقاره بذلك البسط عن ماله وملكه، وما للداعي صلوات الله عليه أن يشتغل بما يخل بالدعوة، وإن كانت حسنة خاصة، فالدعوة حسنة عامة، وإنه لمقام عزيز.

وإنما دعوناك إلى العزلة فهي المقام اليسير - لتفك روحك بما دعوناك عن وثاق نفسك، ثم تقبل على فك الوثاق من غيرك، فإن الصعود إلى الذرى بدرج، والفكاك عن أسر الهوى بحجج. فإن شق عليك التخلي فعليك بمقام العامة، بين خوف ورجاء، ولا تقم بين مغالبة ورجاء، فهلاك العامة في ذلك والعياذ بالله من اشتباه المسالك.

فقال الأخ: إن المسالك إذا اشتبهت ضل فيها بدون الأميال السالك، ومن مل فهو الهالك، فما الأميال على هذه الطرق من الأمثال.

قلت: التوفيق من الله تعالى لبيان الطريق.

أما علامة الخوف: فالامتناع عما قصدته لشر عرفته، فمن لم يمتنع دل على عدم، أو خطأ الفاعل لسفهه، فما يقع خوف بلا حذر، والخوف بلا نفع سفه.

وعلمة الرجاء: الإقدام بحسن الظن على المقصود، ملابساً فيه سبب الوجود. فمتى لم تقدم فررت أسي، ومتى لم تلابس السبب أقدمت متمنياً أو هازئاً. فتارك البعض خوفاً، والمقدم بملابسة البعض رجاء بين خوف ورجاء.

أما علامة المغالبة: فالإقدام على المراد وإن خاف شراً على المعتاد.

وعلمة الرجاء المذموم: رجاء الإصابة دون المنهل الشروع. فمن أطاع الله تعالى ولو بواحدة بعد أن كانت صحيحة رجاء ثوابه، وفر عن معصيته ولو واحدة خوفاً من عقابه، ثم أقام يرجو ما عمل، ويخاف عقاب ما فعل، فهو من الراجين والخائفين.

ومن قال: نلت الدنيا، ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً، وهو خليع بسبب ثواب الآخرة عقداً وفعلاً فمغالِب ربه طلباً.

ومن قال: آمنت بربي عزّت قدرته، فلا يعذبني بمعاصي، وأن أنزجر ندماً فمرجئ قصد الحلول بالمنزل ولما يقصد له سبباً.

ألا إن المنهل البعيد ما عليه ورود وإلا بعزيمة صحيحة، وسير شديد، وسوق قوي، ألا وإن المنهل: الجنة، والعزيمة: الإيمان، والسير: الاستقامة، والسوق: بالمخافة. وما للعازم بغير السير وصولاً إلا من طريق الكرامة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَكُ﴾ [فصلت: ٣٠]. وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فالكرامة من الله مرجوة، وليست بمحكومة، إنما حقك العدل، وما يأس عن الفضل، تعالى الله من قادر لا يخاف إلا عدله، وقاهر لا يرجي إلا فضله، وحاكم لا يستحقه إلا أهله، له الحمد وله الثناء، ما اتصفت الأرض وارتفعت السماء.

فصل

في العامل

قال الأخ: إنك أدام الله توفيقك لإصابة الحق، وإرادة الصدق، قد بالغت في معاملة الدنيا على سبيل العزلة فيها والخلوة، وما لكل إنسان على ذلك قدرة فيبين لنا وجوه المعاملة على سبيل المتعة بها والعشرة.

قلت: إنه باب اتسع حتى لم ير سالكوه في كثرة، ولقد وصفت لك منها فيما مضى وجوهاً جمّة، ولأزيدن لك من البيان طرفة سينجو بعملها متأملوها عن فطنة.

إن المعاشر بين أقسام أربعة:

غاش، ومحتال، وناصح، وناصر. فالأولان طالبا الدنيا، والآخران طالبا الأخرى، ومعاشران للمولى.

١ - أما الغاش فله أربع خصال:

استرسال، ولباقة، وحسن الإجابة قولاً، والخلف فعلاً. لأنه غاش للناس ليسلموا إليه دنياهم، وإنها لمعشوقتهم، وغاية مناهم، فإذا لم يغالبهم عليها لم يكن بد من استرسال إليهم متصنعاً ليقبلوه، ثم لباقة مرئياً ليحبوه، ثم حسن إجابة أبدأً ليعهدوا إليه، ثم الخلف إذا ظفر بمعشوقتهم حال التفويض إليه، وقد أتعب بدنه بتحملة أسباب الغش، وما له عنها من براح، فقد روج عليهم، وما يروج المطل إلا بمقدمات وإصلاح، مع ما يخاف قلبه في صدره عاقبة أمره.

فلا يزال يعيش عليها خائفاً تعباً ذليلاً، حتى يحل به الموت حلولاً، وقلبه فقيد الأنس بخوف العاقبة، وجسمه فقيد الراحة بأسباب واجبة.

٢ - وأما المختال فله أربع خصال:

الإطماع، والإغراء، والتخويف، والإيذاء. لأنه غاش للناس ليسلبهم معشوقتهم بقلبه، وهو جزء من كلهم، ما له عليها من قدرة، فيميل أولاً إلى الحبة، فيطمع الناس فيه، ليصير له تبع، ثم يغريهم على الآخرين، فهو للعداوة سبب، حتى إذا بدت بينهم العداوة والبغضاء خوف من خالفه بإزاء قوة من تبعه ووافقه، لينزجروا عن شره انزجاراً، فيسلبهم المعشوقة عند ذلك جهاراً، لكنه سلب قلبه الراحة بأسباب الحيلة، وما لتركها وجه، فقد أثر الجملة، وما له منهم من أمان، حتى تخفيه عنهم يد الحدثان، فهذا أهد قلبه نصباً بنصب حبال الحيل، وحمل خوف عاقبة الحيلة جملة أعياء مغالبة الحمل.

٣ - وأما الناصح فله أربع خصال:

وقار، ولين، وإيثار، وصدق. لأنه عاشر العبيد بمعنى المولى، ليميلهم إليه عن الدنيا رحمة عليهم في قنوعهم بالسجن عن المملكة، وبالدواق عن الشبهة، وبالمرض عن الصحة، وكان ذلك اختباراً، ورثهم إياه آبائهم، وورثوه أبناءهم، فصار عقده لهم طبيعة، وزاد مخالفه شريعة، وإنه طيب قصد شفاءهم بدواء منه تنبو عنه العين والصدور، وما رام سقيهم إياه بقهر، فلا بد له من وقار بعلم،

ليصير منظوراً إليه في لين، وليكون مرغوباً فيه، ولا بد له من إثارة ليصبح محبوباً، وصدق فيمسي مقبولاً، فيستريح لسانه عند ذلك عن المحاجة، وقلبه عن الملاجة، ويكون شمس يومه، وبدر قومه.

غير أن العبد لا يثبت على وقار في عشرته مع الناس، فهو على أطوار، لا يصحبه على اعتقاد الغدر منهم، حتى لم يستفزه على أصل الأمر إن جوزي على إحسانه بالشر، وإن ندر منهم وفاق إحسان في جزاء عده ربحاً، وزاد لهم بسببه نصحاً، ولن يلين لهم إلا بعد اعتقاد منة الله عليه بأن خصه بفضل رجوع الناس بسببه إليه، ولن يدوم على الإيثار إلا بالعمى عما دون الواحد القهار، ولن يوجد على الصدق إلا بمشاهدة.

٤ - وأما الناصر فله أربع شمائل :

العدل، والإحسان، والثناء، والقوة. لأن هذا عاشرهم على أن يسقيهم الدواء قهراً، ويشفيهم طوعاً وكرهاً، وما له يد عليهم، فهو فرد، والناس كلهم على ضد، إلا أن يعدل في سيرته، ليأمن الناس شره فيرمقوه، ثم إحسان فيميلوا إليه ويعشقوه، ثم ثبات عليه للشكر وافي محبته، ثم القوة ليرد على السفية، ويتنصر للضعيف، وليستتبع الناس بسلب قلوبهم، ويعز مطاعاً بين ضروبهم، ولن يقدر على العدل إلا بالغفلة عن حظه بحظوظ الناس، ولا على الثبات إلا بالغفلة عن نفسه بالمولى.

فعليك أيها الأخ بالنصح للورى، مكان الغش لمعنى الدنيا، ونصرة المولى مكان الحيلة الأولى، فما الغش والحيلة في العاجل بمثمريين إلا تعباً وهلكاً، ثم عذاب الخلود، وما النصح والنصرة إلا موليين للحال أنساً وعزاً، ثم نعيماً لا يبيد.

أيقظ الله تعالى نواظر قلبك، ونور مشاعل لبك، ومهد لك سهول النصح والنصرة، ووعد عليك عقاب الغش والحيلة، فما التوفيق لنا إلا بالله، عليه توكلنا، وإليه ننيب، وما التضرع إلا إليه، فهو الوهاب السميع المحيب. ونسأله أن يصلي على رسوله محمد وآله، فقد هُدينا بأقواله وأفعاله، ولزمتنا شكره إلى الله شكراً لله على أفضاله.

كتاب الميزان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل الكتاب والميزان بالحق ليقوم الناس بالقسط، ثم وضعه ليوم الحساب لئلا تظلم نفس شيئاً في ثواب أو عقاب، فبدأ جلّ جلاله الأمر به، وختم عليه، وأشار في كل الأحوال إليه. وبعث الرسول الخاتم بالدين الميزاني، والميزان الفرقاني، صلى الله عليه وسلم تسليماً، وعلى آله وكرم تكريماً.

فسبحانه من ربّ جليل، جعل الدنيا للميزان كفة، والآخرة كفة أخرى، وما في الدنيا كلها مما تشتهي النفس سنجات الميزان في كفة الدنيا، وجعل علاقاتها مدركات الحس، وشهوات الطبع والتقوى عينها، والطاعة لله جلّ جلاله بمنزلة الذهب المصنّف، والدرة الكبرى، وجعل علاقاتها موجبات العقل، ومسموعات الشرع. وجعل الجسم عمود الميزان، والنفس لسانه، والقلب منجمه، والروح وزانه، فبين اللسان والعمود والسنجات تجانس وازدواج، وبينهما وبين الذهب مباينة مكاناً، ومفارقة معنى وعياناً، وبين اللسان والمنجم اتصال بحيلة في مجانسة، وبين الوزن وصلة مجاورة.

فلا يزال هوى اللسان في الميل إلى كفة جنسه، نحيلاً للعمود الحق من نفسه، ولا يزال الوزن يأمر العمود بالعدل، ويثبت على اللسان بالمنجم الميل، فقد عرف أن معدنه ما بين جانبيه، وقد بان في ميله إلى السنجات بحافتيه، والعمود وجهه إلى السنجات في مثل حال اللسان، يرى تجانس ما بينهما معرضاً عن الوزن، غافلاً عن فراق المنجم الذي هو العلم على الحق، والشاهد بالصدق.

فإن غلب اللسان وصم عن نداء الوزن طفف وزناً، ونال من المنجم عليه عوناً، والوزان في ندائه يقول: أيها العمود، ملت مع اللسان تظن أنه الداني، قف، فما أنت في مذهبك إلا غالٍ، أما تراه لا يقدر على مقصوده من التطفيف إلا بك، ولا قدرة لك إلا بحيلة من المنجم، أفلا تعلم أنه أولى من اللسان بالائتمار؟ أما لك من استبصار؟ واللسان ما هو إلا كاذب، فما أنت إلا مني، وما لنا في غير السنجات من نصيب.

وليعجب العمود كلامه، فبينهما اتصال قريب، فإن خذل ولم يلتفت إلى المنجم وغفل عن الميل مالا إلى السنجات لتكون الرؤية وصالاً، ومالا على أنهما لم يركبا ضلالاً، فلا يزال يهوى مطففاً طمعاً في الوصال، وما لهما ذلك إلا بعد مفارقة الوزن، وعندها يبطل الوزن، ويخلو عن السنجات الميزان.

وإن وقف العمود لالتفاتة إلى العدل وأبصر المنجم، ووقف على الميل أمسك عن مساعدة اللسان، ورجع واللسان تابعه إلى قول الوزن، إلى أن يقوم الوزن بالحق ثم بالرجحان، إلى أن لا يبقى للكفة الدنيا قوة تحريك لكفة التقوى، ويبقى اللسان أسيراً تحت رأي الوزن بعد أن كان أميراً.

والمنجم في الأحوال كلها على اعتداله يعرف فعل اللسان في تردده وانتقاله، فصارت الأحوال للسان وهي النفس أربعاً:

١ - حال غلبة واستعباد للجسم، فهي النفس الملكية، تأمر وتنهى، ما تأتئها معارضة من جانب التقوى. قال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوًى أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

٢ - ثم حال تيقظ الجسم في رجوعه عن عبودية النفس إلى أمر الروح برأي القلب، فهي النفس اللوامة تلومه في رجوعه وتعاتبه على خضوعه. قال الله تعالى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ﴾ [القيامة: ٢]. فيحتمل هذا الحال.

٣ - ثم حال يوم القيامة.

٤ - ثم حال تمام يقظة النفس وسكونها عند طاعة الروح في النفس الأمانة بالسوء.

فاللسان في تلك الحالة أشد ما يكون اضطراراً، فقد قام في العدل، فما انقطع بعد طمعه عن الميل. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشُّوْرِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]. ثم حال رجوع الجسم، أي: طاعة الجسم في الإرجاح، والميل إلى ما فيه النجاح، فهو النفس المطمئنة، لفقدتها قوة المعارضة لسكون الجسم إلى الذهب الذي أخبره الروح بخبره، فقد تجلى له إذ مال إليه بمنظره، ومن ذا الذي أبصر الحديد ثم أبصر النضار فمالت عينه إلى الحديد عن اختيار، قال الله تعالى: ﴿يَتَأَيَّنُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٩]. فهذا تفسير الميزان بالحق، والوزن لله تعالى على العبد، وهو مخاطب بالأداء، والله الضامن للجزاء.

أم أنت عميت عن الذهب بالحديد، فلم تر فراقه برشيد؟ أما علمت أن السنجة توضع في الكفة ليوزن بها الذهب ثم تحرر، إلا أن السنجة معيار، ما لها

من مقدار، وما صنع لها الميزان، ولا جاء لأجلها الوزن، وما لك بها من متعة إلا قدر ما تصل إلى الساعة، فلا تفنين عينها، فلن ترد بها الجوعة، ولا تنال بها الكسوة، بل ارض بها إن أعطيت الذهب بغير الوزن فهو المقصود، وإلا فزن بالعدل فهو الطريق المورودة.

أم أنت صيرفي . . . إذ عرفت الموازين بحقائقها، ووقفت فيها على طرائقها، وجمعت بالميل إلى السنجات من الذهب كثيراً، وكنزت بالموازنة كنزاً كبيراً.

أما علمت أن هذا ميزان البعض؟ ولكل بعض كلام، غفلت بالفرح عن الأصل، أم نفسك ملكة، زينت الحديد بقرب النسب، وأغفلت عن الدر والذهب، فما أحرزت لو حققت إلا حديداً، ولن تنال إذا رجعت عن الوزن إلى الدار عيشاً حميداً.

فالحياة الدنيا يوم وردك والعقبى. ولن يصحبك إليها ما جمعته بأيامك، بل تبقى حيث كان الوزن، ثم النفس المالكة نفس الكافر الجاهل، والنفس اللوامة نفس الكافر العالم، والنفس الآمرة بالسوء نفس العالم المؤمن، والنفس المطمئنة نفس المقل العامل.

فمتى جهل العبد ربه جلّ جلاله اشتغلت نفسه في استعباده عن ترغيب وإنذار، فما عرف لمتعته غير هذه الدار من دار. وإذا عرف ربه عزّت قدرته إحتاجت النفس إلى اللائمة، وقامت عليه تنذره وترعبه، قائمة تلبس عليه بطريق آبائه، وبضعف حاله، بخلاف نظرائه يوم القيامة على كفره فهي اللوامة أبداً.

فإذا أقر العبد بما عرف، فكذب النفس فيما افترى واقترف، كان عدلاً، وغسل ثوبه من نجاسة الكفر غسلاً، يرى الدنيا بالعين، والآخرة بالقلب، والنفس معزولة لم تغب بعد عن مكان الولاية، فظلت أماراة بالميل تحت إقامة العدل، أو أماراة بالسوء في تلقيه الخير، وترية العجب، وتزين له الرخصة، وتوقعه في البدعة إن عجزت عن التصريح، تبعاً على القبيح، رجاء أن يعود إليها بجد وعناية تدعوه إلى الغواية بلسان شرع وهداية، فإذا عمل العبد بما اعترف، نادماً على ما جار وأسرف، جاء حال عمى العين عن الدنيا، ومشاهدة القلب الحق بالآخرى، وإذا النفس مستحصنة على الولاية بجنود، مأسورة في قيود، فكانت مطمئنة ليأسها عن الفكاك، مطيعة للروح مخافة الهلاك، فإنها تتساقط السنجات، ويخلص الذهب بلا وزن، وتصل إلى المقصود بلا ظن.

فإن لم تقف أيها الأخ على هذا الميزان بالاستدلال، ثم حال النفس المالكة

على لسان السفر يسمى حال نوم، واللومة حال يقظة، وحال الأمانة بالسوء حال مسير، وحال الطمأنينة حال الوصول. وذلك لأن نفس الكسلان في السفر تقضي منيتها إذا نام المسافر، ومتى تيقظ للمسير خوفته بالليل، وصعوبة الطريق، ولامت على القاعدة الرفيق، حتى إذا سار إلى القافلة أمرته بالوقوف، وأملته النجاة والراحة في العكوف. حتى إذا وصل إلى المنزل، واستطاب المنهل اطمأن.

وعلى لسان الطب تسمى الأولى حال شهوة، والثانية حال مرض، والثالثة حال دواء، والرابعة حال شفاء. لأن الشهوات لا صبر بها على الوجود عن الإسراف، حتى يخامر المرض فيندم حال ضعفه على سرفه، والنفس تلومه على هذا الفرض تقول: قوامك بغذائك، وباقتضاء الشهوات تصل إلى شفائك، وما تلفك إلا في دوائك، إنما هذا هيج طبيعة لها، وكسوف طبيعة لا فرار عنه. والطبيب يذكره عاقبة ما جرب أمراً يحميه، وبشربة من الدواء قرببه الطبع عن رائحتها فرار، وما للنفس على مرارتها اضطبار، حتى إذا أيقن بفساد حاله شربها طلباً لاعتداله، فقامت النفس مضطربة في ضعفها، تأمر بتناول الغذاء، وفي عطشها تشرب كل ماء، والطبيب يذكره الداء، ويؤمله في الصبر الشفاء. حتى إذا صبر وشفي وقويت طبائعه اطمأنت، وزالت عنه فجائعه.

وعلى لسان الدين تسمى الحالة الأولى حالة فعله، والثانية حالة إجابته، والثالثة حالة رفض والرابعة حالة قبول. لأن الجاهل لا ينعم وإن ملك الدنيا بحذافيرها إلا إذا غفل عن أحوال الحكماء، ومراتب العلماء، حتى إذا حركه عقله عن نوم غفلته، ودعاه إلى التأمل في خطرته، أقبلت النفس لائمة على سماعه، والعقل يحركه عن مهاده ببيان الدعوة، ويمزجها بالشرعية، حتى التفت إليه ليراه رأي تلك المراتب، وعين ما لديه من المواهب، فاحتار والنفس في اضطرار، ما لها قرار، حتى لما استحكمت الإجابة، وتمت الإصابة، اطمأنت النفس عنده، وحمدت هنالك رفته.

فالحالة الأولى للتراب، والثانية للسلالة من طين، والثالثة للاعتدال القابل للتصوير، والرابعة للصصلال الذي تم تصويره، فما التراب بمدعو للبناء، وإنما دعي حين مزج بالماء، لكنه غير قابل للصنعة حتى يعتدل فلن تحكم الصنعة حتى ييبس، وما ذلك من الله بعجب، له الحمد، وإياه أسأل التوفيق فهو السميع المجيب.

قد ذكرنا لك من حكم أصل الفطرة بتوفيق الله ما صار ليصير به غيره يهتدي

بها ذوو التأمل بالعقول، ويضل عنها ذوو الغفلة بالتأمل، ولسنا وإن تقصينا بمستقر أصلها بفرعها، ولا بمستنبطين جنسها بنوعها، فقد جبل العبد على العجز والجهل، إلا ما أتله الله من الاقتدار والعلم، وسنذكر بعد هذا من أقسام الناس في الاعتقاد إن شاء الله ما لا يخلو عنها عبد، ولا يعدوها من أحد فضل، وبالله التوفيق، والله الحمد.

كتاب أقسام الناس في الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لمن خلق الخلق أطواراً ليعبدوه إعلاناً، وخلق الجزاء جنّة وناراً، وما ترك بعدهما للعالمين بعد الحياة الدنيا داراً وعرفهم الطريقين بالعقول، وألزمهم الحجة على المعرفة بالكتاب والرسول، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

والصلاة والسلام على من تمت به الدلالات، وختمت به الرسالات، واختير سيّداً لمن مضى من الأئمة، واختير له من الناس خير الأمة. فقال جلّ جلاله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فوضع الله تعالى عنهم في الدنيا الأغلال والإصر، وضاعف لهم في الآخرة الثواب والأجر، وقال جلّ وعزّ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقال عليه الصلاة والسلام: «فكنتم أقلّ عملاً وأكثر أجراً»^(١). وبين لهم صدر المجالس في دار الخصومة بالوساطة ثم أكدّه لهم في دار الحكومة بالشهادة فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. حكمة من الله تعالى بالغة، بحجج من لدنه واضحة.

ولست أيها الأخ - بعد ما تلوت عليك من كتاب الله ما يجب له التصديق - بمطمئن قلباً إلا ممّا يوجب التحقيق من المعقول الضروري، والدليل الفوري، وذلك في معرفة أقسام الناس ومنازلهم، وأحوالهم في خصائلهم، فنقول وبالله التوفيق:

إن الحكيم القديم الذي خلق الخلق من أربعة عناصر، سلكهم في أربع طرائق، فكانوا: صديقين، وفاسقين، وجاحدين، ومنافقين.

فالصديق: المطيع عقداً وفعلاً، والفاسق: المطيع عقداً لا فعلاً، والجاحد: العاصي فعلاً وعقداً، والمنافق: العاصي عقداً لا فعلاً.

(١) رواه البخاري في صحيحه.

فصل

في الصديقين

الحمد لله الذي اصطفى رهطاً من أولي الألباب، فخصهم بوراة الكتاب، وقادهم بنوره إلى الطريق، كما يقود الأعمى الهادي الرفيق، حتى استقاموا على سواء السبيل، وساروا إلى المنزل بين قائد ودليل، آمنين عن الضلال، وحلوا المستنخا الرحب، والمكان الخصب، مطمئنين تحت الظلال. والصلاة على السراج المنير، البشير النذير، وآله الطيبين المقتردين بأقواله وأفعاله.

إن الصديقين أربعة أقسام:

الأنبياء صلوات الله عليهم، والأولياء، والمقتصدون، والظالمون. قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]. غير أن السابقين قسمان: الأنبياء صلوات الله عليهم، ثم الأولياء.

١ - وللأنبياء أربعة مقامات:

مقام الخيرة، ثم مقام الرؤية، ثم مقام العصمة، ثم مقام النصرة. لأن الأنبياء عليهم السلام هم الرهط الذين اختار الله تعالى في الأزل لهم أطيب بذر، وأخصب منبت، وأسعد وقت، وأهنأ غذاء.

فكان ابتداء الوجود على الطهارة بحكم طيبة البذر، وعلى الزكاة بحكم خصب المنبت، وعلى الجد بحكم سعادة الوقت، وعلى الصفاء بحكم عذوبة الماء، وموافقة الغذاء، فنشؤوا مطهرين مزكين مجدودين أصفياء، منة من الله تعالى، وقد وقوا خبثاً يكون من البذر، وقسوة تعدى من المنبت، وحرماناً ينشأ من نحوسة الوقت، وفساداً يتولد من الغذاء، وما معهم في أصل الفطرة عقل يهديهم المحل، ولا خبث فيهم يدعوهم إلى المضل، فبقوا على المكان المختار متحيرين، كالسفر لحقهم الليل، وأعماهم الظلام، وهم على الطريق، فحلوا منتظرين. فكانوا ما شاء الله في عناية المولى، إلى أن جاء أوان الرؤية والهدى، وذلك في قول الله تعالى - والله أعلم -: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أي: في مقام حيرة، ضالاً عن الطريق، بالوقوف على المنزل، فهداك بالعقل والكتاب المنزل.

ثم فجر لهم أنوار العقول، وأيقظ لهم أبصار القلوب، فأراهم ملكوت السموات والأرض، فكانوا من المهتدين، فسلخوا الطريق المستقيم إلى مولاهم

آمنين. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُزِّيَ إِلَيْهِمْ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧].

فصاروا ما شاء الله بهدأيته بعدما أقاموا مدة بعنانيته، فرأت نفوسهم والشياطين سلوكهم طريق الآخرة، عمياً من الدنيا بأسرها، فاضطربت لأسماعهم أحلى صوتها وأرتهم أبهى زهرها هذا عن يمين الصراط، وهذا على الشمال، وترويحهم على الجانبين بالصبا والشمال، إلى نصب شبك المهالك على سد المسالك، حتى هموا لولا أن عصموا، وزاغوا لولا أن ثبتوا، قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَنَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]. وقال: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَنِّنَاكَ لَفَدَّتْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. فقدوا بالتأييد والتوفيق، وما خافوا شبك المحن على المضيق، ولا التفتوا إلى جانبي الطريق، إلا للدعوة إلى الحق ورد الدعاة إلى الزيغ، والله تعالى من ورائهم بالتأييد بالرصد والجنود.

فما أجابوهم إلا مستهزئين، إلا قليلاً من المساكين، فثبتوا على الدعوة نذراً وبشراً، فكابروهم متعنتين، وقصدوا استفزازهم من الطريق متغلبين، فنصرهم الله تعالى بجنوده فصاروا غالبين قاهرين للضلال عن الصراط إلى جانبه، بالعدول إلى سوائه محذرين ما على حافتيه، مبشرين بحالهم عند انتهائه، حتى ازدحموا بهم على الصراط المستقيم، وتبعوا الأنبياء صلوات الله عليهم مطمئنين، فجوزوا بما صبروا في الدنيا بالولاية، وبما صدقوا في الآخرة بالشهادة.

وللأنبياء عليهم السلام ورثة وهم العلماء، أحسن الله إليهم، قال رسول الله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»^(١). وقال: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»^(٢). وهذا - والله أعلم - لأن الأنبياء كانوا لله وللعقبى، وإن كانوا في أصلاب البشر، ونشؤوا من نعيم الدنيا، فلم يورثوا إلا ما كان لله من العلم والحكمة، وكان ما تركوا من نعيم الدنيا صدقة كما لا مال لك له من نحو اللقطة، ولم يرثهم إلا من اتصل إليهم بالرب، دون من اتصل إليهم بالصُّلب، ثم نص الله تعالى لنوح عليه السلام في ابنه فقال: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلُ غَيْرٍ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. فأخرجه من جملة الأهل بما كان منه من فاسد الفعل. وقال الله تعالى في أهل بيت رسول الله ﷺ ورضي عنهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(١) رواه ابن ماجه في السنن ج (١) ص (٨١) والترمذي في السنن ج (٤) ص (١٥٣).

(٢) رواه الفتني في تذكرة الموضوعات ص (٢٠).

وصف أهل البيت بالطهارة لتكون الصفة على أعيانهم علماً، ولا يدعي الأهلية لنفسه من انتسب إليهم ممّن عدم الصفة عدماً، ثم أكد هذا المعنى الرسول عليه الصلاة والسلام بلسانه فقال: «**العلماء ورثة الأنبياء**». ليعلمنا بإرث الأهلية، ويصرفنا عن الوصلة الصلبية، فما يحرم الابن ميراث أبيه لأخ أو لعن، ولا أبعد منه إلا بكفر أو قتل أو رقّ، وما يرث الزوج امرأته على بعد من النسب، إلا لقرب السبب. فالسبب للميراث سبب بدعي، والولاية والإرث منه المقصود والمعنى، وما في سبب دون المسبب من جدوى.

أتعلم أيها الأخ العالم ما تفسير الوراثة وحكمها؟ أم أنت ممّن غاب عنك علمها؟

إلا أن الوراثة خلافة عن الميت فيما كان له، ممّن انتقل إليه، كأن الميت حي، واعتمد في حقوقه بالأمر عليه.

أيها المسكين، فلا تسرن باسم الإرث، واغتمم لحكمه، فقد لزمك الأخذ بسمت الرسول بما ورثت من علمه، ولست في أصلك على صفوتهم، وحرمت إذ لم يؤدبك الوحي كُنه قوتهم. كانوا معلمين بالوحي ابتداءً، وأنت متعلم. وكانوا معصومين، وأنت معتصم. وكانوا مقومين، وأنت متقوم، وليس ما حصل بتكلف كالحاصل طبعاً، ولا ما عرف بالاجتهاد كالذي عرف سماعاً.

هل وقفت على الطريق حين هديت؟ وهل اعتصمت عن الميل إذا دعيت؟ وهل دعوت الخلق إلى الحق إذا أريت؟ أم زغت عن الطريق فأخذت الدنيا وقلت: سيغفر ويوهب؟ وهديت الناس إلى الطريق بقولك، وأنت يرد عليك بفعلك وتكذب؟ فضلت وأنت عالم، فضل بسببك عالم، فكنت قائداً كما عرفت الرسول عليه السلام قائداً، ولكن أنت إلى الجحيم، والرسول عليه الصلاة والسلام إلى دار النعيم.

يا من عبت صاحب النسب على اكتفائه بالسبب، قد دخلت تحت هذا الحكم بقنوعك بالاسم واللقب، فالمقصود من الاسم معناه، كما أن المطلوب من السبب عقباه.

أما علمت أن العلم زيادة حجة من الله عليك للهداية، فما تزداد به إلا عذاباً عند الغواية، أما سمعت الله تعالى يقول يحكي عن قارون جَمَعَهُ بعلمه، ثم منعه بوهمه، ثم أخبرك بحكمه، فلم يرض مجموعته بسبب العلم لأحد من الأنام، ورضي مآل فرعون وأهلكه وآله على دعوى الربوبية لأهل الإسلام.

أما علمت أن الذي ضل عن عمى ليس كالذي ضل على بصيرة وهدى.

أما علمت أن الذي نام والليل سرار، ليس كالذي نام والوقت نهار؟
شاور في ضلالك قلبك، وحكم فيه لبك، ثم عد لحكمه على الطريق،
واستغفر ذنوبك ربك تجده غفوراً رحيماً، ثم اثبت على الاستقامة تكن سيداً
كريماً، ما بينك وبين الرسول عليه الصلاة والسلام إلا أنك ممن وصل إليك الوحي
بواسطة من البشر، والنبي عليه الصلاة والسلام بلغه بواسطة من الملك، إذا لم
تعرف قدرك هذا، ولذلك هلك.

فما فرق ما بينك وبين الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين إلا أنهم
كانوا مطاعين ببيعة من الخليفة، وأنت مطاع بنور من الله تعالى لو كنت على
الطريقة، وكانوا مطاعين بأنصار من الإنس، وأنت مطاع بأنصار من الذات
والنفس، وكانوا مطاعين زيادة أعمال، وأنت مخفف عنك كثير من الأثقال، إلا أنه
كانت لهم ولاية الإلزام كرهاً، وعليك الصبر إن لم يقبلوا منك قولاً، ويسير عليك
هذا الصبر إذا أمرتهم بحق الأمر، فما أمر الله تعالى قلبك بعد الرد عليك إلا
الإعراض، والإعراض أيسر من الإلزام، فإنما بقي عليك تهذيب أعمالك،
وتحسين أخلاقك، وذلك بحسن الرياضة منك، والتوفيق من الله موعود. قال الله
تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]. ثم دعوة الخلق إلى الله
تعالى والنصر مضمون كما كانت الرسل عليهم السلام، وبذلك نطق أصدق
الكلام: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].
﴿إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧]. إنما الهلاك من قبل جهل المرء بقدره، فوضع
نفسه عنه على أنه دافع، وغفلته عن ربه وطلب غيره على حساب أنه ضائع.

ومقامات الأنبياء عليهم السلام في النصر أربعة:

قال القاضي الإمام رضي الله عنه، ورحمته عليه: القوى العلمية في العباد
من غير شرع وإيمان لصيانة أو لغلبة أربعة أنواع: علم التنجيم والهندسة، وعلم
الطب والفلسفة، وعلم التعزيم والكهانة، وعلم السحر والشعوذة. فالأولان
للصيانة عن الآفات الداخلة بعلمه. أما الطب فبعلمه بتغير طباعه على الاعتدال،
والنجوم للصيانة عن الآفات الخارجية، بعلمه بتغير ما على الفلك من الأحوال.
والعلمان الآخران للغلبة. فبالتعزيم يزداد قوة بالجن، وكذلك بالسحر، غير أن قوة
علم السحر ترجع إلى الذات، والتعزيم إلى الغير، لأن نصره المعزم بالجن، وهم
على اختيار ونصرة الساحر بآلات تخيل على العباد، أو علامات يسحر بها
الأبصار. وما وراء هذه من القوى معدودة في الحسية، خارجية في عادات الناس
عن العلمية.

مقام النبي إبراهيم في النصره:

فزمن إبراهيم عليه السلام كان زمن علم النجوم والإيمان بها، فنظر إبراهيم عليه السلام فيها بالعقل، فوجدها مسخرة لا تمتنع عن الأفول، فتبرأ عنها إلى القدير الذي أجراها على تسخير، فنصر بآية من ذلك الطريق في آفة الحريق وهو في الحريق، فكانت وقاية قومه عن النار إذا خافوها بالاحتراز عن سبب الوقوع، لا بالرد، فلما بقي إبراهيم عليه السلام بتغير النار عليه وهو فيها إلى سلام وبرد، لا نواله بالعجز وهو فرد، فكما تبرأ إبراهيم عليه السلام عن السبب إلى المسبب، وإلى الله تعالى عن الشهب، أكرم بالوقاية دون السبب.

مقام النبي عيسى في النصره:

وكان زمن عيسى عليه السلام زمن الفلسفة والطب وعلم الطبائع والإيمان بها. فأري عيسى عليه السلام، فرأها ضواد لا تنشأ إلا باجتماع، ولا اجتماع إلا بقهر، فهي ضواد على امتناع، فتبرأ عنها إلى القاهر الجامع، الواحد الصانع، فنصر بآية من ذلك الباب، فأحيا الميت، وأبرأ الأكمه، وما عنده أدوية ولا أسباب. فلما تبرأ عن الطبائع إلى خالقها وقاهرها أكرم بإيجاد المعدوم المعدم حياة في الميت، ونور في الأكمه، وما كان ذلك من الطبائع بموهوم، خصوصاً بلا شرب دواء، ولا تناول غذاء.

مقام النبي سليمان في النصره:

وكان زمن سليمان عليه السلام زمن التعزيم والكهانة، والإيمان بالجن والشياطين، فعرف الله تعالى سليمان ألا سلطان لهم على الإنس إلا من أتبعهم عن اختيار، وما بهم قدرة تدفع عن أنفسهم ما توجهه الأقدار، فتبرأ عن الجن إلى خالقها، فنصر بآية من ذلك الجنس لم تكن معهودة لأولئك الأمة في طرائقها، فحشر له الجن والشياطين والإنس طوعاً وكرهاً، وبنى على الماء صرحاً، وهبت الريح بعرشه هباً.

مقام النبي موسى في النصره:

وكان زمن موسى عليه السلام زمن السحر، فكانوا يؤمنون به، فنصر موسى عليه السلام حاصل ما يرجع إليه السحر، فعلمه ضعيفاً من الأمر، فتبرأ عن الانتصار بالتهويل والتخييل إلى خالق الأحوال والخيال، ومغير الذوات بعد الأحوال فنصر بآية من ذلك المثال: عصا تسعى حقيقة وتخيلاً، وتلقف ما أفكوا

يقيناً لا تهويلاً. فكما تبرأ عن مخيل الصفات إلى مخيل الذوات نصر بتبدل الذوات بلا أسباب وآلات، فكانت الآراب كلها للأنبياء عليهم السلام على معتاد قواهم، ولكنها فوق ذلك عياناً بلا أسباب عهدوها إيقاناً.

مقام النبي محمد ﷺ في النصر:

ثم الله تعالى ختم الرسالة بمحمد عبده عليه الصلاة والسلام لفضله، ونصرة دينه على الدين كله، أخرجته من بين قوم أعطوا فضل قوة في اللسان، وهي من فضائل الرأس، وقوة الجنان، وهي من فضائل الصدر، وهما راجعان إلى قوة النفس المعروفة بالحسن، وفي قوة اللسان من الكلام قوتا علم الطب والنجوم، فإن الكلام يدفع شر داخلي البلد من الحاضرين لحجة الخطاب، وشر الخارجين من الغائبين لحجة الكتاب، وإن في الدفع والإلزام أبلغ من الطب والنجوم، على ما عليه مبنى أمور عقلاء الأنام.

وفي قوة الجنان من البسالة قوتا علم السحر والكهانة: غلبة الأدين بضرب السيف الباتر، وغلبة الأقصين بيعث الجيش الزاجر، وكلا الأمرين ينشآن من بسالة الصدر، وأثرهما في الغلبة فوق أثر الكهانة والسحر على ما يدور عليه الشاهد للأمر.

ثم قوة البسالة وقوة الفصاحة وإن كانتا في قلبي قوى الطبع، فإنهما في المزاج من قوى العلم. فلا إلزام باللسان إلا بعد الوقوف على الحجة، ولا غلبة بالجنان إلا بعد الوقوف على العودة، مع ما رجع الكلام في المعنى إلى حقيقة علم الحساب، فإنه بني على حروف مجموعة، وموازين معدودة، لا وقوف بدون الحساب على حدودها المحدودة، وأجزاء الحساب في الكلام أسامي موجودة. فرجع إلى علم الفلسفة والطبائع، فهذه الحروف مخارج عجيبة، وللسان في إخراجها مجار لطيفة، وللقب قوى بديعة في ضبطها وإلقائها على اللسان في وقتها، لا تعرف حقائق ذلك إلا بعد علم الفلسفة، كما لا يعرف الضرب الأول إلا بالهندسة.

فصار ذلك العلمان بعض ما دخل تحت اللسان، وكذلك في حيل أصحاب الجيوش وذوي النجدة من التهويلات والآراب في الحروف ما أربت على تهويلات السحرة، وتمثيلات المعزمين، بعد الرجوع إلى أمر فاصل، وهو السيف القاتل.

فشاهد النبي ﷺ - وهو أعلى أسباب الدرك - القوتين من عضوين ضعيفين: اللسان والقلب، ثم رأى دخولهما تحت حس البصر بشيئين عاجزين: القلم والسيف، فتبرأ من الحول بهما إلى خالق الحول والقوى، فنصر بآيات من ذلك الجنس على الورى، فجاءهم بكلام، داعياً إلى أحكام، أعجزهم عن مثله، ولم

يكن قارئاً على أحد، ولا كاتباً بقلم، وما دون القراءة والكتابة سبب لعلمها. ثم قاد الكل كما يقاد البعير الأنف إلى قبول الشريعة بالبسالة، وهم مجمعون على نبذها، وما معه رجال ولا مال، وما دونها سبب لقهرها، فنصر يوم بدر بكف من تراب، وفي غيرها من المواضع بالإرعاب، قال الله تعالى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦].

فكما تبرأ إلى الله من قوة اللسان والقلب والقلم والسيف، نصره الله بمعجزة وهي كلام من غير قراءة ولا قلم، وبقاهرة هي الإرعاب من غير سبب ولا أمم، بل قامت نفسه مقام السيوف والزخوف، فنصر بالرعب مسيرة وبقاهرة هي الإرعاب من غير سبب ولا أمم، بل قامت نفسه مقام السيوف والزخوف، فنصر بالرعب مسيرة شهرين، وقام القرآن مقام الكتب والخطب، فنصر بالعجز على الثقلين، وإنهما لجامعتا كل القوى، لكنهما في غير ذلك الطراز، مع ما شاركها في الوجود بدون السبب، وزاد عليها بعد الاحتواء على جميعها في الرتب.

ثم الرسول عليه الصلاة والسلام لما تبرأ إلى الله تعالى عن اللسان والقلب - وفيهما كل القوى، وهما كل الآدمي في المعنى ألزم بجميع ما نصر إليه أنبياء الهدى، بل فوقها رتبة وأعلى.

فإن إبراهيم إن وفي الأب اللعين، فقد عصم محمد عن شر الناس أجمعين. ولئن أكرم بعد السؤال بلسان صدق في الآخرين، فقد أكرم محمد بلا سؤال بقرآن ذكره بذكر رب العالمين.

وإن نصر سليمان عليه السلام بالجن والشياطين فقد نصر محمد عليه الصلاة والسلام بأربعة آلاف من الملائكة مسومين. وإن أكرم فسارت الريح بعرشه مسيرة شهرين يوماً لتنفيذ إرادته، فقد أكرم محمد عليه الصلاة والسلام فأسرى الله تعالى به مثل تلك المدة ليلاً لإرائه آيات.

وإن نصر موسى بواسطة العصا مد بصر العين، وإنفلاق البحر، فقد نصر محمد بالرعب بلا واسطة مسيرة شهرين، وانشقاق البدر. وإن أكرم بطور سيناء للتكليم، فقد أكرم محمد عليه السلام بالمعراج للنجوى والتسليم.

وإن نصر عيسى عليه السلام بروح حيواني يحيي العظام وينور العيون، فقد نصر محمد عليه الصلاة والسلام بروح فرقاني يحيي القلوب، وينور العقول، ثم الحياة بروح عيسى عليه السلام إذ رفع ذاهبة، والحياة بهذه الروح بعد محمد عليه الصلاة والسلام باقية، وتلك الحياة كانت للدنيا، وهذه الحياة للعقبى والمولى،

حكمة من الله تعالى بالغة، إذ محمد ﷺ كان مبعوثاً إلى الناس كافة، وفيها الطبقات عامة، ولن يغلب الجزء الكل إلا بخالق الكل، ولن تحصل الغلبة بالخالق جلّ جلاله إلا بالتبري عن المخلوق، ولن تنفع البراءة عامة إلا بالتبري عن النفس خاصة.

فأخرج الله تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام من قوم ما رأوا إلا نفوسهم، وما نفروا إلا بالسستهم وقلوبهم، حتى لم يقع بصرهم إذ أري الحق إلا فيها، ولزمه إذ عرفه التبري إلى الله منها، فنصر بالقوى عامة على حسب البراءة في خصوصها.

ثم إن محمداً عليه الصلاة والسلام حقق تبريه عن النفس بأخلاقه، فعاش مشفقاً بقلبه على الأعداء حتى عوتب، ف قيل له: ﴿لَعَلَّكَ بَئِيعٌ نَفْسِكَ إِلَّا بِكُفُورِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]. فجوزي على شفقتهم بالشفاعة للظالمين، وعاش مؤثراً بما في يديه حتى نهى ف قيل: ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]. فجوزي على إثارة بالكوثر يوم الدين. وسكن الدنيا غير ملتفت إليها، استهانة بها، فجوزي بقوة العين في نجوى رب العالمين. وأقام فيها مقام مجسم في سفره تحت ظل، فجوزي بإقامة شريعته أبد الأبدين.

فخالف بالخلق الأول الصفراء، وبالثاني السوداء، وبالثالث الدم، وبالرابع البلغم. فلم يعط نفسه رضا طلباً لرضا الله تعالى، فجوزي بإعطاء الله إياه حتى يرضى، وأثر بحسن الخلق على نفسه، فجوزي بتولية إمامة الوري، واطمأن على المكاره والناس مفوضاً أمره إلى الله تعالى، فجوزي بالعصمة من الناس، وتجاسر على الجميع غير خائف من دون الله، فجوزي بتخويف الله الناس بقلبه.

وقد دلت هذه الأخلاق على أخلاق محمد من الجزء القلبي. فما يوجد قلب العاقل إلا قلقاً على خط النفس في معاداة النفس إياه، راداً عليه وعلى هداه، ولا يوجد إلا مؤثراً بما عنده من عنده من الحكمة، لا يتم سروراً إلا ببثها على الأمة، ولا يوجد قلبه في الدنيا إلا مستوحشاً، وعن طلبه متوحشاً، ولا يوجد القلب من الحكيم في إقامة الجسم في موضع خبيث إلا مسافراً عنه، طائراً إلى معالي الرتب.

ثم الله تعالى دل على هذه المعاني ببعثه من مكة، فهي أم القرى، وبمنزلة الرأس من الجسد لسائر الدنيا. فأول بيت وضع للناس الذي بمكة مباركاً، وأول جزء ظهر من تلك الأرض تلك البقعة، كما يظهر أول شيء من الإنسان عند الوقفة، وأمره بالهجرة إلى المدينة، وإنها كالصدر لهذه الأرض على ما وردت الأخبار أن الله تعالى أمر جبريل عليه السلام أن يقبض من قلب الأرض قبضة، فكان منها محمد عليه الصلاة والسلام، ثم أمر فقبض قبضة أخرى من أديم

الأرض، وجعل القبضة الأولى فيها، ثم خلق آدم عليه السلام. وقد دفن رسول الله ﷺ في المدينة، فدل على أنها موضع خلقه على ما جاءت به الأخبار، حتى اجتمع في رسول الله ﷺ قوى الرأس والصدر من طريق المنبت والمنشأ والمولد، والموضع الذي أراد الله نصرته به.

وقد دل ما ظهر علينا من الأعضاء، وفينا من القوى، وقد خلقنا من أديم الأرض أنها موجودة فيها كذلك من طريق المعنى، وإن غاب عنا أمراً. فمثله والله أعلم بمنزلة الرأس، لأنها كانت أول جزء وجوداً، وبيت الله بمنزلة الدماغ منه، والحرم بمنزلة ما وراءه من الوجه إلى العنق، والمدينة بمنزلة الصدر، وبيت رسول الله ﷺ بمنزلة القلب، وسائر الأجزاء كسائر الأعضاء، عمّا ينتفع به ولا ينتفع، ويتأذى به ولا يتأذى.

وبهذا - والله أعلم - سميت مكة أم القرى، كما يسمى موضع الدماغ أم الرأس. ولأن مرجع الولد إلى الأم، ومنها كان المبدأ، ومرجع البدن إلى الرأس، ومرجع القرى إلى مكة، ومنها كان الابتداء - والله أعلم - كان الحرم آمناً يأمن فيه من التجأ إليه من مباح، إلا إذا تعدى فيه بما أوجب حداً. والرأس إلى العنق كان آمناً من الآدمي إذا استبيحت نفسه بجلد، إلا إذا تعدى في الوجه عيناً.

ثم الله تعالى خلق آدم عليه السلام من أديم الأرض، وجمع فيه أجزاء النسل كله من أجزاء الأرض، فكان حظ آدم والله أعلم من القبضة الجزء الرأس، إذ كان أول الناس، وقواه بالقوى الدماغية - والله أعلم -.

وخلق سائر الأنبياء عليهم السلام من الأجزاء الوجهية وما يتصل بها من دون الرأس إلى الصدر، وقواهم بقوى السمع والبصر والذوق والشم، فهي من جنس القوى الأربع التي نصرروا بها. ففوة السمع والذوق تنسبان إلى علم التعزيم والسحر.

وخلق محمداً نبينا عليه الصلاة والسلام من الجزء القلبي وقد وردت الأخبار - والله أعلم - بذلك. ونصره بقوة اللسان واليد، فهما عاملا القلب. واللسان بحجة لا يوقف عليها إلا بالاستدلال، والقياس، واليد بغلبة يوقف عليها من طريق الحواس.

هذا من طريق الظاهر، ثم جعل قوى الحواس تابعة لقوى القلب من طريق الباطن. فنسخ الشرائع كلها بشرية محمد عليه الصلاة والسلام، وصار الأنبياء كلهم عليهم السلام أتباعاً على ما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا

ءَاتَيْتُكُمْ مِّنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ [آل عمران: ٨١]. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعي»^(١).

ثم جعل ميلاده الظاهر من مكة، وكان ميلاده الباطن من المدينة، ليدل على سيادته لولد آدم، فالقوام الظاهر للآدمي برأسه، وفي الباطن بقلبه، ولذلك كان ابتداء سكناه بمكة، ومآله بالمدينة، كما إن مآل الرأس إلى القلب، ولهذا كانت مكة نافية، والمدينة ناصرة، على حسب مخالفة قوى الرأس بالطبع لقوى القلب إلا بعد حسن الرياضة، وضرب من القهر. ولهذا فرض الله المسير إلى مكة للحجة وهي ظاهرة، والمسير إلى المدينة للحجة، وهي تصيب القلب. فدل الله تعالى عباده بهذا الحكم على جميع شرف الرأس والقلب في محمد ﷺ، وأعطاه كل القوى إياه. فما قوة النفوس إلا بالسنتهم وأيديهم، ولا قوة حواسهم نافعة إلا بقلوبهم.

ثم دل على هذه الجملة بابتدائه جلّ جلاله الرسالة بآدم عليه السلام، واختتامها بمحمد عليه الصلاة والسلام، إذ ابتداء قوة الآدمي برأسه، وانتهاءها بقلبه، والنور الذي تهتدي به القوى العقل، وهو مختص بالقلب، وهو المقصود من الدماغ والقوى كلها، فإن العقل بمنزلة نور السراج، والدماغ الزيت، والأرض على مثال منارة صنعها حكيم لعبيد له، طلب منهم معرفتهم إياه بحكمة أراد، والوقت ليل لا سبيل إليها إلا بسراج. فصنع منارة للمسرحة، ثم اتخذ للمسرحة أفواهاً، وملاًها زيتاً، وحشاها فتائل، ثم نورها، فكانت المقدمات للنور والنور بالمعرفة، واللقاء للخدمة، ثم الجزء.

فأله طلب منا ذلك، فخلق الأرض للمسرحة، وهي القبضة التي خلق منها آدم عليه السلام، فكان المخصوص به منها الزيت، وكان من الأفواه الأنبياء عليهم السلام، وكان رسول الله ﷺ الفتيلة، ونوره السراج، والمطلوب منه المعرفة واللقاء، وهذا تأويل الأخبار في أن نور الأنبياء كان من نور محمد عليه الصلاة والسلام، فما للمسرحة نور إلا بنور السراج.

فعلى ذلك مثال الجسم، خلق له الرأس والوجه، ومآله إلى القلب، ونوره العقل، والمقصود به معرفة الله تعالى. ثم الله تعالى أكرم رسوله بنور ظاهر وهو القرآن، وورث هذا النور علماء أمته، حتى استناروا بنوره من بعده وراثته إلى يوم

(١) رواه أحمد في المسند ج (٣) ص (٣٣٨) وأبو يعلى في المسند ج (٤) ص (١٠٢).

القيامة، كما استنار بنوره الباطن من كان قبله من الأنبياء عليهم السلام مؤتمنين، بل كان به قبل آدم نور السموات والأرضين، فما بنور السماء يكون اللقاء، وإنما هو مخصوص بهذا الضياء، وهو المطلوب من كل البناء، لا طفئت عنا نيران الهوى إلا بهذا النور، ولا بعثنا إلا وهو محيط بنا يوم النشور، والحمد لله على ما شرح به الصدور، والصلاة والسلام على محمد صاحب النور.

٢ - وأما الأولياء:

- والمعنى بهم أولياء العزلة - فالعلماء الزهاد أولياء العشرة، وقد ذكرناهم في بيع أصحاب الدعوة. فلهم مقامات أربعة: مقام الغفلة، ثم مقام اليقظة، ثم مقام الجهاد، ثم مقام الحيرة.

وذلك لأنهم قوم منزلتهم دون منزلة الأولين، فقد اهتدوا وما هدوا غيرهم، وجاهدوا نفوسهم وما جاهدوا سرائرهم، فرحموا ذواتهم ولم يرحموا غيرهم، وأنسوا بقرب الحال، ولم يصبروا لمختلف الأحوال، وكانوا مخلوقين من بذر طيب، في منبت زكي، في وقت سعيد، وغذوا بغذاء لطيف.

لكن لم تصف هذه الأربع في أصل الجبلية عن شوب وإن لم يظهر لقلته العيب. فدعاهم إلى الميل وما فيهم مانع من الإجابة، فما في أصل الجبلية من عقل، فأجابوا غافلين، فمن الله تعالى بالعفو عنهم بعذر فقدان العقل، وإن كانوا من جنس الممتحنين.

فلما عقلوا واستنارت بقدر الصفاء صدورهم شعروا بالضلال في مسيرهم، وخافوا فسلب الخوف نوم الغفلة، فانتقلوا إلى مقام اليقظة خائفين ما في عاقبة الضلال من الردى، راجعين إلى دعاة الهدى، فأكرمهم الله تعالى بتأييد دعاة الحق، وهم الأرواح على دعاة الميل وهم النفوس، فأقبلوا عليهم مجاهدين، فانتقلوا إلى مقام الجهاد متضرعين إلى الله متأيدين به، فأكرمهم الله تعالى بالظفر على نفوسهم، فتحيروا عند ذلك في منن الله تعالى عليهم في كل مقام، فبقوا عند الله تعالى في مقام الحيرة، يؤنسهم الله بقرب المكانة، ويلهيهم عن الدنيا وأهلها بكأس المحبة، فصاروا إلى الحياة الطيبة التي وعد الله تعالى للمجاهدين في سبيله على سرير الولاء في إكرام، مكان الولاية للأنبياء عليهم السلام.

فكان هؤلاء الرهط في المنن مجازين، والأنبياء عليهم السلام مسبوقين، فإنهم غفلوا فعذروا كرامة لفقد العقول، وخافوا العدد في ضلالتهم، فتيقظوا، فهدوا بإرادة العدو كرامة على تيقظهم. ثم جاهدوا فأكرموا بالظفر. والأنبياء عليهم

السلام سلبوا الدعاة إلى الزيغ، فلم يزيغوا، ثم أكرموا بالإراءة وأبصروا، ثم عصموا فلم يجيبوا الباطل، ثم نصرُوا فانتصروا، وجوزوا بالولاية، حتى كانت أقصى مراتب الأنبياء الحيرة بحكم الفطرة، وأقصى مراتب الأولياء الحيرة بحكم السكر. إلا أن حياة الأنبياء عليهم السلام كانت على طريق، وحيرة الأولياء عند المنزل. عاشوا في الدنيا لم يشغلهم شيء عن الله تعالى، ويستخشون في الآخرة لا يحجبهم شيء عن الله تعالى.

ومقام الحيرة بالسكر أربعة: سكرة المعبة، وسكرة الخشية، وسكرة الحمية، وسكرة المنة.

فسكرة المحبة تتولد من معرفة الله تعالى حق المعرفة. وسكرة الخشية تتولد من معرفة العبد نفسه بصفته. وسكرة الحمية تتولد من اعتقاد فرضية الطاعة لأوامره ونواهيه بحقه. وسكرة المنة تتولد من اعتقاد الإحسان من الله تعالى في أقسامه لديه بصدقة.

ومع السكر بأي سبب ما كان من هذه الأقسام لم يلحق العبد وإن زل فيه - لولا السكر - عتاب. فقد قال الله تعالى في قصة موسى وهارون: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. ومثل هذا الصنيع بغير ذنب بمسلم غير جائز، فكيف بنبي، وقد فعله موسى عليه السلام وما عوتب عليه، لأنه فعله في حال سكر الحمية لأمر الله تعالى.

وكذلك روي أن عمر بن الخطاب أخذ برداء رسول الله ﷺ يجره مانعاً إياه من الصلاة على المنافق. وما روي من أن أبا طيبة الحجام شرب دم رسول الله ﷺ، وشرب الدم حرام، وحرّم أبو طيبة بشربه على النار، بشهادة النبي المختار، فإنه شربه في سكرة المحبة لله تعالى، ولرسوله ﷺ، فسقط عنه الخطر الثابت بدليله.

وكيف أشكل على بعض الناس هذا الحكم، والخطاب قد سقط بالنوم، والنوم بمنزلة السكر، ولكنه بسبب غير محذور، وذلك السكر بسبب المأمور.

ألا ترى إبراهيم عليه السلام ترك الاستعانة بجبريل عليه السلام، وقد عرض نفسه عليه حين رمي به في النار على ما جاءت به الأخبار، إلا أن لسكره في محبة المنعم القهار، وشغله بمعرفة إحسان في كل أحكامه عن تفاوت معاني أقسامه، فجوزي بما اعتقد مكان الجحيم نعيماً، والنار برداً سليماً، لولاه لما حلّ ترك الاستعانة بمن ينجيهِ عن الجحيم، فقد عرفها قائلاً، ولم يجز تأويل الترك على أنه كان غافلاً.

وعلى هذا الطريق - واللّه أعلم - تعلم الأكلة المسمومة في معدة الرسول ﷺ، والسم أحرق النارين، والمعدة أضعف المحلين. وعليه يخرج قول أبي بكر حين مرض ف قيل: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: «الطبيب أمرضني» أي حالي فيه كمال صحيح سقاه الطبيب دواء فضعف، والطبيب عالم شهير قد عرف.

وهذا ما قلنا لك: إن من غفل عن أسباب الرزق بالرزاق آتاه الرزق من حيث لا يحتسب، وكان العيش رغداً وإن لم يكتسب، ومن غفل عن الأمكنة بالمولى، حملة البر والبحر، ومن غفل عن الأقسام بالقسم نفعه الخير والشر، ومن غفل عن الأوامر والنواهي بالأمر تأخر عنه الأمر والنهي.

غير أن هذا السكر ممّا لا يجوز دوامه في الأنبياء عليهم السلام، ويجب الاستغفار عمّا زلوا فيه حتى لا يقتدي بهم الأنام، قال موسى بعدما أخذ برأس أخيه: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ [الأعراف: ١٥١].

ولأن الحيرة بسكر شراب المحبة بمنزلة الحيرة بسكر الخمر والغفلة، وما في السكر مقصود من الشراب، وإنما المقصود منه الأُنس والنشاط، والأنبياء عليهم السلام وقوا السكر مع ما حصل لهم من الأُنس والنشاط بشراب المحبة، كرامة من الله تعالى عليهم، وتحقيقاً لما أعطاهم من الإمامة، فعاشوا أئمة، وينشرون أمة، وغيرهم حرموا هذه الكرامة بياناً أن ليست لهم دعامة، فعاشوا عباداً وينشرون أفراداً.

فصارت الآيات على خلاف العادات من طريقين:

١ - إحداهما الغفلة عمّا دون الله تعالى، وذلك ممّا يشارك الأولياء فيه الأنبياء صلوات الله عليهم، وأكثرها للأولياء.

والأخرى بالحاجة إلى إثبات الدعوى حال الحاجة.

- والخصومة إما خصومة يفسد العبد معها، ليعرف أنها من الله تعالى حقاً، وخصومة العباد معه ليعرفوا أن الأمر صدق وهذا ممّا يختص به الأنبياء صلوات الله عليهم.

ثم هذه الغفلة متى كانت بطاعة النفس لم يزد على نفسه إلا حجة، لأنه معصية، فلا ينال بها جنّة، كالغفلة بسكر الشراب المحرم، لا يزداد به إلا عظم المأثم، بخلاف سكر النوم.

فصارت أنواع السكر أربعة: سكر بعارض مفتر لقوى النفس كالنوم والأدوية. وسكر بعارض رقة تأتي على قوى القلب، وهي المحبة. وسكر بغلبة النشاط والشرب من الخمر. وسكر بغلبة شهوات النفس من الهوى.

ولأولياء العزلة ورثة وهم الصوفية. فالمورثون خلوا عن الدنيا وأهلها لهوانها وغدرهم، واعتزلوا إلى ربهم لعظم حقه، ووجوب شكره. والورثة خلوا عن الدنيا وأهلها بالرياضة والصبر، واعتزلوا إلى الرب جلّ جلاله بحكم الأمر.

أيها المتصوف، هل علمت أنك في حالك متكلف؟ أخليت بدنك عن الدنيا، فهل أخليت قلبك؟ اعتزلت ببدنك الناس، فهل واصلت ربك؟ أم استغنيت بالاسم دون المعنى، فصرت بالإعراض عن الخلق بدنًا بلا دين، وبالاشتغال بهم قلبًا بلا مولى. ثم قمت في مقام الخوف والرجاء. خفت لجوع في فقرك، فكشفته بالسؤال، ورجوت ما في أيدي الناس فتذللّ لهم للنوال، فجوزيت في حظوظ الدنيا بالحرمان، وفي حظوظ الآخرة بالخذلان.

لزمت أيها المتصوف سمت المولى ظاهراً، فاعرف سبب سمته فالزمه باطناً، فعلى حسب اتحاد العلل تتحد الأحكام، وبقدر ضياء الشمس تنجلي الأيام.

٣ - وأما المقتصدون فلهم مقامات أربعة:

مقام الاقتصاد، ثم مقام الندم، ثم مقام الإنابة، ثم مقام الخوف والرجاء. لأنهم في الأصول الأربعة في الصفاء دون صفوة الأولياء، فتنبهوا على زيفهم بقلوبهم، ولكن لم ينزجروا في شدة حدائتهم عن شره نفوسهم، فكانوا في مقام الضلالة، ولكن مقتصدين بزور صدورهم، وإن أقاموا في غرورهم، حتى لما بلغوا أشدهم، وتهذبت الآراء، وازدادت البصيرة - انتقلوا إلى مقام الندم معتردين إلى الله تعالى عن أنفسهم، ممسكين عن الغواية، متأملين في عواقب وفتنهم على غير هداية. فأنابوا إلى الله تعالى مسرعين بعناية حتى بلغوا، ووقفوا عنده خائفين حذراً عما كان من ضلالهم، راجين نظراً في كرم الله تعالى وجلالته، قد حال الخوف بينهم وبين العد، وآمنهم الرجاء من الرد.

حتى لما استقاموا بين الخوف والرجاء أكرموا بهيبة لهم في قلوب العصاة، ومحبة من قلوب الهداة، فسحة من الأمن. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣]. قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «من خاف الله خافه كل شيء»^(١). جوزوا في الدنيا على الخوف بالأمن عن الشرور، وعلى الرجاء بمحبة الصدور، وفي الآخرة جوزوا على الخوف بالأمن عن الحساب والنار، وعلى الرجاء بالجنان وصحبة الأخيار.

(١) ذكره ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ج (١٠) ص (١٤٦).

ولهم ورثة وهم: المتقشفة. فالمورثون أقبلوا على الله تعالى خوفاً من عدل الله، وقاموا على الباب رجاء لفضله، والورثة رجعوا إلى الباب متكلفين بدعاء الأمر، فقاموا متقشفين لوفاق الزجر. تركوا طيبات الدنيا للحال، فحرموا لذاتها، وخسروا طيبات الآخرة، فقد أحبت القلوب فيهم الدنيا ونفقتها.

أما علمتم أن التكلف لا دوام له، والتقشف لا محمدة فيه، إنما تشبهتم بالمقتصدين ظاهرين فاعرفوا سبب اقتصادهم. باشروه معتقدين فما يلتحق لاحق بالسابق وإن ظفر بمركبه، إلا إذا سار على مذهبه، ولا ورث ولد والده ادعى في نسبه.

٤ - وأما الظالمون فلهم مقامات أربعة: مقام الظلم، ثم مقام الرجاء، ثم مقام اللوم، ثم مقام العذر. لأنهم في الأصول الأربعة في الخبث فوق المقتصدين، فلم ينزجروا عن ضلالتهم وقد عاشوا أربعين فكانوا في تماديهم على الغي وقد بلغوا أشدهم ظالمين. إذ قد تمت عليهم الحجج ووضح لقلوبهم النهج.

فكان الظلم أول مقاماتهم، حتى لما فترت شهواتهم، وأثقلتهم أنباء الدنيا، وفركتهم غوايتهم، هجرهم فتياتهم، فتأملوا كسادهم في رأس مالهم، فإذا هي نسيئة على مفاليس، منكرين بأقوالهم وأفعالهم، ما لهم عليهم لسان تقاض، ولا يد اقتضاء، فألقي في قلوبهم التحول إلى وصف المملأ تثميراً لما بقي لهم من رأس المال، واشتعلت النفوس بنيران الشهوة، وحالت بدخانها بين القلوب ونور تلك الخطرة ترجى ما خطر بالفكرة ترغيباً في قضاء ما بقي من الشهوة، وتأميلاً في تدارك تلك الصفة.

حتى إذا شاخ العبد، وقام على فراش اللحد، تفكر في فراقه فوجده لا يرافقه جليس، ولا يوافقه عليه أنيس، أقبل باللائمة على نفسه، وضمن بما بقي من نفسه، يتفكر في عيبه، ويتذكر كرم ربه، فتخرس الفكرة لسانه، وتقوي الذكرى جناحه، فيقبل بقلبه على باب التوبة، فإذا هو عريض رفيع، ما عليه حجاب، ولا دونه بواب، فيتقدم مستغفراً معتذراً، فيكرم بالقبول، ويؤذن له بالدخول، فالذنوب مغفورة، والعيوب مستورة، حتى من بين صحائف الحساب، وعن قلوب كرام الكتاب. قال الله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

فالتائب عن الذنب هو الظالم المصطفى، وقد يسمى بهذا الظلم الأنبياء. قال الله تعالى في قصة آدم: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٩]. وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]. وفي قصة موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤]. ومن قصص الأنبياء: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ

ذَكُرُوا اللَّهَ ﴿[الأعراف: ١٣٥]﴾. الآية. وبدأ الله بذكر الظالمين لأنهم أكثر، ثم بالمقتصدين، ثم بالسابقين، لأنهم أعز.

ولهم ورثة، وهم: عامة الجهلة، فالمورثون عركوا أنفسهم باللائمة، والتمسوا كرامة ربهم بحسن المعذرة، وأنت أيها الوارث عركت نفسك على ما كانت عليه بحكم العجز، والتمست قبل العذر من الله النجس. وتخشعت بلا عقيدة، واستغفرت بلا إنابة، فكنت بقلبك على الإصرار، وإن دخلت ببدنك في هذا المضمار، فما أنت في تركك إلا على سخرية، ولا في طلبك إلا على أمنية. وما جزاء السخرية إلا فوت الإيمان عند حلول المنية، ولا جزاء الأمنية إلا العدم وقت العطية، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

فصل

في الفاسقين

أما الفاسقون فأربعة: مصرون غير متفكرين، ومتفكرون غير نادمين، ونادمون غير واقفين، وواقفون غير راجعين. لأنهم متى رجعوا إلى الحق فقد تابوا وزالت عنهم سمة الفسق.

فالمصر له مقامات أربعة:

طاعة النفس، والتهاون بالعقل، والغطاء، ثم العمى. هذا أطاع نفسه، وتمسك بالمراد على إعراض عن المصادر فجوزي بالتسليط عليه، فأطاعها بقوله وفعله، متهاوناً بعقله، فجوزي بالغطاء، فصار كأنه أرخي على بصر قلبه سجف، وذلك في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُنَا غُفْ﴾ [البقرة: ٨٨]. فأمعن في طريقه على خلاف عقله، طاعة لنفسه، غير مرید لرفع الحجاب، ولا واقف ولا مرتاب، فانتقل إلى مقام العمى، فصار لا يبصر شيئاً، كأن ما بين عينيه سد، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩]. فجوزوا بالضلال عن المسالك، والوقوع في المهالك، ومعهم نور الإيمان، يرجون به الأمان، على مثال البصير وسط البحار، وليل السرار، يخاف الهلك ويرجو النجاة بمجيء النهار، وربما أدركه الغرق قبل النور المشرق، أو على مثال من ابتلي بغشاوة فكل بصره، فاستهان بها، فصارت لحماً لا ينفعه نظره كأنه أعمى، وبه رجاء العود بعلاج، وبما بقي عليه ففسد المزاج.

فنور البصر ممّا يزول بامتداد زمان الظلمة، كنور الإيمان ممّا يسلب تحت ظلمات المعصية، قال الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. وقال النبي ﷺ: «إن العبد إذا أذنب ذنباً بعث الله ملكاً فنكت في قلبه نكتة سوداء». ثم لا يزال يسود - أي يسود إذا أصر - حتى لا يبقى معه نور الإيمان، بخذلان يلحق من الرحمن، فلا يبقى بعده موضع رجاء. يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وأما المتفكر فله مقامات أربعة:

حب الدنيا، ثم المكابرة، ثم الجهل، ثم طاعة النفس. هذا تفكر في أمور نفسه فلم يطعها، فعرفها بجهله، غير أنه حبّ إليه الدنيا، فقام في مقام المحبة، فجوزي بالعمى عن عيوبها، والصمم عن خطوبها، فانتقل إلى المكابرة، فقابل علمه بعماه، وانهمك في دنياه، فجوزي بالنسيان، فقام في مقام الجهل. فكر لنيل المني غير منزجر، واستدر أخلاف الدنيا على تهور، فصار في مقام طاعة النفس، الذي هو أول مقامات المصريين.

وأما مقامات النادم فأربعة:

أولها الطمع، ثم الرق، ثم الضريبة، ثم المحبة، هذا تفكر في أموره، ولم يحب الدنيا حباً بقلبه، فأبصر بعض معاييها، ووقف على عجائبها، غير أنه خذل بالطمع، وشرب من شرابه، فتدلّ به للمعيب، فخالف رأيه وهو مصيب، فجوزي بالهوان والهلع، فقام في مقام الرق لإدراك الطمع، وسعى له سعي الرقيق، فجوزي بالاستبعاد، وعمل بلا أجر، وإنه لخليق. حتى لما أعيأ داؤه، ضرب عليه بعد الرق الضرائب، فقام لأدائها قيام المكاتب، وسعى على جد واشتياق، لشمه في الأداء رائحة العتاق، ولم يشعر أن عتقه من قناعته، وأنه لمتعجل له بها من ساعته، فجوزي بالإصابة استدراجاً، فأنس بالجزاء، وجد لجمعه خبياً، وأحب جمعها عجباً، وهو أول مقام لمن مضى سبباً.

وأما مقامات الواقف فأربعة:

الرية، ثم الرخصة، ثم الاستحلال، ثم الطمع. هذا تفكر كثيراً، فما أحب الدنيا إلا يسيراً. ونظر إلى معاييها بصيراً، فزهد فيها.

ثم رأى مقامه منها فوقف مرتباً ليروي رأيه، ويحكم أمره، حذر نفسه بالفرار عنها بضروب فتنها، فتحدثه بالهلاك دونها، لتعلق قوامه بها، فجوزي في امتداد وقفته باتفاق نار الجوع، والنفس تنادي: ما المال عنك بممنوع. ويقرأ ما في

التمتع بالدنيا من الرخص، فأعطاهما منتهزاً للفرص، فصار في مقام الرخص راضياً عن نفسه بالتحبس عن الحرام، والتجنب عن الآثام، فجوزي بالتزين. زين له سوء عمله، فاتبع هواه الرضا بالمقام على الرخصة، فهي حمى المحارم.

فما لبث أن انهار به في وادي الاستحلال، فسلكه واجتني جناه غير متأول كأنه حلال، فجوزي بالبخل وساءت به الحال، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً﴾ [طه: ١٢٤]. لا ينتفع بماله - واللّه أعلم - بخلاً، وإن استوى على الدنيا ملكاً، ثم بالحرص طلباً لنفسه بالزيادة نفعاً. فإذا هي بعد الحرص في مقام الطمع فيما في العالم، وهو أول مقامات النادم، قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة: ٧٥]. الآية.

فصل

في الجاحدين

وأما الجاحدون فأربعة: الجهال غير المتأملين، والمتأملون غير المبصرين، والمبصرون غير العارفين، والعارفون غير المهتدين.

١ - فالجاهلون لهم مقامات أربعة:

النبوة، ثم القسوة، ثم الشدة، ثم الخيبة. لأنهم رهط جبلوا على مضادة الأنبياء عليهم السلام من أخبث بذر، في أرذل منبت في أنحس وقت، وغدوا بأفسد غذاء. فكان ابتداء الوجود على الخبث بحكم البذر، وعلى الشدة بحكم المنبت، وعلى الحرمان بحكم الوقت، وعلى الفسق بحكم الغذاء، فنشؤوا خبثاء أشداء محرومين غاشين في مقام هذه الخصال، وعقولهم مغلوبة بنفوسهم، فلم ينتهوا بها على الحال، فقاموا مقام النبوة عمّن باينهم طريقة، وما وافقهم حقيقة، فجوزي بقوى النفوس، وكثرة الأولاد والأموال فصاروا في مقاماتهم كمثّل الأرزاء في الأرض المجذبة، على ما قال النبي ﷺ: «لا يميلهم عقل، ولا يحركهم قول».

ثم انتقلوا إلى مقام القسوة، فقست قلوبهم بطول المباينة نهجاً، واختلاف المكالمة حججاً، فجوزوا بالعمى عن الوعظ والصمم عن النصيح، فصارت كالحجارة أو أشد قسوة، لا ينفجر منها ماء الرحمة، ولا تهبط أو تميل لحكمة.

ثم انتقلوا إلى مقام الشدة، فاشتدوا على مخالفيهم بالأسنة لد، وسيوف بتر، متهورين غير مكثرين، معجيين بقولهم متكبرين، فجوزوا بالخذلان وخطأ التدبير، ووهاء الأساس والتقدير، فصاروا عند ذلك في مقام الخيبة.

خاب عن رشدهم تدبيرهم، وعن فوزهم كبيرهم، على ما قال الله تعالى في خيبة الرسل عنهم: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦]. وقال: ﴿إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]. وقال: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

فقال الأخ: كيف استقام القول باليأس عن الإيمان مع قيام الدعوة؟

قلت: كما استقام القول بتكليف السكران مع اليأس للمال عن القدرة، لأنه عجز بسبب السكر، وكان منهياً عنه، وإنما ارتكبه باختياره، فلم يصبر عذراً عند ربه. فكذاك قلب الآدمي في الأصل على جيلة قابلة للحجة، مهتدية بها، وإن خلق على هذه الهيئة، وإنما عش السر، وأظلم القلب بمعصيته التي نهى عنها وارتكبها باختياره فلم يعذر، وإن آيس بفطر العش عن أنواره، وقد ورد بمصداقه الحديث عن الرسول ﷺ، ونطق به الكتاب العزيز. قال الله تعالى حكاية عنهم: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْثَنِ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]. ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨]. ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]. ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦].

٢ - وأما المتأملون فلهم مقامات أربعة:

الغشاوة، والكسل، والاستدراج، والبغوة.

وهؤلاء قوم دون الأولين في خط الخبث، فوقهم في خط الطيبة. فحملتهم هذه المزية على التأمل في أفعالهم بقلوبهم، وطلب العواقب بعقولهم، لكن خبثهم لم يدعهم يتأملون إلا لأمر الدنيا، فجوزوا بالحجاب عن الأخرى، فقاموا مقام الغشاوة، وصاروا بفطر معرفتهم سادات قومهم، وشموس يومهم.

فلما رأوا ذلك انتقلوا إلى مقام الكسل، فأراحوا قلوبهم عن جد التأمل، وطلبوا جسام الأمور بالهوينى، وأرادوا عظام الحظوظ بالمنى، فجوزوا بالإصابة، فاغتروا به، فانتقلوا إلى مقام الاستدراج، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] وقال: ﴿سَنَسُدِّجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ* وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيِّدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

فركبوا عند ذلك مطي التحكم، لا يخطر ببالهم زوال، ولا يوهمهم تغير حال، فجوزوا بانسداد أبواب المصائب، وارتداد أسهم المكاره، لا تعي قلوبهم وعظاً، وتنبو عيونهم عمى بعينهم لحظاً. فانتقلوا إلى مقام النبوة الذي كان للذين دونهم في الصفوة.

٣ - وأما المبصرون فلهم مقامات أربعة :

الغلبة، والعجب، والقصور، والغشاوة.

وهؤلاء قوم سبقوا الأولين عقلاً، فسبقوهم فضلاً، وأدركوا الأمور أكثر من دركهم، لكن الخبث فيهم أصل، فجرهم بذلك الدل إلى هلكهم، فغالبا الناس بتلك الفضيلة، وقصدوا صدّهم بالقوة أو بالحيلة، فجوزوا بالظفر، وفراغ القلب عن الحذر. فأصبحوا معجبين بأفعالهم، مستأنسين بأحوالهم، لا يرون لأحد فضلاً، ولا لاستحقاق مكرمة أهلاً، فجوزوا بمقت القلوب، وملابسة العيوب، فأمسوا في مقام القصور، وإن غلبتهم، وبدت منهم الفضائح، فجوزوا بستر ما بينها وبين نواظرهم، حتى غفلوا عنها بسرائرهم، كأنما على عيونهم غشاوة، وقلوبهم في غلاف من الغباوة، وهو أول مقام من قبلهم ممّن حرّموا فضلهم.

٤ - وأما العارفون غير المهتدين فلهم مقامات أربعة :

الكبر، والأنفة، والحمية، والغلبة.

هؤلاء قوم تجلّى صفائهم، واختفى غشهم، حتى كادت تتلاشى ظلمة الغش من نور الصفاء، وحتى لم يروا من أنفسهم إلا الضياء، ففتحوا عيون قلوبهم، فعرفوا الصراط المستقيم إلى النعيم فسلكوه، والخبث الباطن يلقنهم عقد السبق لأنفسهم على جميع الخلق.

فقاموا في مقام الكبر، فابتلوا بسابق دونهم بظاهره، وإنما فضله الله تعالى عليهم بنور باطنه، وأمروا بالإقرار لسبقه، والطاعة إياه لحقه، انقياداً لحكم الله تعالى على جميع خلقه، فاتقوا إذ عموا في حالهم عن فضل الله تعالى عليهم وحاجوا ربهم عزّت قدرته في ردهم، كإبليس حيث قال إذ تكبّر على آدم عليه السلام: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. فابتلوا بالرد عليهم من الحاكم النافذ حكمه، الماضي أمره، فحملتهم حمية الجاهلية بعد انقطاعهم في المحاجة إلى الوقاحة والملاحة، كإبليس اللعين، حيث قال: ﴿لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦]. وفرعون إذ قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]. ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨]. بعد أن ثبتت المعرفة بقوله: ﴿وَحَمِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا﴾ [النمل: ١٤]. ويقول: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. ونحو علماء أهل الكتاب في إنكار رسالة محمد ﷺ خوفاً على ذهاب رئاستهم، واعتقادهم الفضل لأنفسهم على الغيوب بما عندهم من علم الكتب، فجوزوا بالأموال، ودرك الآمال، فثاروا هنالك إلى غلبة العباد، بقوة أو بحيلة، وهو أول مقام لمن دونهم

في الفضيلة، ثم كانوا وإن كانوا خير هؤلاء الأقسام صفوة شرهم بهذه الصفوة. فأولئك ضلوا عالمين، وهؤلاء كفروا بالله العظيم مكابرين منثنين، وأولئك كفروا مغرورين جاهلين. فكان الجهل أساس الضلالة، والكبر بناء على أساس الجهالة، وما النجاة عن استطابة هذا البناء إلا بالله، فهو القادر على ما يشاء.

فصل

في المنافقين

وأما المنافقون فأربعة أقسام: المستهزون غير المباليين، المباليون غير المنزجرين، والمنزجرون غير الموالين، والموالون غير الراضين.

١ - أما المستهزون فلهم مقامات أربعة:

المرض، ثم الدنف، ثم النزع، ثم الموت.

هؤلاء قوم مرضت قلوبهم، ففقدوا الصحة في غرضهم، ولم يطلبوا شفاء من مرضهم، فصحبوا الناس على عقد المخالفة مستهزين بظاهر المؤالفة، غير مبالية من فساد القصد، وقبح إظهار خلاف العقد، فأصابوا له رواجاً حتى اعتادوه، فصار المرض لطباعهم مزاجاً. فانقلبوا إلى مقام الدنف، وهم جاهلون بقول الله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]. فاستحسنوا الزيادة على أصل اعتقدوه حسناً، وسكنوا إلى ثمرة عرفوا أصلها سكيناً، فجوزيت أبدانهم بحسن ألوانه من التهاب الحمى، وألستهم بلطف قول في الشكوى، وعندهم أن حسن اللون من آثار الصحة، ولطف القول من أنوار الحجة، فعدوا السالمين عند ذلك المرض، وأمر الصادقين هنالك فوضى، فأبدوا الهزؤ بالمغالبة، وأرادوا تحقيق القول بالمحاربة، وقالوا: نحن الملوك والأجلة، ولنخرجن من بلدنا الأذلة. فقاموا في مقام النزع مغالبيين، بقدر ما كانوا مختالين، يظنون أن عرق جيئهم من قوة يمينهم، وما شعروا أنه لانقطاع وتينهم، فكادوا ولما فعلوا، إذ جوزوا بسقوط القوة، وظهور آيات المنية، فأنكروا ما قالوا متشكين في البلية، ومتى نفع المريض شكواه إلى الطبيب، وقد جذبت نفوسهم إلى القلوب، إلا تَعَلَّ ساعته، ثم الموت. فهذا بلاء إذن في رجفة، ثم الدخول قبراً بسرعة.

٢ - وأما المتأملون غير المنزجرين فلهم مقامات أربعة:

الشبهة، ثم الشك، ثم اللبس، ثم المرض.

هؤلاء قوم شاب مرض قلوبهم صحة، فنالوا عندها بمرض يمرضهم، غير أن

المرض غالب، فلم يلحق دونهم بعرضهم، فينجاب المرض مطبوعه، والصحة برق مشرق.

فقاموا في مقام الشبهة لا ينزجرون عن هزؤ مرض الصدور، لكن لا يتلذذون بتلك الأمور، فامتحنوا بقيام المعارضة بين الحجتين، فوقفوا للتأمل وفتتين.

ثم انتقلوا إلى مقام الشك، وعاضدوا فيه أهل الإفك، فامتحنوا بترائي الرجحان لكفة المرض، فمالوا إليه، وقاموا في مقام اللبس، قد طبع عليها بكفرهم، كما قال: ﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَّا يَلِيسُوكَ﴾ [الأنعام: ٩]. فلم يروا بعد اللبس كفة الصحة، بشرهم فحلوا بمقام المرض مقام الأولين، وإن كانوا رهطاً آخرين.

٣ - وأما المنزجرون غير الموالين فلهم مقامات أربعة:

الرؤية، ثم الحذر، ثم الجبن، ثم الشبهة. هؤلاء قوم قسمت قلوبهم للمرض والصحة قسمين فأضاءت كالقمر وقد حلت سبع ليالٍ، فرأوا ما عمي عنه المستهزئ. والثاني المتأمل، فقصدوا فراقهم، ثم حذروا فراق الجماعة، فوقفوا بينهم يتأملون في عواقب أمورهم ساعة بعد ساعة، فابتلوا بالتهدد والشناعة، والخديعة، والشفاعة، فجنوا ذلك وسلبوا قوة الشجاعة فجوزوا بظلمة الصدور، وانكساف البدور، فحلوا بمقام الشبهة، وهو أول مقام من قبلهم من الفرق.

٤ - أما المتأملون غير الراضين فلهم مقامات أربعة:

خطأ التدبير، ثم التفكير، ثم الرؤية، ثم العجب. هؤلاء قوم غلب نور عقولهم مرض الصدور، فأضاء كالقمر ليلة العشر، فأبصروا الطريق وأفضاله، فوالوا أهل الحق، منزجرين عن أهل الجهالة، غير أنهم إنما أخطأوا التدبير في الموالات، لمرض وإن قل في الصدور، وضلوا عن الصدق بنقصان ما انقضى من النور، فلم يصبروا بعد الموالات عن إفشاء الأسرار، وإبلاغ الأخبار، على تقدير أنهم لو ظفروا عليهم كانت لهم يد لديهم، فأفشوا إلى قومهم ما كان في الصدور، لما كان للآخرين ظهور.

فانتقلوا إلى مقام الفكرة، يبعدون منهم سراً خطرة بعد خطرة، فازداد نقصان نور البدر، فصار كسوفاً حتى امتحن، فقاموا بين عمى ورؤية ما في صدورهم من ولاية، وهو مقام الذين كانوا دونهم في الضياء.

فالقلب من العبد بمنزلة القمر، والصدر بمنزلة العالم ليلاً، فالقمر في أصله لا نور له إلا برؤية الشمس، والعالم لا نور له ليلاً إلا بنور القمر، والقمر لا نور له

إلا برؤية الرب. والصدر لا نور له إلا بنور القلب، ولا يأس مع نور أدنى الهلاك، فإنه لا يزال إلى الكمال، ولا اعتماد على تمام نور البدر، فإنه لا يزال إلى زوال.

فالإيمان الهلالي إيمان المقصر بقصوره، والإيمان البدري إيمان المرائي بنوره، فالرياء انحراف الناس عن الله تعالى كانحراف القمر بعد التمام عن الشمس، وربما أعجب فكان كسوفاً للحال. فالعجب برؤية النفس، ولن ترى النفس إلا بين القلب والرب، كالأرض بين البدر والشمس، فينكسف القلب بظلمة النفس، كما ينكسف البدر بظل الأرض. قال الله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] الآية. وقال في المنافق: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

أقسام الناس على ما تشتمل عليه مصالح الدنيا أربعة:

العمال والتجار، والأمراء والعلماء.

فأمّا العمال فطلاب الأموال بمنافعهم، والأموال في أصلها تبع إن وجدت وهم: الحراثون، والغواصون، والحفّارون، والصيادون والصنّاع والأجراء.

وأمّا التجار فطلاب الأموال بأموالهم، ومنافعهم تبع فيها إن وجدت.

وأمّا الأمراء فهم الرعاة للخلق بالحق.

وأمّا العلماء في هذا القسم فهم الهداة إلى المصالح، كمفاتيح الأبواب، ومصابيح البيوت.

قال رضي الله عنه: إن الحكيم جلّت قدرته جعل الناس على هذا التقسيم،

وعلق صلاح بعضهم ببعض في دنياهم، ثم علق بعاقبته صلاح عقباهم فجعل النفوس أصلاً لا يقوم إلا بالمال، والمال فرع وأداة لا يوجد إلا بالعمال، وبعد الوجود لن تحصل المصالح إلا بالنقل من بلد إلى بلد، ومن يد إلى يد، ولن يتهياً النقل بغير كلفة إلى المحتاج إليه إلا لطمع التجار في الأرباح، ولا تتناسخ الأيدي إلا بأخذ وإعطاء على إصلاح، ولن يتيسر النقل والإصلاح إلا بسكون الناس، ولن يسكن الناس - وهم أطوار - إلا براع سواس، ولا سياسة إلا بالإنصاف والمعدلة، ولن تعرف وجوه الإنصاف والعدل إلا بالشرع، لأن الله تعالى أعرف بمصالح العباد، وأكرم المحسنين إليهم، فكان الوجه الأخرى ما مشرع لهم وعليهم، ولن يعرف مشروع الله تعالى إلا العلماء، وكل حزب بما لديهم فرحون لبعث همهم عليه، وإعذابه لديهم، لولاه لصاروا أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم الله تعالى، وقليل من عباده الشكور.

أولاً

التجّار والعمّال

قال العبد رضوان الله عليه: إن التجّار والعمّال طلاب الأموال. وأوفر الأسباب ربحاً، وأقلها كدحاً، وأعلاها قدحاً: التجارة، ثم الصناعة، ثم الزراعة، وأنكدها الصيد، وأكدها الإجارة.

أما الزراعة فتلجئ إلى خدمة البقر، وتبعث طول الأمل، ثم تغني ما جمع بها، قبل إدراك ما زرع منها.

وأما الصائد فيبتلى بمرافقة السباع، ومواظبة الخداع، ثم إن أصاب فكفاف، وإن أخطأ فإتلاف.

وأما الإجارة ففيها إرقاق النفس، واجتلاب التعس، وتذهب أجرة يومه في ليلته، ويبقى دائماً في عيلته.

وأما الحفّار - وهو صاحب المعادن - فيأوي إلى الجبال، وينشط إلى الآمال، ويتعنى الأهوال، وربما نبع من المكان الدفين ماء معين.

وأما الغواص فيخاطر في البحار، ويتحمل المضار، وكم أصاب أجرة مكان درة.

وأما الصانع فيعيش بين الناس، ويعمل بقياس، ويجد الكفاية من غير جد عناية.

وأكسب المكاسب تجارة حاضرة بيده، تدرّ عليه الربح في يومه وغده بلا تقدير ولا تقتير، وينمو المال نمو الزرع أيام الربيع، بين غيث وريح وطلوع، فيجتمع أوقاراً، ثم ينقلب أحكاراً، على راحة من الجسم، وامتداح من الاسم، وسكون من النفس، حتى لا تكاد توجد الأموال الجمّة إلا عند هذا الجنس.

وأما الشركة فافتضح واتضاع، وفي الإبضاع ضياع، وفي الإقراض إعراض، والنسيئة منسية، ولن تجتمع الأموال إلا بعد محافظة ومحاسبة فيما بينه وبين طالب مناسبة، وفي الاجتماع غناء، وفي الغناء طغيان، وفي الطغيان استحقاق النيران، وقبل النار ذهاب المروءة، وما بيع الحرية في المروءة إلا في الإيثار، وما الغناء إلا بالاستئثار، ولا حرية حيث لا تواضع ولا إجلال، ولا كنز ولا استخفاف إلا مع المال، فقراً عن مال أنفق المرء عمره وراحته في حيازته، حتى لما جمعه في خزانته حجبته عن الاستمتاع به طول الآمال، وخوف الزوال، وأثقل ظهره بالآثام،

وكسب له مقت الكرام، ومنزله بين الأندال من الأنام، قد أجل أمله، وعاجله أجله، وترك ما جمع بالأنفاس لعدوه من الناس، وارتحل إلى عذاب الله مع الأنجاس.

ثانياً

الأمير

وأما الأمير فعبد راع للمولى، وهو الملك الأعلى، والعصا وزيره ومعتمه، وبشيرته ونذيره، والكلاب جنده وعونه ورفده، والغنم رعيته، وهم خلق الله وبريته، وأهل البغي ذئاب يرعاهم عنهم بالدنيا، والدنيا قحبة ذات دلال، والشيطان قائد ودلال، والعقل رقيب مراقب، والملك شهيد وكاتب، وأجر العمل دار النعيم، وجزاء الزلل دار الجحيم، ورزقه مدة عمله له مضمون، ومقدار أجله لرعيه عنه مكنوز.

فهذا عبد حمله الله رعاية أغنامه مدة لم يقدرها له أيامه، وعضده بعصا قوية، وأرفده بكلاب جريئة وكرر عليه: إياك والقحاب، وغنمك والذئاب، وضمن له رزقه، وطلب منه حقه، ووعدته الجزاء على الوفاء، وواعده بالنيران على الكفران، وجعل عليه رقيباً يقاربه، وشهيداً يراقبه، فذهب العبد الراعي يفي بوصية سيده، قانعاً بما قسم له رغباً في مواعده، ورهباً عن توعده، في مفازة لا فوز فيها بأمل، بين رجاء ووجل.

فجاءه الشيطان وأوحى إليه، ارق متن هذا الوادي، يهب عليك الشمال فتقوى، والغنم بين عينيك كما أمرك ربك، ولا تقم بين الوادي فيصيبك ضرر من الحرّ عسى تمرض، وتضيع الغنم، ثم لا ينفعك ندم.

فراه العبد قريباً من الصواب، فجعل يصعد بتفكر وارتياب، وعيناه إلى الشاء، وهو يخاف عاقبة الإنشاء، فإنه خلاف صوري، فإنه يترخص بما يرى من وفاق سري.

فلما استوى على المتن هبت عليه الشمال والصبأ، من جانب اليمين والقفا، وتنسم نسيماً زاد فيه من القوة جسيماً، وطاب له بينهما الروح، فألهم الشيطان التفاته إلى مهب الريح، ليعرف للتنسم، فما فيها ضياع النسم فأطاعه بها، فإذا البساتين فيها أنهار جوار، ورياض وجوار، ودساتين وميادين، وكؤوس من معين، وقصور ومغان، وألحان الأغاني من خيرات الغواني، ينظرون إليه بأعين مراض، ويؤملنه وصلاً بلا إعراض، يسحرنه بكسر الألحاظ، ويأسرنه بلطف الألفاظ،

يمشيين بغنج ودلال، ويبدن بهيج جمال، يرتعن في نعيم قد أحس منه بالنسيم، فصار لالتفاتة لا يخطو نحوهم حذراً، ينهاه الرقيب وهو بين أن يراجع أو يجيب نظراً.

ووقف إليهن والشيطان يقول: إن هذه شجرة الخلد وملك لا يبلى، وإن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وإنك لا تظماً فيها ولا تضحى. وما لك بعدها إلى ربك من إياب، ولا عليك فيما تذر من حساب، ولئن رجعت فهو كريم وهّاب، فلم يزل به حتى أزله، وسكن إلى ما يدب له كاذباً، ثم نزل له فأقبل نحوها، ثم رجع، وأرسل نفسه ثم منع، والرقيب يذكره الضمان، ويحذره عاقبة العصيان.

فلاحظ الشاة، فإذا هي بين النجم والماء، ورحله عند عصاه، فقابله بفقاه، على أن يقضي ممّا رأى منه، ثم يعود إلى مرعاه، فتكون الأوطار من النعيم مقضية، والأنعام بعد ذلك مرعية، وسيعاين الكلاب عصاه ورحله، فيظنوه معه، فينبوا حراساً، وتخشى الذئاب كلابه فلا تجترى افتراساً، ورجا عفو المولى عمّا عصى، اعتماداً على الكلب والعصا، واتكالا على لعلّ وعسى، فانصبت قدماه إلى الصبب، يتخطى بهما سبباً بعد سبب، حتى اطلع على باب البستان، فإذا ازدحام وجدال، واضطرام وقاتل، بين أمثاله من العبيد، أولي بأس شديد، كل كاد يرتعيها وحده، فيزاحمه الكل بما عنده، وقد اشتعلت فيه نار الشهوة، وسلب رقيب كل قوة.

فجادلهم بنفسه، وقاتلهم ببأسه تأسيّاً من ربه، وشغلاً بخطبه، فجاعت الكلاب، فأنت الرحل والعصا، فما ظفرت بالطعام، فجردت وطمعت في الأغنام، وسارت فيها كالذئاب، ومرقت وندت منها كالوحوش، وتفرقت وضاعت أي ضياع، وصارت نهبة للسباع.

وانتهى أجل العبد عند سيدها، فبعث إليه رسولاً بموعده، وهو بعد في جد النزال، وما حظي ممّا رأى بجد ووصال، فشمت به من ببأسه جادلهم، وخذله من نفسه جادلهم، فندم على أول قدم، ولات حين ندم.

ومر بمكان الشاء، ولا شاء ولا رغاء ولا نباح ولا ثغاء، وإذا فيه زئير وعواء، فتحسّر وثاب، ولات حين متاب، حتى انتهى إلى مولاه، فسكت حذراً عمّا فعله، فشهد الشهيد بكله، فأمر الأشداء بحبسه وتعذيب نفسه، فقالوا له: وما سلكك في الحبس؟ قال: طاعة النفس، ولعلّ وعسى، وأنى ومتى. فقالوا له: ألم يأخذ عليك ميثاقاً غليظاً؟ ألم يبعث معك رقيباً وشهيداً؟ قال: بلى، فقالوا: احسأ فيها ولا تكلمنا، فأنت من أهل لظى.

ألا ينظر الأمير أنه من أي العبدین، وإلى أي الوعدين، هل اعتصى بوزيره،
وسها عن أموره.

هل خلى بين الرعية وجنوده؟

هل تفرقوا خوفاً من عبيده؟

هل لها بالملاهي ومعه رقيب ناهٍ، وشهيد غير ساهٍ؟

هل قدر له أشياع مدته؟

هل طمع في امتناع بعد مدته؟

هل له اضطبار على عذاب النار؟

ألم يأن أن يعلم أنه سكن مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين له ما فعل الله
بهم، وضرب له الأمثال، فلا يمكر فيمكر الله به، وإن كان مكره لتزول منه
الجبال، ولا يحسبن الله غافلاً عن عمله، وإنما يستدرجه بالإمهال، ويؤخره ليوم
تشخص فيه الأبصار، وتهتك فيه الأستار.

أليس من كان قبله كان أوفر منه عدداً، وأكثر عدداً، فاستمتعوا بخلاقهم قليلاً
ثم اندثروا لفراقهم رحيلاً، أو طمع في خلود وهيهات، فإن الموت لا بد آتٍ، وما
هو كائن فكأن فقد كان. والله المستعان وعليه التكلان.

فصل

في الوزير

الوزير عصا الأمير، لا يصلح للاعتماد عليه إلا بعد قوة وأمانة وكفاية وسداد
عقل وذكاء، ورفع احتمال ولطف ودهاء، وجراءة واحتيال، وإيثار وحلم،
وإشفاق وحكم.

فإن الضعيف يخيب^(١) بصاحبه، والخائن عون عليه لطالبه، والعاجز قاصر
عن بلوغ واجبه، والمعوج يضل عن مطالبه، والعقل كالشهاب لا تميز بدونه،
والذكاء صفاؤه، ولا ضياء إلا بعونه، والاحتمال لدرك الآمال رأس المال، والدنيا
قدر والناس فيه، والشهوات تحته نار، والرفق محراك، لولا العلاج به لفار،
واللطف كالماء يوافق كل غذاء، والدهاء تسوية الصدور على الأعجاز، ولا قوة
بجراءة، والحيلة رد الخطة لضمائر يرفج الآراء، والإيثار بترك الاختيار، وهو فرع
الجور، وأصل الزهد، ونفس الكرم، ولا عمل إلا بالعلم، وما عمل به بغير حلم،

(١) أي يخدع.

وفي الإشفاق أمان من النفاق، وإيدان بالوقاية.

أشقى برجل جمع هذه الخصال، فتسربل بالكمال، وتجلل بالجمال، واختار الوزارة، وهي عصا الإمارة، إن أطاع أميره باع بدينه دينه، ورهن بشكه يقينه، ويأمن الأمير بمنن نابه، ويغضب من الله شابه، قد أفرغ له وسعه في تهذيب الملك والولاية، وبذل جهده لجمع الزحف وإجراء الكفاية، فما له راحة لازدحام الأشغال، ولا به أنس لاضطرام الأوجال، واعتاض لنفسه بعد بيعه الأخوة ملاحاة الرجال، من بذله راغب في مكانه، وصد لأمره طامع في سلطانه، وخامل علومه منشورة، وميت في تدبيره، وفي إجلال هذا إذلال مثله، قيد هذا حظه، ما استقامت الوزارة، واعتلت الإمارة.

وربما كثرت الأطماع، وما بيده اتساع فهاجت الأتباع، فنظر الأمير إليه وإليه نظراً، فأسلمه إليهم حذراً، فمثلوه انتقاماً، وبدلوا عدوه به إكراماً، ثم مزقت تركته تمزيقاً، وصرفت أسرته تفريقاً، وهو رهين رمس^(١)، وقرير نفس، أوبقته الأوزار، وحشرته إلى النار، وخذله الشقيق، وخانه الصديق، ومركبه العملاج تحت منادئه، وخليلته الفناح زفت إلى معاديه.

هذا إن أطاع رأي صاحب، وإن رده بنوره الثاقب غضب، فسيق الإحسان والنقمة والغفران وعذبه بصلب أو قتل أو حبس أو عزل، ثم لا يجد بعد العزل أماناً من أمثاله، خوفاً منهم على طلوع سعده عسى وإقباله، فيظل خائفاً بعد الأمن، مخذولاً بعد الرفعة، فقيراً بعد اليسر، حسيراً بعد الدعة، بلا فكاك عن أسر الهوى، والإمساك بالتقوى، فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، والله سميع عليم.

ثالثاً

العالم

وأما العالم فهو خليفة الله القدير، كالوزير الذي تقدم ذكره مع الأمير، فيحتاج إلى تلك الصفات بعد العلم بالسنن والآيات، وإنه حافظ في الدنيا، ودليل العقبى، والناس كلهم بمنزلة القافلة، والطرق عادلة وجائرة، والمنزل منزلان: خراب، وعمران.

وطريق العمران قفر مسالكه، باد مهالكه، ويزهر على طريق الخراب رياض

(١) أي قبر.

غذاها حُور الرباب، أو غير العذاب، بين غدران تدفقت، وميادين اتسعت .
فكيف حال ذليل غرّته الرياض والغدران، فعدل عن طريق العمران، وأحبّ
العاجلة، وترك الآخرة، والعيون إليه ناظرة، فاقتدوا بفعله، وإن زجرهم بقوله،
فساروا فيها صباح يومهم، فعاد النبات الزواج هشيماً تذروه الرياح، والمنزل خراب
مأوى للذئاب، ولا وجه للرجوع، فقد صفا الربيع، وفاقّت الربوع، قائم على
الضلال والإضلال، ولم ينفعه السلوك تحت الظلال .

ما أشق سلوك مستقيم، بين جنبتيه ستور فيها أبواب مفتحة بالنعيم، وعليها
سرر، لا تحجب عينيك عمّا فيها من سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق
مصفوفة، وزرابي مبثوثة، وحور عين، وخمر لذة للشاربين، وولدان كدّر مكنون،
وغناء وثرء، مكان ثوي، ولهو ودر مكان عمر ونكد، وما على الأبواب من
بواب، ولا دونها حجاب، غير داع على الصراط يقول: أسلكوه ولا تميلوه،
وجوزوه ولا تقيلوه، ولا ترفعوا الستور، فما ترون إلا الغرور، وإنما لله حدود
وراءها أخدود .

ولكم لدى منتهى الصراط من النعيم المقيم، بساط عرضه كعرض السموات
والأرض، فأسرعوا ولا تضيعوا بالوقوف أيامكم، وأوضعوا والسالكون بين أصم
وسميع، وعاص ومطيع، ولا طاعة إلا بعد سماع، ولا نفع في سماع على ابتداء .
وقفنا لله لا تباع الداعي، وصبرنا على الدواعي، ولا وكلنا إلى قلب ساه،
ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فصل

في الزاهد^(١)

إن الزاهد للعالم بمنزلة العالم لولي هذا العالم، فما استقامت الإمارة إلا

(١) قال أهل التصوف: اختلف الناس في الزهد: فمنهم من قال: الزهد في الحرام لأن الحلال مباح من قبل الله تعالى، فإذا أنعم الله سبحانه على عبده بمال من حلال وتعبده بالشكر عليه فتركه إياه باختياره لا يقدم على إمساكه بحق إذنه . ومنهم من قال: الزهد في الحرام واجب وفي الحلال فضيلة، فإن إقلال المال والعبد صابر في حاله، راض بما قسم الله تعالى، قانع بما يعطيه، أتم من توسعه وتبسطه في الدنيا، وإن الله زهد الخلق في الدنيا بقوله: ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ﴾، وغير ذلك من الآيات الواردة في ذم الدنيا والتزهيد فيها . ومنهم من قال: إذا أنفق ماله في الطاعة، وعلم من حاله الصبر، وترك التعرض لما نهى الشرع عنه في حال العسر، فحينئذ يكون زهده في المال الحلال أتم، ومنهم من قال: ينبغي =

بشورة أهل العلم والرشد، ولا استنار العلم إلا بقدوة أهل التقوى والزهد، ولا زهد في شيء لشيء إلا بعد معرفة معايب المزهود فيه، ورغائب المرغوب إليه.

فبئس الزهد بلا علم، سلكه في وادي الردى، فهو يظنه طريق الهدى، فانهمك في الدنيا، وهو يحسبه التقوى، وحث على سبيل اللطى على أنه يبلغ جنّة المأوى، كلا، سيسأل عمّا قدّم وآخر، وسيستقر في سقر، حرمة الزهد خير عاجلته، وحرمة الجهل آجلته، ظل في عذاب، وحلّ بعقاب فكان آخر الآخرين وأشقى الأولين والآخرين.

ثكلت الدنيا أمها، فهي أم الورى، وبئست الأم الدنيا، لا ترضع الولد إلا بأجر، ولا ترضى بأجر دون العمر، فالولد يشفق عليها لرضاعها، ويقلق لامتناعها، وفي الطمأنينة إليها هلاك، ثم عذاب، وفي التزوّد منها ملاك، ثم ثواب.

أف على نفس ساهية عن أجرها، طامعة في درها، تحسبها أمّاً وهي تسقيها سمّاً.

قلت: شفقة الظئر على الرضيع، والولد يظنها أعطف الجميع، لولا الوصي لآثرت الظئر، وصاله ماله، وجلبت عليه بالجوع إحالة، غير أن الصبي يبغض الوصي، ويخالها وادي الولي، وربما غلبا عليه حتى إذا جاء أوان فصاله انفصل عن درها وماله، وناداه فبخلت بالجواب، فندم ولات حين إياب، فبقي في عذاب الجوع، يتمنى خروج الروح، لا تنجيه وفاة، ولا تطيب له حياة.

ألا إن الوصي العقل، والمال العمر والظئر الدنيا، والولد كل الورى، والفصال المنية، والندم يوم حشر البرية، والجزع النار، وما له غيرها دار، لا يموت فيها ولا يحيا، وقد أفلح من تزكى، وذكر اسم ربه فصلى، وأطاع عقله فلا يؤثر الدنيا حتى إذا انفصل عنها، واتصل بأرباح الطاعة، وانفصل عن أهوال الساعة، طاب مع الريح محياه، ويساق إلى مناه، إلا أن الطاعة في التقوى، والربح جنّة المأوى، تحت سدرة المنتهى، والمنى ما تشتهي النفوس، وتلد العيون، بل ما لم تسبق إليه الظنون، خلود ولا موت، ووجود ولا فوت.

= للبعد أن لا يختار ترك الحلال بتكلفه ولا طلب الفضول ممّا لا يحتاج إليه ويراعي القسمة، فإن رزقه الله سبحانه وتعالى مالاً من حلال شكره وإن وفقه الله تعالى على حد الكفاية لم يتكلف في طلب ما هو فضول المال. فالصبر أحسن بصاحب الفقر والشكر أليق بصاحب المال الحلال.

قال سفيان الثوري: الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ ولا بلبس العباء.

نَبَّهَ اللَّهُ القلوب عن منام الغفلة، وأقام النفوس في فراش الغطاء، وفَقَّنَا لتجارة لا خسر فيها ولا خسار، وألحَقْنَا بالصالحين الأبرار إنه كريم بار.

فصل

في التقوى والمال وأعمال الوزارة

ما سعى عاقل إلا لفوز، ولا فاز إلا متقٍ، ولا تقوى إلا بالعلم، ولا علم بغير عقل، ولا عقل تحت أسر الهوى، فنعوذُ بالله من الردى، ونسأله التوفيق والهدى، إنه رب كريم، ملك رحيم.

وليست التقوى كلها في الإعراض، واجتناب الأعواض، فما حَرَّمَ اللَّهُ تعالى على عباده طيباً ولا أنزل إلا للخصب صيباً، وما خلق صنوف الأموال إلا للخلق، وأحلَّ ما أخرج لهم من الزينة وطيبات الرزق، وإنما تعبد الربا إلى بيع حلال، ونهاك عن الإمساك عن المواساة بفضل المال، فغنى لا يطغيك محمود، ومال يكسوك مجداً محسود، لك من مالك هنيء الغذاء، ولذيذ الغذاء والعشاء، وألوان الشراب، وحسان الثياب، وأبكار الحور، وتشديد الدور، وبث العبقري، وصف النمارق، وخرق الأنهار في ملتف الحقائق، واستخدام العبيد، ومفاكهة الأحرار، واستعباد الرقيق، ومنادمة الأخيار، وأفراه الدواب، وتقوية الأسباب، واسترقاق العتاق بالمواهب، واستحقاق الإعناق بالרגائب، والعتاق من النار، والتلاقي بالأبرار.

فلا حسب الجود بالموجود، ولا غنى مثل إحسان الظن بالمعبود، بخ بخ، مال صالح أولى عبد صالحاً، فلم يجعل يده مغلولة إلى عنقه فأصبح مذموماً مهجوراً، ولا يبسطها كل البسط فيقعد ملوماً محسوراً، فصار حسباً لنسبه، وشرفاً لعقبه، واستبدل الرفقة مكان الخمول، وابتذل المتعة بمحل الذبول، ووفت فيه الظنون، ونظرت إليه العيون.

ولعمري إن لذته فيما يعطي ويغني أشهى من لذة غيره بما يحوي وتستغني، قد طيبه الإعطاء أصغى من طيبة العطاء، مع ما يعقبها من كريم الأحداث، وجسيم المثوبة ولن يخلد من المرء - وإن علا أمره في الدنيا - إلا ذكره.

فأما المال فعن قليل سيزول وعمره يبقى حديثاً، فالحسن في الدنيا حسن في الأخرى، والقبيح فيها على الطاقة الكبرى، وليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى.

نماء المال أوجب جميل الثناء وجزيل الجزاء، وشرف في دار الفناء والبقاء، هذا لك من المال.

أعمال الوزارة:

وإن اتفقت لك إمارة بغير جدال، وأنت من أهلها فخذ برأسها ورجلها، واطمع في خيرها، ولا تقنع بغيرها، فإنها أعلى مراتب الدنيا بعد الرسالة، ولا تصغ إلى من عابها بجهالة مهرها بأمانة وشفقة، وزفها إليك بلين وقوة، وقم عليها بجد ويقظة، فإنك متى لم تشفق على الرعية تهاونت بهم فيما يجري، وختهم من حيث لا تدري، وأبغضتك الرعية وخالق البرية، وهنت من كل ناحية شكلية، وأطمعت فيك الأعادي، وأشعلت ناراً بكل نادي، ومتى لم تتيقظ لهم من قلبك بضر، ما نفعك حذر، وظفر بك عدوك في أقبح أحوالك، ونزعك عن ملكك ومُلكك ومالك، ومتى لم تكن لهم تفرقوا عنك، ومتى لم تعد تغالبوا عليك، ومتى خنت لم تكن راعياً، ومتى لم تحذر بت ساهياً، وإن لم تجد كنت واهياً، واستشعر الحزم - أمنت أو خفت - واكتحل بالعزم أردت أو أردت، ومر بالجزم نهيت أو ألزمت، وعليك بالصدق أو وعدت أو وعدت.

وإياك والدعابة فإنها تسقط المهابة، ودع الخرق فإنه فرع الحمق، وعليك بالرفق فإنه طول الخلق، وجانب الخلاف فإنه حب الفشل، وادراً التوافي فإنه أخو الكسل.

وإياك والميل لقربة، أو العفو لمكانة، فإن الله تعالى أعلى مكاناً، وأقرب شأناً، واتخذ لنفسك وزيراً من الفضل كبيراً على ما قدمنا ذكره مشيراً، فلا بد من مستشار، فالبناء على الإعجاب برأيك تأسيس على شفا جرف هار، فيهاب ربك في يد من قام لك بالمرصاد، لا تتكل عليه فما من قوة الوزارة ما يقوم قناة الإمارة، مع أن العبد غير مأمون خيانتته وإن ظهرت أمانته وديانته.

السياسة المالية والإدارية وواجبات الحكم:

وعليك بجباياتك بذوي الأحساب، فإنهم إن لم يتقوا تكرموا، ولأمانتك وخزائنك بذوي العلوم والآداب، فإن لم يقتفوا تعظموا.

وأعد لأعدائك من أشدائك كهولاً ونحولاً وشباباً شجعاناً، فتثبت أقدام الشبان بالشيب، ويقوى بذوي الشباب أولو المشيب، وأجر الكفاية عليهم، وأحسن بعثها إليهم، وأرجح كفة الخوف على الأحداث وأنسهم بالطفاف بعد تغيير

وأرجح كفة الرجاء على الشيوخ، وطيب نفوسهم بتوقيع، واتخذ مواكب وقدماً بأيدي مقانب، وملك أزمة آرائهم أدهامهم، فلا يبقوا سوى إن فجأهم سجال، أو يتفرقوا أيدي سباتهم إن انكشفت لهم حال.

واجعل لك أربعة بيوت أموال تضع فيها ما جبي إليك العمال. في أحدها الخراج وفيما معناه ممّا وجب بقوة السيف لأهل السيف والقتال ومن بمعناهم ممّن فزع نفسه للدين من الأنام، أو عمارة دار الإسلام.

وفي الآخر الزكاة وما هو بمعناها ممّا أوجبه الله تعالى للفقراء ومن بمعناهم من الضعفاء من الأموال المعدة للنماء.

وفي الثالث خمس الغنائم وما في معناه من خمس الركاز والمعادن.

وفي الرابع المجولة من نحو اللقطات والتركات.

ونصيبك من المال نصيب غيرك من الرجال، كفاية بالمعروف، لا سرف ولا تقتير. فإن المال للناس وأنت قيم، فلا تحبسه ملكاً أو ملكاً، فيورثك في الآخرة هلكاً.

ثم سس طبقات حشمك وطبقات الرعية بالعدل، فإلى العدل انتهت السياسة، وأسى ظنك فيهم، فهو الحزم وعنوان الكياسة، وذلل رقابهم عن اقتدارك، وأسر قلوبهم بمحبة من إثارك.

ولا تدع الوزير أميراً، ولا صاحب الجيش إلا مأموراً.

وأوص المقانب بالخير لأهل المواكب، واحفظ عليهم المراتب، فما هلك امرؤ عرف قدره، ولا سلم قوي تعدى طوره، ولا ترخص لأحد في الرعية فإنها مرعية.

وأمن الأسفار على التجار بالأمصار والعمال تنفسح فيك الآمال، وتتسع عليك الأموال.

ولا تأذن العامة عليك لدانٍ أو منزلة ففيه سقوط الحشمة، وأدبهم للانتصاف ففيه بقاء النعمة.

وقرب العلماء وأطعمهم على أمورهم تهتد بنورهم. وإياك عالماً عصى مولاه لندياك، وباع آخرته بأولاك، فإنه هالك مخدوع، وتابع وليس بمتبوع.

وإياك والبغي فإنه أصرع لصاحبه، ووزير السوء فإنه أفضح شيء لخاطبه، واقنع من الإمارة بنفاذ أمرك، وعلو قدرك، وعظم أجرك، فلن يصلح لها من همته

بطنه وماله، أو قصره وعياله، ولم يكن قضاء بحثه في إرضاء ربه، وامتناء ظهر العلو والرفعة في رد العز والمنعة.

واعلم بأن الذي أنعم بها عليك يراك فيما أمرك ونهاك، ويحاسبك ولو على مثقال ذرة يوم الدين، ويسألك عن ظلم من تحت ولايتك بيقين، فإنهم لا يخلون عن ظالم يأمرك فعليك وباله، أو غاشم بسكوتك وتقريرك فعليك أثقاله، أو سامع لنهيك، متأيد على ظلمه بعونك، فأنت من المستهزئين، أو مفترس رعيتك وأنت من الغافلين، أو آمن بقوتك عن تعميرك فتكون من العاجزين، فتخسر لتوكيلها وأنت غير صالح لها مع الظالمين.

ومتى لم تتفق لك الإمارة وأنت على كمال، ورب خصال، وظفرت بمثله أميراً، فضم إليه وزيراً يقر بإرشاداتك جناحه، ويثمر لآلتك صلاحه. واكتس بالصيانة، وتحل بالأمانة، وضم أوصافها مَرَّ ذكرها إلى الديانة، ولا تغتب لديه خلقاً، ولا تسئ لديه خلقاً، ولا تفش عليه سرّاً، ولا تلقنه إلا خيراً، ولا تخف ذهاب منزلتك بصواب لا يهواه، فهو رأس الخيانة، ولا تطعه على معصية ربك ففيه ترك الديانة، ولا تقرب من طلب منزلة لخدمة نفس أو مال، فقل من بذلها لمثلك وهو على كمالك.

واطلب الكامل ولو في سم الخياط، ولا تقنع بالأذلة عندك بقبك، فإنهم سقاط، وإن ميلك لداعية الكمال على بساط رث، تحت فسطاط غث واهي الأطناب والأوتاد، ذليل القامة والعماد.

وإياك والكذب، فإنه قبيح بطراز قبح من الشيطان، أو التغافل عن أمر خولفت فيه فإنه عجز، وما أقبح العجز مع الإمكان.

وإياك ثم إياك أن تطلب حمداً بما فعلت، أو شكراً على ما بذلت، فما نجا من أحب من الناس محمداً، أو خاف منهم مذمة، فإنه قاد برجم المسالك كلها إلى المهالك.

وإياك والحسد، فما كمل من حسد، ولا ضر بمن قصد، وسيبعثه ذلك على خفاء أولي الكمال، وإن أقوى أساس الإخلال، مع ما يحترق باطنه بشره، ويتأذى داخله بضرره.

واجعل عوضك في الدنيا عن راحتك وقضاء شهوتك: أن يشار بحسن الإشارة، وتعتدل على يديك أسباب الإمارة، وغرضك الجسيم من أمانتك ودينك: أن تحشر مع المتقين إلى الرحمن وفداً، ولا تساق مع الظالمين إلى

جهنم ورداً، فما صلح للوزارة من جعلها سبباً لقضاء الشهوات، وأكل الطيبات، والتسلط على الأنام، والإحسان إلى مادح والإساءة إلى ذام. وفقنا الله لتهديب الأعمال، وبلغ بنا منزلة الكمال إنه ذو الإكرام والجلال.

يا ابن آدم، بشرى لك بشرى، فقد خلقت لك العاجلة والأخرى، غير أن الدنيا للزاد، والعقبة للمراد، وإن ربك لبالمرصاد، ومن يهد الله فما له من مضل، ومن يضلل فما له من هاد.

كتاب المحنة والحيلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق الدنيا للابتلاء، والآخرة للجزاء، فصفت الآخرة عقاباً أو نعيماً، ولم يكن أحد الوجهين في الدنيا عن الآخرة سليماً، بل كان لصور النعيم معاني العقوبة، ولصور العقوبة معانٍ محبوبة، في الحظ الديني حظ الدنيا ضرب من الدين، تثبيتاً للامتحان على كل إنسان. والصلاة على من تم بشريعته هذا البيان.

قال رضي الله عنه ورحمه الله: كنا ذكرنا لك أيها الأخ في مبدأ كتابنا هذا: أن الآدمي ممتحن في ذاته بين نفس أمارة بالسوء، وروح أمارة بالخير، وأن الابتلاءات مبنية عليها، وتكلمنا بقدر الكفاية فيها، وهذا الكتاب منا لبيان المحنة ممّا قسم للآدمي وعليه في العاجل دنيوي وديني، وإنا بادئون بالأقسام الدنيوية للنفوس، فهي ثابتة من طريق محسوس، فنقول وبالله التوفيق:

إن للنفس أقساماً يتصلن بها من المكروه والمحبوب، وإن المحبوب ضربان: سلامة أجزاء البنية المحسوسة من الآفات التي تنقص الكمال من كمه، أو فوات ظرف أو اختلال، وسلامة معاني البنية عن الآفات التي تنقص الاعتدال، من زمانة ومرض واعتدال.

وإن المكروه ضربان، وهما للمحبوب ضدان، فكانت الأقسام في حق النفس أربعة في الأصل، وسائرهما بناء عليها.

١ - فالضرب الأول من المحبوب تعلق به نوعاً نعمة دنيوية: أحدهما لا صنع لنا

فيه، وهو: سرور القلب برؤية ذلك الكمال الذي هو محبوب مطلوب، فإن حصوله أمر طبيعي لا صنع لنا فيه، وإنما يكون دفعه بتكلف. والآخر لنا فيه صنع، وهو استعمال ذلك الكمال لما يصلح له وتقوم به منافع بدنه.

وفيه نوعاً ضرر في مقابلة النفع: صDAC يلحقه بطلب الناس منه ما يصلح له، فعلى هذا جبلة الخلائق، لا صنع للكمال في قصده الناس إياه طمعاً فيه إذا لم يكن بدعوة منه إليه. وضرب آخر لنا فيه صنع، وهو ضرر الإجابة لهم والرد.

وكذلك هذا في ضرب كمال المعنى في النفس في غير الدنيا دعوى، وفيه أيضاً من الحظوظ الدينية مثل ذلك.

أما النوعان اللذان هما نفع فأحدهما لا صنع لنا فيه، وهو الوقوع في فتنة الكبر برؤية نفسه قوية سوية، والآخر لنا فيه صنع، وهو طاعة النفس في موجب الكبر، ليصير إلى إنكار العبودية.

وأما الضرب المكروه الذي هو ضد المحبوب ففيه:

ضرباً ضرر في حق الدنيا. أحدهما لا صنع لنا فيه وهو مخامرة الغم لحلول النقصان، فإنه من دواعي جبلة الإنسان، وإنما الإخراج بدفع. والآخر لنا فيه صنع وهو العمل بذلك من التأسف على ما فات.

وفيه ضرباً نفع: الراحة من صداد الناس، لا صنع لنا فيه، والآخر لنا فيه صنع وهو تتبع نعم الراحة بزوال سبب الصداد، ليستديمه راضياً به، غير مبدل بحيلة، أو كاسراً غم النقص بترجيح عوضه من الراحة عاصياً حكم الجبلة.

وأما نصيب الدين ففيه ضربان من النفع، أحدهما لا صنع لنا فيه وهو النجاة من فتنة الكبر. والآخر لنا فيه صنع وهو: تعرف نعمة النجاة بالاستدلال، وترجيحها على منافاة من الكمال. وفيه نوعاً ضرر: بغض من قسم له ذلك بموجب طبعه، والآخر لنا فيه صنع وهو العمل به أعمى عن نفعه.

وأما الحظوظ المنفصلة عن الأنفس من الأشياء المخلوقة في العالم لنا

فضربان:

مكروه ومحبوب، وإنما الأصل في المحبوب ما يتعلق به البقاء، فإن البقاء رأس المال في الباب وأنه لضربان: ما يتعلق به بقاء النفس من الأغذية، وما يتعلق به بقاء الجنس من الإناث للذكور. فالأغذية ممّا تتقوى بها الحياة الموجودة، وكذلك سائر الأموال ممّا يرغب فيها بالشهوة تبعاً لها. والإناث ممّا يستفاد بهن حياة معدومة.

والمكروه ما يضاد هذين الضربين: الأدوية في مقابلة الأغذية، فإنها ممّا تضعف القوى، وتغير الحلى، وأسباب المنية في مقابلة النساء والنسل، فإنها تفتت الحياة من الأصل.

وهذه الأقسام في هذه المعاني إنما تخرج بعد التناول، فأما قبل التناول فالأموال كلها سواء محبوبة، وكذلك النساء وضدها عدمها بأعيانها، وإنا بادئون بأقسام الوجود، ثم بأقسام التناول وبالله التوفيق فنقول:

إن في الأموال كلها نوعي نفع في حق الدنيا:

أحدهما لا صنع لنا فيه وهو قوة النفس بالقنية، وحاجة النفس إليه، فإنه من عمل الجبلة، والآخر لنا فيه صنع وهو الانتفاع بالقنية بالتناول تنعماً، والبذل تكراً. وفيه ضربا ضرر: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو الوقوع في حاجة الحفظ، فإنه من عمل الطبع حفظ المحبوب حتى يحفظه من نفسه، فتلزمه مرارة العدم، وإنها لأمر مع الوجود، ويزداد عليه غم الزوال مع بقاء غم الطلب، فإن الطلب مع المال لأشد، وأنواعه أكثر منه بغير مال، مع ما ربح فيه بعض الناس بأن سألوه فرد السؤال.

وفيهما ضربا ضرر ديني: الوقوع في فتنة المال، فإنه شاغل للقلب، مطيع للنفس ما لنا فيه صنع، فإنه مجلوب الطبع، وفي شغل القلب وطغيان النفس أعظم ضرر بالدين. والآخر لنا فيه صنع، وهو طاعة النفس على طغيانها، وتسليم القلب لأشغاله. وفيه ضربا نفع ديني، أحدهما لا صنع لنا فيه: حدوث الرغبة في خدمة من أوجب له ذلك، فإنه من طبع حاله، ونفوذ حكم الله في حياة من تعلق في الأزل حياته بماله. والثاني: التأمل في معرفة من أوجب له ذلك، وإقامة حكم الله تعالى بالبذل لنا فيه صنع.

وأما النساء ففيهن ضربا نفع في حق الدنيا:

سكون النفس بالإلف، فإنه من دواعي الجبلة. والآخر لنا فيه صنع، وهو العمل بمقتضى السكن، وما يدعو إليه من إتيانها مهواها طمعاً في زيادة الخلّة. وفيهن ضربا ضرر: الوقوع في ميدان الغيرة، وغم الفراق، لا صنع لنا فيه، فإنه من مقتضيات الفحولة والمحبة لا صنع لنا فيه. والآخر لنا فيه صنع، وهو العمل بموجب الغيرة، حتى يغار عليها من نفسها، وبموجب المحبة حتى يصون نفسه عنها، فإن نهاية الغيرة في حبس المغار عليه حتى لا يرى، ويفقد خوفاً من مكروه ونهاية المحبة من التعظيم للمحبوب حتى لا ينال، بل يعذر عنه في التعظيم. فإذا الغيرة تقدم السكر، والمحبة تحرم الغرض، والمكروه الذي هو نسب الغيرة. ممّا تسلبه نعمة المحبة.

وأما في حق الحظ الديني ففيهن ضربا ضرر: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو زيادة العدد بزيادة نفس أخرى، فإن أصل النفس عدو بخلق الله. والآخر لنا فيه صنع، وهو طاعة نفسها على ما تدعو إليه كطاعته نفسه. وفيه ضربا نفع: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو انغماض العين عن سكن الغير، بسكون القلب إلى الغد، فإن

ذلك من باعثة طبعه. والآخر لنا فيه صنع، وهو العمل من حيث الإمساك بالمعروف، فإنه الألفة داعية إلى ذلك.

وأما المكروه وهو العدم، ففي عدم المال ضرباً ضرراً في حق الدنيا:

أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو مسكنة النفس، ولزوم الخضوع بلزوم الحاجة، فإنه من بواعث الجبلة، إلا أن يرد بالتكلف. والآخر لنا فيه صنع، وهو كشف الحال على نفسه بالسؤال والتكفّف.

وفيه ضرباً نفع:

أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو راحة القلب عن حفظ المال لا صنع لنا فيه. والثاني لنا فيه صنع، وهو التأمل إلى أن يرى رجحان نعمة الراحة على نعمة الثروة، فيتسلى فيه بالحظ الأوفر شاكراً، ويستديم الحال مختاراً. وفيه ضرباً نفع في حق الدين: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو النجاة من فتنة المال. والآخر لنا فيه صنع، وهو التأمل في نعمة النجاة عن الشكية بالعدم، فيهل بالشكر لله تعالى مكان الشكوى، ويقوى فيه مستغنياً مكان المال بالمولى.

وفيه ضرباً ضرراً ديني: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو حرمان ثواب انتفاع الناس بماله. والآخر لنا فيه صنع، وهو الشكوى فيه والجزع، إلى كسوفٍ بباله.

وفي عدم النساء ضرباً ضرراً في حق الدنيا:

أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو وحشة التعزّر عن الإلف، فإنه موجب الطبع، والآخر لنا فيه صنع، وهو القلق في الوحشة، وطلب ودها عمّا ليس له، فيكون لهلاكه. وفيه ضرباً نفع: أحدهما لا صنع لنا فيه. وهو خفته عن أعباء المحبة والغيرة. والآخر لنا فيه صنع، وهو التأمل في فساد غرضه في طلب السكن من النساء.

وفي هذا العدم ضرباً نفع في حق الدين: النجاة من شر النفس الثانية وعداوتها، لا صنع لنا فيه، والآخر لنا فيه صنع، وهو التأمل في نعمة النجاة، ليؤدّي به ذلك إلى تحصيل غرض السكن بما لا يعنته ولا يخذعه، وهو العلوم، والتأمل في ضرورها، وعبادة الله. وفيه ضرباً ضرراً أيضاً: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو حرمان ثواب صلة النكاح. والآخر لنا فيه صنع، وهو التصبر عليه.

محنة تناول الغذاء:

فأما أقسام حظوظ تناول، ونبدأ بالأموال، ونخص الأغذية منها، فإن بها

بقاء الحياة الموجودة فنقول: إن في تناولها ضربي نفع في حق الدنيا: أحدهما لنا فيه صنع، وهو قضاء شهوة البطن بالتناول. والآخر لا صنع لنا فيه، وهو قوة النفس، وانقلاب المتناول لحماً ودماً، بمنزلة أجزاء المتناول، فإنه من عمل الطبع، وفيه ضربا ضرر: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو انقلاب خبث الغذاء نجاسة، تنفر عنها الحواس، وتستقذرها النفوس، حتى يصير به بمعنى الكنيف. والآخر لنا فيه صنع، وهو الإخراج بضرب فعل يقصده.

وفيه ضربا نفع في حق الدين: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو قيام حكم الله تعالى في بقاء النفس إلى أجلها متعلقاً بما يحصل لها من القوة بالغذاء، ولذلك خلق الله تعالى التناول بشهوة البطن، لتكون داعية إليه من كل نفس مؤمنة أو كافرة، فيمضي حكم الله تعالى باختيار من العبد على ما أمضاه، أقر به العبد أو جحده. والثاني لنا فيه صنع، وهو استعمال تلك القوة في طاعة الله، من قواه وأيده. وفيه ضربا ضرر ديني: أحدهما الوقوع في فتنة قوة النفس لا صنع لنا فيه، فإنه من فعل الطبع. والآخر لنا فيه صنع، وهو طاعة النفس على ذلك بسوء الاختيار.

محنة تناول الأدوية:

وأما أقسام تناول المكروه وهي الأدوية، ففيها ضربا ضرر في حق الدنيا، وهو نصب النفس: أحدهما متعلق بفعله، وهو لحوق مرارة الدواء بالشرب. والآخر لا صنع لنا فيه، وهو سقوط القوى الغريزية بغلبته ضدها، وهو طبع الدواء. وفيه ضربا نفع: أحدهما لا صنع لنا فيه، طهارة الطبائع بمزايلتها فضول القوى الفاسدة. والآخر لنا فيه صنع، وهو الانزجار عما لزمه شرب الدواء من الإسراف في التناول، وتعدى حدود الطبع فيه بما ذاق من المرارة، كراهة للعود فيها، وهذا النفع إنما يحصل بصنعنا، وهو التأمل في السبب الذي ألزمه شرب الدواء المر، ثم الكف عما أمسه الضرر، وإنه النفع الذي يكون بالانزجار عن السبب المفسد، أكثر من النفع الذي أصلح بعد النساء، مع ما ربح من النجاة عن مرارة الدواء.

وفيه ضربا نفع في حق الدين، وهو نصيب الروح: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو النجاة من دعوة النفس إلى اقتضاء الشهوات بفتوة الطباع في سقوط شهوة الدواء. والآخر لنا فيه صنع، وهو الإقبال على قهر النفس وخلافها حال ضعف قواها، ووجوب طلب الصانع، إذ لو كان الأمر بيده، أو إلى طباعه، ما التزم

شرب ما يضاد طباعه تحريماً لنجاتها عن فساد لحقها من تناول ما رغبته إليه الطباع. ومتى علم أنه مقضي عليه، وأن لا أمر بيده، وجب عليه طلب الحاكم، لتكون إجابته أمر الحاكم ووجوب الانقياد لحكم عن معرفته بحكمته.

وفيه ضرباً ضرر ديني: نفرة الطبع عن الحاكم، مثل نفرة نفع عن الطبيب، فإن عرفه المريض بشافيه، لا صنع لنا فيه، فإنه من عمل الطبع. والآخر لنا فيه صنع، وهو طاعة الطبع عليها، حتى تحمله على الرد عليه تعنتاً، ونعوذ بالله من الخذلان.

محنة تناول النساء :

وأما أقسام التناول من الضرب الآخر من المحبوب وهو النساء فيتعلق به نوعا نفع في حق الدنيا: أحدهما متعلق بفعلنا، وهو اقتضاء شهوة الفرج. والآخر لا صنع لنا فيه، وهو انخلاق الماء نفساً مثله، ليقوم به حياة العالم، وعمارة الدنيا. وفيه ضرباً ضرر: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو انكسار قوى الفحل، وانخلاق الولد في بطنها، وفيه إلى أن تلد ضروب ضرر كثيرة لا صنع فيها للمرأة، وضرر آخر لنا فيه صنع، وهو ما يلزم الرجل من النفقة، والقيام بالمرأة، وما يلزم المرأة من الاحتباس عند الزوج، والرضاع والتدليل بالتمكين من ذلك الفعل.

وفيه ضرباً نفع في حق الدين: فأدى حكم الله في بقاء هذا العالم من طريق النكاح، فإنه متعلق بذلك الفعل، حكم من الله تعالى به، ولذلك علق بالشهوة، لتكون داعية إليه، فيقع لا محالة على ما قلنا في فصل تناول الغذاء، ولهذا لم يحل اقتضاء هذه الشهوة من الأدبار التي لا تكون سبباً في النسل، وإن كانت من حيث قضاء الشهوة سواء، كما لا يحل تناول ما لا يتغذى به وإن اشتهاه، بخلاف موجب العقل. والآخر لنا فيه صنع، وهو الوقوف على معرفة الصانع، أو عجزه عن إيجاد الولد، يعرفه حال عجز آبائه فيه، ولأنه لا بد من قادر سواهم يجوز إحالة الإيجاد إليه. ولن يحصل نفع هذا الضرر إلا بضرب من الاستدلال والنظر، لذلك يلزمنا دعوة الأولاد إلى الله تعالى وهدايتهم. وفيه ضرباً ضرر ديني: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو زيادة العدو بزيادة نفس ثالثة، فإنها منه دعوى، وشر الأولين في المعنى. والآخر لنا فيه صنع بجهالة زائد.

محنة تناول أسباب المنيا والقتال :

وأما أقسام الضرب المكروه في مضادته، وهو أسباب المنيا، من مغالبات الناس والأسباب التي لا تتم إلا بالقتال والقتل. ففيها ضرباً ضرر في حق الدنيا،

وهما: فوت الحياة التي هي رأس المال بالقتل والقتال. والآخر ما لنا فيه صنع، وهو انزجار النفس عن الطلب خوفاً من المنية قبل اقتضاء الأمنية، والبقاء تحت الفقر، والعيش المر. وفيه ضربا نفع: اتساع الدنيا عليه بالقتل، وصيرورة الدنيا من الأصل. والآخر لنا فيه صنع، وهو الولاية والملك، والأمر والنهي.

وفيه ضربا نفع في حق الدين: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو ظهور قهر الله تعالى على كل إنسان، حتى لم يتمن متمن من العقلاء لنفسه الخلود، ولا ادعى التأييد، والثاني لنا فيه صنع، وهو التأمل في القاهر، ليصل إليه، فيعرفه ويقوم مقام المقهورين، والعمل في محل المأمورين، وقطع الأمل بحلول الأجل. وفيه ضربا ضرر: شرب الدواء من جنسه، فإن هذا المكروه عند العبد فوق ذلك في نفسه.

محنة سلامة ظاهر البنية عن القبح والدماثة:

أما الأقسام التي هي للأرواح، ممّا يوجد في الدنيا على تلك المراتب والأنواع. أما التي هي متصلة بنا: فسلامة ظواهر البنية عن الألوان الكريهة، والهيئات السمجة، إلى جمال وحسن وملاحة ونحوها، وسلامة معنى المبنية عن الآفات المكروهة من الجنون والعته والغباوة، إلى عقل وذكاء وفطنة ونحوها، فضربا السلامة محبوبان، وضربا الفوت مكروهان.

فأما المحبوب الأول ففيه نوعا نفع في حق الدين: صفوة المحبة لمن صور فأتّم، ثم ألطف، فإنه من حكم الجبلية، والآخر لنا فيه صنع، وهو طلب هذا الصانع، والعمل بما تدعو إليه المحبة على ما ذكرنا في قسم سلامة النفس، فإنه ذلك بعينه، إلا أنه إلى اللطف أقرب. وفيه ضربا ضرر في حق الدين: صيرورته عوضاً لأنواع ما يشتهي من مجالسة ومصالحة ونظر وغيرها، وتأذية بها. والآخر لنا فيه صنع، وهو الإجابة لتحصيل الفرص أو الرد، وفيه ضربا نفع دنيوي: سرور يلحقه بكماله، وكونه مقصوداً، لا صنع لنا فيه، والآخر لنا فيه صنع، وهو التصدي لما طلب منه ليجمعهم عليه، ويصرفهم تحت رأيه، ويجعلهم أبناء لنفسه.

محنة إصابة الظاهر بآفات القبح والدماثة:

وأما المكروه منه ففيه ضربا نفع في حق الدين: أحدهما لا صنع لنا فيه، ليرى نعمة النجاة خيراً ممّا فات. وفيه ضربا ضرر في حق الدين: شوب يقع في المحبة بمسافات، مكان الصفرة المتعلقة بالوجوه، ولنا صنع فيه، وإنه لمن عمل الطبع، والآخر لنا فيه صنع، وهو التكاسل في طلب القاسم، عملاً بالشوق الواقع في المحبة، فيؤدي به الجهل إلى الكفر.

وفيه ضربا ضرر في حق الدنيا: انكسار القلب بعدم السرور المتعلق بالقسم الأول، لا صنع لنا فيه، والآخر لنا فيه صنع، اعتقاد الخسران والتأسف عليه، والسخط. وفيه ضربا نفع دنيوي: الراحة عن فتنة الوجود، لا صنع لنا فيه، والآخر لنا فيه صنع، وهو التأمل فيما رزق من الراحة بسبب العدم، ليكون سبباً للرياضة، ثم ترجيح هذا الغرض الذي خلص له على ما فات بما كان نفعه للناس لا له، ليكون سبباً إلى الشكر للقاسم جلّ جلاله.

محنة سلامة معنى البنية عن الآفات المكروهة:

وأما المحبوب الآخر ففيه ضربا نفع في حق الدين: تميزه عن البهائم به، وكمال حد الإنسانية فيه، وصيرورته أهلاً للجزاء والبقاء، لا صنع لنا فيه. والآخر لنا فيه صنع، وهو العمل بما دلّ عليه العقل، حتى يعرف نفسه وخالقه، وسبب للنجاة عن الغباوة، والترقي إلى درجة الولاية والملك، ولترك الدنيا للآخرة، وطلاق النفس بالمولى. وفيه ضربا ضرر ديني: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو صيرورته حامل أمانة الله تعالى، مبتلياً بأدائها، مجازي على وفاق عمله، والآخر لنا فيه صنع، وهو الخيانة فيما ائتمن، والفرار عن أدائها.

وفيه ضربا نفع للدنيا: أحدهما لا صنع لنا فيه، وهو الصلاح لما ينال بالأداء من حظوظ الدنيا. والثاني لنا فيه صنع، وهو استعمال العقل في حظوظها، فإنها استفيدت بالجبلة العقلية، لا بالقوة النفسية.

محنة إصابة معنى البنية بالآفات المكروهة:

وأما المكروه ففيه ضربا ضرر للروح: خروجه عن حد الإنسانية، وعن أهليته لأن يخاطبه الله تعالى بأداء عبادته، لا صنع لنا فيه، وحرمان ثمرة ما يتعلق بأداء الأمانة لصيرورة فعله هدراً قبل آلة العلم. وفيه ضربا نفع: سقوط أثقال الأمانة عنه، وراحته عن العمل والحفظ والأداء، ولا صنع لنا فيه. والآخر لنا فيه صنع، وهو أن يفعل ما يشاء في المدة بلا إثم ولا عهدة.

وفيه ضربا نفع للدنيا: الفراغ عن غم التكسب والتحفظ، وهذا لا صنع لنا فيه. والآخر لنا فيه صنع، وهو التمتع بالموجود بلا فكرة. وفيه ضربا ضرر للدنيا: أن يحجر على ماله، وأن يتلفه بفساد أعماله.

وأما التي هي منفصلة فنصيب الأرواح ممّا في العالم: الأعمال المشروعة، دون الأعيان المخلوقة. والحياة في حق الروح: حياة القلب بنور العقل، لا حياة

الجسم بالقدرة على الفعل . والله تعالى سمي هذه الأعمال أمانة، وقد عرضت على الإنسان فحملها، كما خلقت له الدنيا بما فيها فقبلها .

وهذه المشروعات نوعان: محبوب، ومكروه . وأصل المحبوب: ما يتعلق به حياة القلب من نفسه، من معرفة الله وما يتعلق به بقاء حياة قلوب جنسه من التعليم والتبصير والعظة والتذكير .

فمعرفة الله تبقي القلوب الحية بنور الفطرة حياة في نصيب الأرواح، وتزداد بفروع الإيمان نوراً وإيقاناً بعد إيقان، وبالتعليم تحيا قلوب موتى في حق الأرواح والمولى .

والمكروه ما يضاد الضربين من الأفعال التي نهينا عنها، وهي ضربان: ما يضعف هذه الحياة من المعاصي بالفروع أو الهوى في العقود، وما يضادها من الجهل والكفر . قال الله تعالى: ﴿ **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٢] . أي: كافراً فأحييناه بالإيمان، إذ كان ميتاً بالجهل، فأحييناه بنور المعرفة .

وهذه الأقسام لا تصير لك إلا بالتناول منها، كالأقسام في حق النفوس التي هي منفصلة عنها، وتناول القلب هذه الأقسام [يكون] بالنظر والاستدلال، كالأقسام التي مضت، كان تناولها بالاستعمال والابتدال . فنقول وبالله التوفيق:

المحنة في معرفة الله بالقلب:

إن القلب إذا استدلّ بالحجج حتى عرف الله تعالى وما شرعه أصاب نوعي نفع للحال: التقوى بالله القوي بصدوره، والعزة في الناس لعلو قدره، هذا مما لا صنع له فيه، فالجبله عليه .

والآخر استعمال قلبه لاستنباط الحكم ممّا علم حتى يفقه فيه ويكمل، وينتشر شعاعه فيمن قرب منه أو بعد . وفيه ضربا ضرر بدني: الوقوع في محافظة حدود الله، فإنها لازمة بأمر الله تعالى . والمحافظة على التعدي طبعاً، بعد التزام الأول شرعاً .

والآخر بصنعنا، وهو حمل النفوس الطاغية على الوقوف على الحد، وبعث القلب على النظر بجذو، حتى يميز التقوى عن الهوى . فالدنيا دار حجة ودار شبهة، والنفوس كيادة تشوب وتروب، وصيادة تبدو وتغيب، وأن التعب بهذا النظر فوق النظر لأصل العلم، ودائم إلى أن يموت، وتتعلق به منازعات الورى معه ممّن هم منسوبون إلى الهدى، لوقوعهم في شيء من الهوى، وإنها أضر من منازعات من جهل وكفر .

وفيه ضربا ضرر ديني: الوقوع في فتنة العلم، فقد ذكرنا أنه يزداد بالعلم للباطن قوى تصلح لكسب الأولى، كما تصلح للآخرى، وتجلي الظاهر يقبل الورى عليه، راجين في أمورهم إليه، وفتنة الناس والجاه فوق فتنة المال والجاه. والآخر بصنعنا: اختيارنا الإمامة بينهم، والزعامة عليهم، حتى نكون أرباباً، والعياذ بالله من فتنة العلم، فهي أقوى من المال أسباباً.

وفيه ضربا نفع ديني للحال. أحدها بلا صنع: وهو وقوع الرغبة في طاعة الله تعالى على الاستقامة طبعاً، فقد أعلى منزلته بين خلقه بما أفاد له من العلوم شرعاً. والآخر بصنعنا، وهو نشرها على الناس حتى يصير مولاهم، واستحق عليهم طاعة في أمور آخرتهم ودنياهم.

المحنة في الطلاب والأتباع:

وأما الجنس الذين هم بمنزلة النساء في الباب الأول ففيهم ضربا نفع بدني. إذا أقبل عليهم بالدعوة إلى الله تعالى بعد الاستقامة في نفسه لله تعالى سكنت النفس في صحبة الجنس طبيعته.

والآخر: معاملته إياهم معاملة أب برّ، وسيد حرّ، فقد أحبهم بإحسان مولاهم إليه فأطاعوه، كما أنهم عبيد بأمر الله وبعثهم عليه.

وفيه ضربا ضرر: الوقوع في ميادين الأسى على من زاغ، وميل من زاغ، فقد أراد استقامتهم لحق، دعا لإقامتهم على الصدق، فليأس طبعاً من ارتدّت إليه إرادته، وفاته من سعيه بغيته. والآخر بخعه نفسه بعد الأسى على ضلالتهم، وتحسره على سيئ أفعالهم، كما قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ أَكْثَرَ بَعْثًا وَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وفيه ضربا ضرر ديني. أحدهما: ازدياد حمل الأمانة، فقد كان عليه حمل نفسه، وصار عليه بحكم الله تعالى الآن حمل جنسه، والآخر بصنع: من أدنى مداينة لإمكان العشرة، كما يكون من نفسه لإقامة العشرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن تَبْلُغْنَاكَ لَفَدَّ كِدَّتْ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤].

وفيه ضربا نفع ديني. أحدهما: اشتغال بصرف القلب عن النظر فيما لا يعنيه بالنظر فيما يعنيه عن أحوال جنسه عن محبة فيه. فالنفس عند الخلوة في الأغلب تورث الوسواس الرديئة، وتوقعه في كل بلية، وكذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام: «الواحد شيطان، والاثنان شيطانان، والثلاثة ركب»^(١). والله تعالى حرّم الرهبانية في الإسلام. هذا نفع طبيعي.

(١) رواه أبو داود في كتاب (الجهاد).

والآخر بعلمنا، وهو النصيحة على حقيقة، حتى يثبتوا على طريقته، فيصيروا له أتباعاً، خادمين أشياعاً، إلى كفاية بأعمالهم، ثم إبقاء الذكر، وإحراز الأجر بمن اقتدى بأفعالهم، على ما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «من سنَّ سنةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»^(١).

محنة الجهل بالله :

وأما المكروه وهو الجهل بالله ففيه ضربا ضرر بدني: استكانته طبعاً، إذ وجد نفسه محتاجة إلى ما في أيدي الوري، متمنية إصابة ما تهوى، عاجزة عن تنفيذ المراد إلا بالرجوع إلى العباد. والآخر بصنعه، شكواه إلى من يبغضه بطمعه، أو يشمت به في دفعه.

وفيه ضربا نفع بدني للحال: إصابة الحرية عن رق العبودية، والآخر عمله بما يهوى، في نعمة الدنيا، وصحة الوري.

وفيه ضربا نفع شرعي للدنيا: البراءة عن ضمان ما أتلّف من المال، أو قتل من الرجال، ما دام حرباً. والآخر بصنعه، وهو المعاهدة مع أهل القوة بالإسلام، ليصير منهم في حق أحكام الدنيا شرع المولى، على أن يترك وما يهوى ممّا ليس للمسلمين فيه أذى. وفيه ضربا ضرر شرعي: هدر نفسه، وصيرورته عرضة للتملّك في جهله بحكم الله في حبسه. والآخر بصنعه، من إيذاء المسلمين وتكذيب الرسل، والخصومة عن دينه، والنصرة لقومه.

محنة ترك الدعوة لله :

وأما النوع الآخر وهو ترك الدعوة إلى الله مع الإمكان، وتقرير الناس بالترك على معاصيهم، بإيثار العزلة عنهم، ففيه ضربا ضرر بدني: الوحشة في الخلوة عن الجنس، فإنها من نتائج طباع النفس. والآخر بصنعه، قلقه في الوحشة، حتى يصير إلى الدهشة. وفيه ضربا نفع بدني: الراحة [عن] احتمال متباين الأخلاق. والآخر بصنعنا، وهو إسكان قلق الوحشة بعوض الراحة.

وفيه ضربا ضرر ديني: أحدهما الوقوع في وساوس النفس على ما مرّ ذكره، وإنه أمر طبيعي، والآخر بصنعه، استحسنه لحاله عجباً بخلوته، وغيبة الناس على العشرة، حتى يصير ممقوتاً.

(١) رواه مسلم في كتاب (الزكاة) باب (الحث على الصدقة على ذوي الحاجة وأجر من سن فيها سنة حسنة) حديث رقم (١٠١٧).

وفيه ضربا نفع ديني: خفة أمر الجهاد، فقد بقي مع نفس واحدة. والنجاة من فتنة النفس. والآخر بصنعه، صحبة الله تعالى بالعبادة والذكر، مكان صحبة الداعي بالتعليم والنشر.

محنة استقامة القلب لله:

وأما أقسام ثمرات المباشرات عملاً بما علم، فعلى نحو أقسام المباشرة من الأول تناولاً لما ملك.

أما النوع الذي فيه حياة قلبه، فإذا عمل به حتى استقام لربه أصابت الروح نوعي نفع: نقلة الروح بمنيته مكان تفكه الناس بتناول المال بشهوته. وصيرورة العالم مرآة لقلبه، تربه أينما التفت وجه ربه، وهذه كرامة من الله تعالى بغير صنعه، فصار العالم له قلباً، إن ازداد الجسم بتناول الغذاء طولاً وعرضاً. وفيه ضربا ضرر: أحدهما: بطبع وهو تولد خبيث العجب بقرب المنزل، كخبث النجاسة من الأغذية، وضرر بصنع وهو الجهاد لإخراج العجب بالدخول تحت إيوان المنة.

وفيه ضربا نفع للبدن: قيام حكم الله تعالى بإيتائه رزقه من حيث لا يحتسب، ولم يتعن له ولم يكتسب، والآخر بصنعه وهو: أكله كيف يشاء رغداً ما عاش أبداً. وفيه ضربا ضرر له: عزوفه عن الغذاء والعشاء بسكرته في اللقاء. والآخر بصنع وهو: التصبر على محبة لما هو فيه.

المحنة في عقوبات الصالحين:

وأما أقسام تبعات مباشرة المكروه من هذا الباب فعلى ضروب أقسام الأدوية مكان الطعام والشراب. فتبعات مباشرة المكروه عقوبات عجلت في الدنيا للزجر كالأدوية المرة فيما مرّ، فنقول وبالله التوفيق:

للبدن ضربا ضرر فيما يستوفى من التبعات. أحدهما الألم بلا صنع منه بضرب الإمام جبراً. والآخر بصنعه: السخط على حكم الله ليزداد به ألمه جهلاً، وله ضربا نفع: السلامة على مثله بالانزجار عن سببه طبعاً بصنعه، والتنبيه للتأمل ليقف على قبح فعله فلا يعود إلى أصله.

وفيه ضربا نفع للروح: أحدهما بلا صنعه، وهو النجاة عن هوى النفس بخمود ناره بما لحقه من الألم وضراره. والآخر بصنعه: الظفر عليه وقد خمدت ناره، وسكنت أشراؤه. وفيه ضربا ضرر للروح: قوة القلب طمعاً عمّن أذاقه

الضرب شرعاً، كنفرته في الباب الأول عن الطبيب الذي سقاه الدواء وإن عرف فيه الشفاء. والآخر بصنع لنا وهو: خروج النفس مكابراً إذا القلب وجد القلب نافراً حتى يرده عن الله مجاهداً.

المحنة في الدعوة:

وأما أقسام المباشرة من المحبوب الآخر بالعشرة والدعوة ففيه ضربا نفع للروح: إصابة الجاه في الوري، والآخر بلا صنع منه: هداية القلوب بعلمه حتى صاروا أحياء كقلبه. وفيه ضربا ضرر حالي: ضعف قوة الخلوة بالمولي، وسخنة العين بعشرة الوري طبعاً، ثم الجهاد فيه بأمر الله طاعة له وطوعاً، وحمالة مؤنتهم كرهاً.

وفيه ضربا نفع للروح: بقاء حياة القلوب بالتعلم خلفاً بعد سلف إلى يوم القيامة، ولذلك علّق الله التعليم بضرب شهوة في النفوس، ليكون داعياً إلى الله وباعثه عليه كشهوة الجماع فيما مضى من الفصل الذي هو لهذا مثل التعليم بصنعنا. وحياة القلوب بصنع الله ما لنا فيه صنع كحياة النطفة في الأرحام لقول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]. والآخر بصنعنا وهو: شكر الله تعالى على ما يرى نفسه سبباً لحياة القلوب بالدين والمعرفة. وفيه ضربا ضرر للروح: ثبوت العداوة بينه وبين مخالفه ديناً، فإنها تبعث طبعاً. والآخر لنا فيه صنع من الجهار.

محنة الدعاة إلى الله من غير العلماء:

أما أقسام مباشرة ضد ما قلناه فدعاة الخلق إلى الله تعالى من العلماء الذين هم علماء اسماً لا فقهاً وعلماء، أو علماء حقيقة لا عقيدة ولا طريقة، لأن العالم اسماً لا معرفة وعلماء لا يكاد تقع دعوته إلا على سبيل الإضلال، لأنه ما عرف الحق، وما بعد الحق إلا الإضلال.

والذي يعلم ولا يعتقد العمل به، بل هو على العمل بهواه، وإن علم أنه خلاف هواه فهو شر من الجاهل، لأنه يضلّ قصداً أو عمداً، والجاهل يضلّ غفلة وسهواً. وكان إبليس حيث عرف أن الله تعالى هو الحق، ولكن اعتقد العمل بهواه، وكذلك فرعون على ما أخبر الله تعالى عنه وحكى.

فهؤلاء قوم قد جعلوا العلم ذكر الله آلة لدعوة الناس إلى أنفسهم ليتخذوهم أرباباً، كما قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُءُسَاءَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

[التوبة: ٣١]. وقال: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٩]. فهؤلاء قوم ما فسدت الأديان ولا تبدلت السنن إلا بهم، وإنهم من الشياطين الظاهرين والعياذ بالله رب العالمين، فيموت القلب بالعلماء اسماً، وتلين بالعلماء الآخرين.

فيه ضربا ضرر: الجهاد بالحيل لصيد الناس، وضرر موت القلب بذهاب نور العلم بظلم الوسواس. وفيه ضربا نفع للنفس: أن يكون رباً عالياً موقراً بين العامة الذين ظنوه عالماً بلا صنع منه. والآخر بصنعه: يأمرهم وينهاهم، ويستعبدهم كأنه ربهم.

وفيه ضربا نفع للروح: عرفان عجزها عن الهداية إلا بربه، وإنه نفع له بغلبة النفس عليه بلا صنع منه. والآخر له فيه صنع: الالتجاء إلى الله تعالى مستغيثاً، فذلك سبب إصابة الظفر. وفيه ضربا ضرر: اليأس والقنوط في حاله، فإنه طبيعي. وضرر العقيدة على ما أشار إليه طبعه ونفسه فيكون كفرة، وكان لو رد ما أشار الطبع وقع ما وقع بهمة النفس عفواً.

هذا ليعلم العبد أن الأحوال التي تختلف عليه جبراً من الخير والشر سواء، فيرجى بها كيفما دارت فلا يضيعه قلباً بالسخط، ولا يخسر عاقبته بالقلق لأعمال من النفع والضرر سواء للحال، فلا يخالف ربه بلا فائدة ولا يحرم نفسه خير الطاعة بلا عائدة، وما التوفيق إلا الله.

فصل

في الحيلة

أمّا بعد، فقد علمت أيها الأخ أنك عبد فقير مأمور مسجون، وأن حظوظك من الدنيا كلها سرب جبرها، ومدفوع نفعها بضرّها، وأنت قد علت همتك فسعيت للأمد الأقصى من الحرية والإمارة والملك والغنى لتخرج عن نقصان الحال إلى ذروة الكمال، وتصفى حظوظك من الشوب، ولا تنال إلا بعد زوال الدنيا، وعمل على طاعة المولى، فأقبلت على العمل، واستهنت بالزائل إلى أجل، فأبشر بالأمد الأقصى.

قد استمسكت بالعروة الوثقى راحتك، لستر ما هو للحال بتسمية الشرع إصر وأحمال، فما الحيلة بفسحة إذا لم تكن عذراً، ولا الستر بزميم إذا لم يكن كفرة، فاحتل لستر العبودية بحسن الرضا بالقسمة، فلا يظهر معها أثر القهر، وتنقلب إلى

رحمة . واستل لستر الفقر بضمان مولاك لبر كفايتك ، فذلك أجدى وأكفى ممّا يعده الجاهل من الغنى ، واحتل لما عليك من الأمر بالمسارعة إليه قبل حين ، فتكون ساعياً عن مشيئة ، والنظر إلى ما فيه من الكرامات فتكون واصلاً إلى كل أمنية . واحتل لستر الحبس بما في الفكاك عنه من الأنس . واحتل لستر ما فيه من الكرامات فتكون واصلاً إلى كل أمنية . واحتل لستر الحبس بما في الفكاك عنه من الأنس . واحتل لستر ما في الحظوظ من الضر بترجيح جانب النفع ، والترجيح لعمل التفرد في الدفع .

واعلم أيها الأخ أن العالم كله خلق للمخاطبين وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين . والإنس من بينهم أضعفهم حيلة ، وأظلمهم طينة ، وقد أمروا بالسجود لآدم لفضله ، فازداد الملائكة قرباً من الله بحسن الانقياد للأمر ، ولعن الشياطين بما أظهروا من الكبر ، وأمّا الجن فهم أمة لرسل الإنس ، وما أظهر الله فضل آدم إلا بعلمه ، والعلم كسير بنظر العقل ، والنفس حجاب ما يقدر العبد على دفعه إلا بحيلة .

فالنفس بهواها غلبة جبلة ، فكانت الحيلة رأس مال الآدمي للظفر على أطوار البشر ، بها تقهر المعتدين الأقوياء ، وتفضل المقربين من الأولياء ، وبها يروض نفسه ، ويسود جنسه ، ويتيسر عليه أمره ، ويشرح بالنور صدره ، ويملك للحق قلبه ، ويرضى بالصدق ربه .

ولن يملك العبد عنان الحيلة للحق إلا بجهد النفس على خلاف عادة عامة الجنس ، وبذلك العناء والفناء فضل سائر العالمين من الجزاء . فمنهم من لم يسقمها فعملت بهواها ، ومنهم من استغنوا عنها بصفاء جواهرها وقواها . فالجزاء على العمل من الحكمة بقدر العناء له ، والفناء فيه ، ولهذا كان الأنبياء عليهم السلام أعظم الناس بلاء ، كما كانوا أعظمهم أجراً .

فهذا بيان أن الحيلة للآدمي هي رأس المال والترقي إلى ذروة الكمال ، غير أن النفس الأمّارة بالسوء تشارك الروح الأمّارة بالخير في الاستعمال ، وتخلط الخير بالشر خلط الخمر بالماء الزلال .

فإياك أن تغفل عن خلطها ، فالتمييز بعد الخلط عسر ، والحفظ أيسر منه بكثير ، وكما يفضل الآدمي الملائكة بغلبة روحه نفسه بحيلة عقلية وشرعية تفضله البهائم بغلبة نفسه على روحه بحيل عقلية وبدعية ، ولست بقادر على ما دعوناك إليه إلا بربك الكريم . فدواعي النفس ظاهرة ، ودواعي الروح باطنة . فعليك بجهادها أبداً ، عارفاً بعجزك ، متأيّداً بربك ، مجاهداً بأمره ، موفقاً

بنصره، فقد ضمنه الله تعالى لمن أخلص له بسرّه، واطمأن إليه بصدّره، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾
 [العنكبوت: ٦٩]. ويقول: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
 الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]. ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق: ٣].

كتاب الدعوة والرؤية والبشارة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أكرم عباده بالطينة الطيبة والصفية، والصورة السوية الدافية، وخصهم بالدعوة بحجج داخلية خفية وحجج خارجية دونهم جلية، وهداهم إليه برؤية الملكوت قلباً، وأقر قلوبهم برؤية الملك سرّاً.

والصلاة على الرسول المكرم بمنزلة المشاهدة بعد منزلة المجاهدة، بنور كان الماضون به عروفاً له أشياء، والباقون فروعاً له أتباعاً، فأضحى به قلباً يطيعه الرجل، ولا يعصيه الرأس، وعلى قرابته سبباً وعترته نسباً.

قال العبد وما توفيقه إلا بالله: إني ذكرت أيها الأخ من حديث النفس والروح، وكيفية الجهاد والذي امتحنا به في الدنيا للوصول إلى الأمد الأقصى، ما الذي كان مدخلاً لهذا الباب الذي انتهى إليه فصل الخطاب. فالقلوب صادفناها وحشية عن الأرواح، تألف النفوس ما يمكننا قيدها للأرواح إلا بسحر، ولا نسحر عيونها إلا بتقريب ولطف، متبركين بدعوة خالق الخليفة بعد نقلهم من منزل إلى منزل إلى الحقيقة.

فقال: لقد علمت القصد من الطريقة، وأقلقنتني بما قلت، فقد كنت على أنك ذكرت لي كل دقيقة.

قلت ولله المنة: إن الله تعالى خلق الدار دارين، الدنيا دار شبهة وحجة وفناء على سبيل الابتلاء وعن تدبر واختيار، بلا مشيئة لبشر، بل بأمر الله الأكبر مقرون بقدر وحكم ماض عليهم في أصل القسمة واجب من الحكمة.

والآخرة: دار خلوة ويقين وجزاء، على وفاق عمل العبد للمتقين على ما يشاؤون ويشتهون، وللكافرين على ما يشاء الله مما يكرهون.

فالداران خلقتا لأصناف أربعة:

الملائكة، والشیاطين، والجن، والإنس. الإنس - والله أعلم - هم المفضلون إذا أقاموا الحقوق، واستقاموا على الطريق - على ما قلناه من قبل،

وجرى الكلام فيه فصلاً بعد فصل - فصار إذا خلق العالم كله للإنسان - والإنسان خلق وعليه معرفة الرحمن بلا شك - على تصديق وإيمان وإيقان عن نظر واستدلال بالآيات، لا عن جبر حق عليه. ذلك شاء العبد أم أبى بحكم الله الأعلى، ثم إسلام لأمره بلا تمتع، وإخلاص له بعمله بلا تصنع، ثم دعوة خلقه إليه للعبادة بلا كسل ولا فشل ولا هوادة. وذلك لأن الصنع بلا عاقبة حميدة عبث، وعلى فناء، بعد أن حمدت عاقبته عجزاً وسفهاً، وتعالى مبدع هذا العالم عن العبث والعجز والسفه، وما للصنع في الشاهد عاقبة حميدة، عقل الأقوام مصلحة الصانع به في حاله، أو ظهوره بذلك الصنع ليعرف بجلاله، وتعالى الله عن الأولى، فتعينت الأخرى. ولمن تقع المعرفة إلا إذا تفكر بقلبه، واستدل بخطبه، ولن تتم المعرفة إلا إذا أيقن، ولن تثمر إلا إذا أسلم، ولن تطيب إلا إذا أخلص، ولن تعم إلا بدعاء، وما لغير الإنسان ممن يحسه آلة معرفة الغائب عن الحواس.

فاعلم أن هذه المعرفة مطلوبة من الناس وغيرهم، لئلا يكون الخلق بلا حكمة عبثاً وسفاهة. ثم هذه المعرفة وجدناها حاصلة لبعضهم دون البعض - ولن تثبت - والله لا ينال بالحواس إلا بنظر عقلي فيما هو حجة - ولن تفوت - وهم عقلاء إلا بشبهة، ولن يتنوع الفعالان والأمر واحد إلا بعدم الجبر.

ومن تأمل في نفسه وجد لها دعوة إلى موافقة الهوى، ومخالفة الهدى، فيعلم أنه مبتلى. ولما أيقن الإنسان بفنائه، والدار مخلوقة له علم أنها على سبيله. ولما تغيرت الأحوال، وفاتت الأغراض بغير رضاه، أيقن بقدر ماض بدليله. ولما علم أنه مخلوق للمعرفة، وقد فاتت عن البعض، بشبهته، وسأوى العارف في النعمة، وهو قبيح في الحكمة، أيقن بدار أخرى ذات حجج ظاهرة تنفي الشبهة، وآيات قاهرة تبطل التفتت والمنعة، ليكونوا عارفين إياه كما خلقهم لها الله، هي جزاء أعمالهم على الوفاق على ما توجبه الحكمة، وتدل عليه الحجة، باقية على ما تقتضيه القدرة نعمة للمتقين فتكون ممّا يشتهون، ونعمة من الكافرين فتكون ممّا يكرهون، لا صبر للمتقين عن تعظيم الله تقديساً وتمجيذاً، وثناء، ولا بالكافرين عن تعظيم الله تضرعاً واستكانة ودعاء، فهما جهتا التعظيم، وما لهما ثالثة، فتمت البغية المطلوبة، العاقبة المحمودة بما حكم الله تعالى، فما كان يوجد من التعظيم بالإكرام إلا باب، وما كان يحسن على الابتداء الحمل على التعظيم بالعقاب، وما كانت تتنوع الأعمال لولا الابتلاء بالهوى والهدى، ولما صحّ الجزاء لولا إلزام الأمر بلا كره من الأداء، ولا جبر من المولى.

فقال الأخ :

فكم الشبهات بين سر القلب والمعرفة؟

قلت : أربع : قدرة أوتيت النفس فعلاً ، وولاية ثبتت على الدنيا يداً وملكاً ، وزينة ونعمة أصابت عيناً بالمال وحساً وعزة ، وقدرة بالرجال تناصروا . فادعى النفس بالقدرة لنفسه الألوهية ، وبالمملك الإمرة ، فاتخذ الدنيا بالمال الجنة ، والرجال بالغلبة ، والعبيد والجنّة ، فعمل بما يهوى كأنه الملك الأعلى .

فقال : وكيف المخلص؟

قلت : أما عن القدرة : فبالنظر إلى عجزه عن دفع هلكه . وأما عن الولاية : فبتغيير الأحوال المرضية عليه وإن جد في العناية . وأما عن التّنعّم والزينة فبفضيحة ما يؤول إليه من البول ، والغائط ، وكشف العورة . وأما عن العزة والقدرة بالرجال : فلما يلزم قلبه من الهموم والأوجال لحفظ الولاية ومجيء خبر الانعزال ، ليعلم أنه ازداد حاجة برجاله ، وفضيحة بماله ، وأنه محكوم عليه في ولايته ، هالك في قدرته ، تبارك الله من رب أزلي ليظهر بجبروته لعبيده بإراءة آثار صنعه ، فحكم بالوجود على العدم لفضل الوجود عليه ، فكان الوجود شيئاً رتقاً ، ثم فتق بين السماء والأرض ثم رفع السماء وزينها ونورها وسخرها لإقامة مصالح الأرض ومنافعها ، لفضل الأرض عليه .

ثم سل من الأرض قبضته آدم فصوّرها على أحسن تقويم ، ثم جعل الأرض بما فيها له إظهاراً لفضله العظيم ، وبين أن فضله لمضغة فيه سلها من القبضة ، وهو القلب ، فقد أهله لمعرفة الرب ، وأنه هو الأمير على جسمه وعلى كل العالم تصويراً بعد تصوير .

فانتهى تدبير الصنع برابع الدرجات إلى القلب ، ثم تجلى جلّ جلاله بجبروته لسر القلب بآياته ، وهي العاقبة الحميدة المطلوبة من مخلوقاته : السر في وسط القلب ، والقلب في وسط الفؤاد ، والفؤاد في وسط الصدر ، والصدر في وسط الجسم ، والأرض مهاده ، والسماء بناؤه ، والآخرة جزاؤه ، والله ربه ، منه خوفه ، وفيه رجاءه .

فالسر سويداء القلب كالناظر للعين ، خلق أسود بذاته في حصون أربعة كلها مظلمة بذواتها ، ثم ظهر لها بآياته ، ولا ظهور إلا بالنور ، ليدلنا بالظهور للأسرار على أنها هي العزيزة المرادة من بين الأنوار . قد فجر الله أنوارها وهي سوداء بين الظلمات ليكون الضد من الضد من الآيات ، وليكون الانتهاء على وفق الابتداء ،

ففجّر النور من الظلمة، كما خلق الوجود من العدم، والأرض من السماء، والقبضة من الأرض، والقلب من القبضة. فظهر له بآياته ظهوراً، وجعل لسبب المعرفة أميراً، فصارت السماء والأرض للقبضة والقبضة للصدر والصدر للقلب، ووضع أمانته عليه، وسلم الولاية إليه، وهو أخفى عضو وأضعف خلق.

حتى إذا نظر القلب إلى نفسه، ووقف على صنعه، ثم وجد العالم تحت أمره مثنياً عليه بشكره، ثم نظر إلى سائر المخلوقات من الأرض والسماء، فوجد نفسه مخصوماً بقدرة أصابها بالحياة حتى فعل مختاراً وبقدرة أصابها بالعقل حتى سخر سائر الحيوانات جهاراً، فجعل القدرة الحياتية لإقامة الأمر، والقدرة العقلية لإقامة الشكر، وعلم بما وجد في نفسه من أصل القدرة والأمر في غيره أن غيره خلق له جبراً وقهراً، وأنه خلق لعبادة الله ابتلاء وأمراً.

فعلمت أيها الأخ أنك خلقت لمعرفة الله تعالى وعبادته بالأمر لا بالقهر والجبر، ودعيت إليها لوقتها بخطاب فصل، وأنت عاجز عما خلقت له قبل العقل، وولدت على جهل، ثم قدر القلب على النظر في المستور إذا انفجر القلب، وأنت على شبهة حال نظرة وخرج صدره، ثم تقف على الآيات وتعرف الرب لا شك في الأمر. لكنك في باطنك على اضطراب بوساوس من نفسك، وخوف من الزوال حتى يصير لاستدلال عياناً عند الناس بحياة الآخرة إلا أصحاب الآيات الباهرة، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

فتمت حالة معرفة العبد من ابتداء الدعوة برابع درجاته، وقد علمت أنك خلقت وعليك حقوق الله وأمانته، وأبتليت بأدائها لأنك خلقت على حياة وعقل وقدرة وإمرة، ثم إنك تجد نفسك على فقد قدرة العقل قبل الحياة، وفقد قدرة الرأي والإمرة قبل العقل، وفقد قدرة الصواب قبل العلم، ثم تحت الأمر والنهي بعد العلم، وتحت الحكم بعد الائتمار والانتهاة بتغير الأحوال وحلول الفناء، ما يتم لك ما أويت من القدرة إلا بعد الموت والبعث للجنة، كما لم تتم المعرفة بلا اضطراب، والأمن من الفوات إلا بالحياة بعد الممات.

فسبحان من محسن بالتكوين، ومحسن بالتفضيل، ومحسن بقدرة الحياة والعقول، ومحسن بالإرسال والتنزيل، ثم متفضل على من عرفه بالتقريب إليه بإقامة أمره ونهيه، ثم مكرم بإيتاء الملك الأبدي على سعيه، ومتفضل على من جحده بالإمهال في نعمه إلى آخر عمره، ثم عاد بالانتقام منه بالنار إذ لا يزال على كفره.

فقال الأخ: كيف استحق العبد على الله الجزاء والله خالقه حقاً، ومالكة رقاً، وإنا لا نوجب للعبد المملوك على مالكة إذا عمل له أجراً؟

قلنا: إن الجزاء للعبد على الله تسمية وشرعاً، وهو في الحقيقة صفته قد أوجبتها حكمته. فالديان صفة من صفات الله تعالى كالرحمن. وذلك أنه غير جائز أن يوصف الله تعالى بعيب، كما لا يجوز أن يوصف بسفه، والبناء لعاقبة الفناء من عمل الصبيان عيب، والتسوية بين المحسن والمسيء جزاء من عمل المجانين سفه، والله تعالى عليم بما مضى من تدبيره، حكيم فيما أمضى من تقديره، فسوى بين المؤمن والكافر في دار الابتلاء بالقدرة والنعمة، وفرق في دار الجزاء على بقاء حتى صار الصنع حكمة، ثم أخبر بذلك في كتابه، فقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. أي أفحسبتم أنا عبثاً نخلقكم، تحيون وتموتون ولا ترجعون إلينا للبقاء؟ ﴿فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤]. أي: تعالى عن العيب، وخلق الخلق لعاقبة الفناء عيب. وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَإِغْوٍ لَّعِينٍ﴾ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠]. ثم قال: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّمَّنْهُمْ وَمَآئِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢]. أخبر أن التسوية في الجزاء حكم سيئ، وهو السفه الذي قلناه، والله خلق العالم بالحق لا بالسفه، وذلك الحق في المجازاة على وفاق الأعمال بين عدل وفضل، بلا ظلم أو جهل، وهو كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُمْ وَفَرَادَاهُمْ﴾ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُمْ﴾ [القيامة: ١٧، ١٨]، لأنه لما أمرنا بالعمل به - ولا نصل إليه - إلا بعد الجمع والبيان، وتكليف ما لا يقدر عليه من غير جبر المأمور سفه. فصار فصل ما تثبت معه القدرة للمأمور حقاً على الأمر ليصير أمره حكمة، فيكون عليه تسمية، وهو حق له حقيقة، لأن صفة الحكمة لربه تثبت.

وذلك كما أن الله تعالى خلقك وأقدرك حتى صرت وكذلك العالم لك ظاهراً، وإنما خلقك لعبادته، ولتعرفه بجلاله باطناً، فكذلك جزاؤك كان وفق ابتدائك، لتعرف بالابتداء أنه خالق عليم، وبالجزاء أنه جواد كريم.

واسم الجزاء لا ينفي معنى البر على العطاء، وإنما ينفي صفة الابتداء، كجزاء الموهوب له الواهب على هبته يكون صلة دعاه إليها كرم الطبيعة.

قال الأخ:

فبين لي أحوال الإنسان من خلقه إلى منتهى أمره، على ترتيب لا يعدوه
القصد، ولا ينبوه القصد.

قلت: وما توفيقى إلا بالله: إنَّ بدء الإنسان قبضة من بر وقبضة من بحر على ما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾. وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]. ومزج الماء بالتراب فصار سلالة من طين، ثم ترك حتى اعتدل كحماً مسنون، ثم أجاب المصور بعد رابع الدرجات كتمام العالم لصلاحه مسكناً لآدم على هذه الحالات، فكان عدماً، ثم موجوداً رتقاً لا يصلح للسكنى، ثم سماء رفيعة بلا ضياء، وأرضاً بسيطة بلا نبات وماء، ثم السماء سبعة أطباق مزينة بنجوم وأفلاك، والأرض براً وبحراً بأنهار وأشجار، فصلحت لآدم مأوى، وهي بآدم حبلى، لكنها على إنكار هنالك، ودعوى غير ذلك، والمراد بإنكار الجماد ما لا يصلح له عقلاً، وبالمدعى ما تصدى له أصلاً، والبر والبحر ما يصلحان لولادة البشر، متعديان لمنافع آخر، كالعدم ينكر الوجود ويدعي ضده.

ولما سلت القبضة من البر والبحر تركت القبضة دعوى الأصل لعدم ذلك الصلاح فيها، لكنها على إنكار أن تبني صورة فيها، فالماء مائع سيال، والتراب متخلخل منهار، كالعالم لما خلق رتقاً ترك دعوى العدم، وبقي على إنكار أن يصلح مثوى.

ولما صارت القبضة طيناً ينسل تركت الإنكار، فالتراب يخرج بالماء لعاقبة البناء، لكنه ما لم يعتدل لا يجيب البناء، فترك حتى صار حمأ حتى اعتدل فأجاب للتصوير وقبل.

وهذا لك مسموع وليس بمعقول، وليناكرنك الملحد فيه من أولي العقول، فاعدل عنه إلى ولده، فأصله الأب والأم، وهما بنيتهما مدعيان صلاحاً لأمر مقصودة تأتي منهما، منكران انخلاق ولد منهما بولادة على معقول الشهادة، فلما سلت النطفتان منهما إلى الرحم تركت النطفتان دعوى الأصلين وثبتا على الإنكار، ولما امتزجتا في الرحم تركتا الإنكار، وما أجابنا إلى حين الاعتدال كالسلالة من الطين. ثم اعتدلتا فصارتا علة كالحماً المسنون، فأجابت للمصور برابع الأحوال، فصارت العلة مضغة ثم عظماً ثم لحماً، فتمت العلة صورة رابع الدرجات.

وهذه أحوال معقولة وليست بمحسوسة، وربما ناكرك فيه المتعنت، فاعدل عنه عن الطير، فأصله طيران: ذكر وأنثى، ينكران أن يتصور منهما طير، ويدعيان

أموراً غيره حتى يسئل منهما البيض فيترك دعوى الأصل، لكنه على إنكاره حتى تحضنه الدجاجة، فيصير علقه تحسها إذا كسرتها، ثم مضغة وصورة على الترتيب الذي قلناه.

والأصل الجماد في منازلها تحول عن إنكار ما يراد منه ودعوى ضده إلى إنكار بلا دعوى، ثم إلى إقرار بلا إجابة، ثم إجابة، ليدل الله بأصل الوضع على سبيل التسخير والإجبار، على الوضع حال القدرة والاختيار على ما يأتيك بيان شرحه وبرهانه.

ثم الصورة جسمان: ظاهر وهو القلب المحسوس، وباطن وهو الفؤاد المعلوم، ليكون الظاهر نصيب الأصل الظاهر وهو الدنيا، والباطن نصيب المصور الباطن وهو المولى، قسمة عادلة.

فالقبضة ما صارت صورة إلا بالفعل المفعول في ذلك الأصل المسلول، الأصل من الدنيا، والفعل من المولى جلّ وتعالى. والأصل ظاهر، والتفعيل باطن. ثم الله تعالى أحيها. وتفسير الإحياء: الإقذار على الأفعال الاختيارية برقيبين: النفس من عند الدنيا، والروح من عند المولى، جاءتا بأمره، والله تعالى قد اختص بعلمه لتكون النفس رقيباً من المولى على نصيب المولى، قال الله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. وقال: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

ثم كان اهتداء الجسم الظاهر بالحواس إلى مصالحه، واهتداء الفؤاد بالعقل إلى مراشده، فصار القوام أربعاً: الروح، والنفس، والعقل، والحواس. وكانت الصورة لأول أمرها جماداً منكراً لما طلب منه من المعرفة والعبادة، مدعياً غيرهما على وفق العادة، ولما حييت تركت الدعوى، فقد قدرت أدنى قدرة، لكنها على إنكارها ما وقعت له الفطرة، فهي للحال في حكم الأعضاء كالكبد والطحال والأمعاء. ولما سلت بالولادة تركت الإنكار، فقد صارت شخصاً مثل أصلها، لكنها قبل العقل غير مجيبة بفعلها.

ولما انفجر نور العقل وميز الوليد، دعاه الرقيبان فأجاب. أمّا رقيب الدنيا فأخطأ، وأمّا رقيب المولى فأصاب، وانتهى بهذه الحالة وقت الحفظ بحكم الفطرة، وجاء أوان المحنة والحيرة، فتمت منازل أن يتأهل لما طلب منه في العاقبة أربعاً، فأصبح بالعقل أهلاً للدعوة. وبين الرقيبين اتفاق على الدعوة إلى ما تحمد مغبته، وتبقى ثمرته. فرقيب المولى يدعوه إلى معرفة المولى وطاعته لعاقبة الجزاء في الدار الأخرى، ورقيب الدنيا يدعوه إلى عمارة الدنيا وجمعها لسيادة الورى.

وإنه في منازل الإجابة على أربعة أحوال: طفولة، وشباب، وكهولة، وخرف على نحو ما مر في المثال. وإنه في أول أحواله منكر لدعوة الرقيين بطبعه، مدع غيرها من اللهو والعبث بفعله ما لا عاقبة له ترضى، ولا ثمرة تبقى، وإذا شب وبلغ واعتدل عقله، وتوجه التكليف من المولى، وأهل للدنيا، وهو ممن أجاب رقيب الدنيا ترك الدعوى، فقد حجر عن العمل بطبعه، لكنه على إنكار بفعله ما لا تحمد عاقبته في سكرة من نشاطه، وغفلة من شهواته، وإصابة الكفاية من آبائه وأمهاته.

حتى إذا ما انتهى شبابه فارق أباه وأمه، وأحوجته امرأته وولده، ولزمته من فروض الحال ما لا يمكنه إقامتها إلا بالنظر في العاقبة، تركت الإنكار لعمل ماله عاقبة حميدة، لكنه غير مجيب فعلاً، فنار الشهوات شديدة، وقيود الهوى عليه أكيدة، حتى إذا أقعده خرفه، وأشرف عليه تلفه، وانتهدت قواه أطاع رقيب دنياه، وما هي بمقبولة، فمصالح الدنيا لا تقوم إلا بقدرة، والرجل قد أعجزته الفترة، يعيش في بؤس حتى يعاين بأسه بحلول أجله، فيجيب رقيب المولى انقطاع أمله وهي مردودة، فالمطلوب منه الإجابة حال اختياره دون خروج أمر نفسه من يده ووقوعه في اضطرابه، يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ إِلَيْكَ قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

ثم ينتقل بعد منازل الدعوة للإجابة إلى منازل السياق للجزاء، وإنها لأربع منازل: معاينة البأس لآخر العمر، ومنزل عرضه القيامة يوم الحشر، ثم منزل النار وبئست الدار، وما له عليها اضطبار، ولا عنها فرار، جزاء وفاق، وخلود بلا فراق، وإنه لأول منازل الجزاء الذي عاينه، فقد تبرأ بالإيمان عن سببه، يدعي ما أقبل بالإيمان على طلبه.

حتى إذا مات وفارق أهل النعيم ترك الدعوى، لكنه على إنكاره لبعده عن الجحيم، حتى إذا بعث وعاین الحقيقة ترك الإنكار وما أجاب، يوقفه بين الخلائق لأمر الحساب، حتى إذا قيل لهم: ﴿وَأَمْتَرُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ [يس: ٥٩] فما لكم من شافعين. أجاب في أمثاله مهطعين إلى الجزاء الوفاق العظيم في نار الجحيم خالدين.

دعي إلى التصور جسماً لحمل الأمانة فأجاب لتصوير بدائع أحواله، ثم دعي إلى التحور أهلاً لمعرفة ما عليه، فأجاب برابع أحواله، ثم دعي إلى الوفاق لأعماله فأجاب برابع أحواله، فصارت الدعوات أربعاً، والأحوال في كل دعوى أربعة.

فهذا بيان أقسام من أسر عقله بهواه، ونسي آخرته بدنياه، وكل البشر مجبولون على هذه الطبيعة ما لهم سبيل إلى الفكاك عن هذا الأمر إلا بالوقوف على أنوار الشريعة، وإنني أيها الأخ مخبرك عن أنوار آيات لتخرج إن شاء الله عن حالات هن ظلمات، فما يصير بمنتفع في الظلمات ببصره، ولا بمتحير إذا أضاء له النهار بأسره.

فقال: طاب سمعي بما سمعت من كلامك، هات بارك الله في أيامك.
قلت وبالله التوفيق: إن لكل جسم - أعني الباطن وهو الفؤاد، والظاهر وهو القلب - علة درك، وآلة درك، وداعياً إلى الدرك.

أما الظاهر:

فعلته استعمال آلات الدرك.
وآلات دركه: العين والأنف والفم والأذن، صارت آلات بحواسها.
والاستعمال: كالنظر والشم والذوق واللمس والاستماع.
والأحوال: نحو نور الهواء، والرائحة في المشموم، والصوت والطعم ونحوها.

والداعي إلى استعمال النفس.

وأما الجسم الباطن - وهو الفؤاد:

فله علة الدرك وهي: الفكر.
وآلة دركه وهو: القلب، سويداؤه التي هي بمنزلة الناظر للعين، وهو السر.
وحالة درك وهو: نور العقل الذي به تستبين للقلب المسافة بين مبدأ الأمور وعواقبها، كما تستوي بنور الهواء المسافة لناظر العين من لدنه إلى المنظور إليه.
وداعي الدرك وهو: الروح.

وكل جسم ممتحن بهذه الأسباب لطلب العاقبة الحميدة الباقية من أفعاله، مخالفاً بذلك لنهج ما لا عقل له. فتمت المحنة بداع إلى الرؤية، وآلة، وعلة، وحالة.

وقد جعل الله تعالى الظاهر دليلاً على الباطن، ليكون العلم به حقيقياً، ولا يخفى على الناس بعنت من أنكر ظلماً وعلواً، فخلق معاني الدرك في آلات الدرك للجسم الظاهر على التفاوت. وربما استوت الآلات في مبانيها وأحوال الدرك على التفاوت، وربما استوت الآلات بمعانيها، فرب ناظر عين أحد من ناظر، ورب شمع أضواً من سراج زاهر.

وجعل حال الدرك للظاهر بنورين مسلمين إليه في العالم السفلي، وهما: السرج والشموع. وللعبد قدر تدبير في النقصان، وزيادة تنوير. ونورين مسلمين إليه من العالم العلوي كنور الشمس والقمر، ما له عليهما تدبير ولا قدرة. وقد يستغني الجسم الظاهر بالشمع عن السراج، وبنور الشمس عن الشمع الوهاج، لأنه ما احتاج إلى إشعاله إلا لتستنير بها ظلمة المسافة إلى مصالحه، وبنور الشمس استنارت المسافة فوق مشاعله، ليدل على مثله للجسم الباطن من تفاوت معاني الدرك في الآلات وهي أسرار القلوب وإن استوت الآلات في ذواتها. والتفاوت في أحوال الدرك وهي العقول، وإن استوت بمعانيها.

وإن النور الذي هو حال قسمان مسلمان إليه، وهما: العقل، والقرآن، ولنورهما زيادة بنظر القلب ونقصان. وقسمان غير مسلمين إلى تدبير العبد، وهما: نور التوفيق، ونور العواقب، كرامة من الحميد المجيد. وإن كل الأنوار على التفاوت كما في الشاهد، وإن نور التوفيق يتناهى إلى حال يستغني العبد معه عن الاستضاءة بالعقل كاستغنائه عن السرج بالشمس الزاهرة، ولأنه ما احتاج إلى نور العقل إلا لتجلو ظلمة المسافة إلى عواقب أمره، وبنور التوفيق استنارت المسافة فوق نوره، بل لاحت لقلبه العواقب كما تلوح ليلاً لعيني الكواكب.

فالعواقب المطلوبة بأمر الله تعالى أنور من نجوم الليالي على ما يأتيك شرحها، لكنها مستترة عن القلب بغمام الغفلة، منكسفة بصدأ المعاصي، فإذا صحا الصدر عن الغفلة، وتجلت العواقب عن صدأ المعصية، أضاءت للقلب بلا آفة، وأغنت القلب عن نور المسافة، بل تجلت بها المسافة عن ظلمات النفس تجلي الهواء بطلوع الشمس، وصار النور منها محسوساً بعدما كان النور لها مقبوساً.

فثبت أن لكل جسم أنواراً على التفاوت، ولكن بعد التكليف بالدرك لا يخلو أصل الفكرة عن قدر ما يقع به القدرة، فإعطاء القدرة قدر التكليف عدل، وقد ضمنه الله بحكمته، والزيادة فضل وقد أذن الله بالسؤال من رحمته.

ثم الله تعالى امتحن الجسم الظاهر مع نوره الجالي المسلم إليه متى خرج عن حصنه وهو البيت بريح علوي لا قدرة له على رده إلا بالرجوع إلى حصنه، وربما عدم الانتفاع به كأنه لا سراج معه حتى أصر على فعله، ليدل في جانب الجسم الباطن على مثله: خذلان من الله تعالى في أوامره ونواهي لا يد له عن الاحتراز عنه ما لم يرجع إلى حده، وربما عدم الانتفاع به متى أصر على عقله كأنه أعمى لا نور في صدره كما قال الله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا

أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

فتمت أحوال البصر في تفاوتها للمحنة أربعاً: حال نور عديمي، ونور فضلي، ممّا سلم إليه، وممّا لم يسلم إليه. وتمت أحوال العمى للعين أربع حالات مع قيام التكليف بالرؤية ببقاء القدرة: حال عمى لهبوب الريح على ذؤابة السراج، وحالات مع سقوط التكليف لذهاب القدرة، وعمى بزوال نور العين، وعمى بعدم نور الحال، ولن يتحقق ذلك إلا إذا اتفقت الآجال.

وكذلك أحوال الجسم الباطن: حال غشي القلب بغشاوة من حيث العصيان، وحال انكفاء نور العقل بريح الخذلان، وحال انطفاء نور الحال أصلاً بالجنون، وحال ذهاب نور السر بإذهاب الله تعالى إذا حلّ به المنون. فنور القلب الذي به صار القلب آلة الدرك للجسم الباطن من ربه لا زوال له عن أصل ما خلقه الله تعالى إلا بزوال عمره، ونور الحال عارض، ونور الحال للجسم الظاهر أصلي، فهو من أصل دنياه، ونور الآلة عارض. فلن يعدم الجسم الظاهر نور الحال إلا بموته، وقد يعدم نور الآلة مع بقاء عمره.

فنور العين حياة العين، كما بالروح حياة الجسم، ولن يعدم الجسم الباطن نور الآلة إلا بعد انقضاء الأجل، وقد يعدم نور الحال في مدة المهل، ولهذا لا يسقط التكليف إلا بالجنون. فزوال النور الذي هو الآلة حال الحياة لن يكون - والله أعلم - وإنما يغشى القلب مع قيام النور كغشي العين من البصر الظاهر.

فهذه قسمة من الحكيم عزّت قدرته عادلة في الظاهر بين الجسم الظاهر والجسم الباطن إعلاماً بالمحنة، ودلالة في الباطن صادقة على الرجوع إلى الباطن إلزاماً للحجة.

فالدرك بسبب النور، وعليه تدور الأمور، وتم الدرك مع نور الحال، والآلة أصل للعمل، والحالة شرط، ثم جعل النور آلة الجسم الباطن ذاتية، وللجسم الظاهر صفاتية، ليوقف على المصير إلى نور القلب بالاستدلال، والذات اسم للهوية، والصفات في الشاهد أسماء الأحوال.

ثم ألزم هذا المعنى المستدل وغيره باهتداء الجسم الظاهر إلى مصالحه على عمى عينيه بنور عقله، وعدم اهتداء المجنون إلى مرشده بنور عينه، وكذلك الجسم الظاهر إنما يصل إلى استيفاء حظه من الراحة والسكون بذهاب النور حالاً، فعادت الجسوم في الاستراحة ليلاً والتعب نهاراً.

وكذلك حصل عواقب النفس مظلمة لا ترى إلا بنور، وعواقب الروح نيرة تتلأأ حتى رفع عنها الستر، ورقمت أنوار الحال للقلب أربعاً: نور العقل، ونور

القرآن، ونور التوفيق، ونور العواقب. وتمت أنوار الحال للعين أربعاً بعد السراج والشموع على زيادة ونقصان بتدبير العبيد، ونور آية الليل ونور آية النهار بتقدير الرب قسمة عادلة في الظاهر.

فنور الشمس والقمر في الأصل واحد، فأية الليل محمودة، وإنما يأخذ نورها بقدر مقابلة الشمس في مسيرها، وإنما اختلف الوقت. وكذلك نور السراج والشمع واحد من النار، وإنما اختلف رسم الفتيلة بلا إشكال. ونور القرآن غير نور العقل، بل فوقه بكثير، ثم نور العواقب، وما للعواقب رقيب الدنيا نور، وبنور عواقب رقيب المولى استنارت الصدور، كما سوى بين آلتى الدرك ظاهراً وجعل آلة درك العين حالاً لآلة درك القلب باطناً، حتى بقي الدرك للقلب مع زوال معنى درك العين إلا ما كان القلب يدركه حال رؤيتها، كما يزول درك حس العين بزوال نور حالتها، كما جعل معاني درك القلب ذاتية، ومعاني درك العين صفاتية.

ثم هذا ليدل الله تعالى على تفاوت الدركين بتفاوت ما بين المعنيين بالحال تبعاً للأصل، وكم بين التبع والمتبوع. ثم حقق التفاوت عياناً على عين المتأمل في المعنى، فالعين في نورها ترى جسماً مكيفاً يغيب عنها لشدة القرب والبعد، والقلب بلا كيف ولا حد، فتمت وجوه الرؤية أربعاً: واحد للعين إذا اعتدلت المسافة، وثلاثة للقلب اعتدلت أو قربت أو بعدت. بل القلب غير متناه، يرى بلا جهة ولا مسافة، وما للعين متناه بالجهة والمسافة.

ثم الله جعل بين الجسمين اشتراكاً في الحقيقة. فالجسم الظاهر أصل، والفؤاد تبع مرئي، والفؤاد أصل والجسم تبع معنى. وبين الرقيبين اتفاق على هذه الدعوى، يعرفها كل مميز من حاله وحركته لأعماله. ثم جعل المحسوسات كلها من مرئي ومسموع ومشموم ونحوها في الظاهر مدركات الجسم الظاهر لدرك الرغائب، ومرآة في الباطن للقلب لدرك العواقب. فقد ثبت باتفاق من الرقيبين: أن المقصود في باب الرؤية هو القلب، فالمطلوب بالرؤية نفع العاقبة وذلك بالعقل، فإذا صارت المحسوسات مرآة - فالمرآة ما صقلت للرؤية، بل للإرادة، حتى إذا قصد الجاهل حال المرآة رؤيتها خاب نظراً، ومتى قصد العالم بها إراءة الوجه منها أصاب بصراً، وكذلك المحسوسات حتى قصدها الجاهل بالرؤية لدرك المواهب منها ضل في مسالكها على ما سبق شرحها. ومتى قصدها العالم لإراءة قلبه العواقب منها اهتدى إلى مرآته على ما يأتيك ذكره.

وكذلك المعلومات كلها في الظاهر مرآة للجسم الباطن لدركه مرآته، ومرآة في الباطن للجسم الظاهر إلى مصالحه، فالمقصود من العلم العمل الحاصل،

وذلك بعد الاعتقاد من الجسم الظاهر، والعبرة في الباب بالمقصود، وما المقدمة إلا طريق مورود، فصارت المعلومات على هذه الجملة مرآة لا مرئية، فمتى قصدها المخذول بالرؤية لدرك مراشده انهمك في وادي مهالكه، ومتى قصدها الموفق لإراءة الطريق جسمه سلك إلى مصالحه.

فالمحسوس مرآة حجج الله تعالى للقلب لعاقبة العلم، والمعلوم مرآة للجسم لعاقبة العمل، فالعمل بلا علم عبث، والعلم بلا عمل سفه، والسفه أبلغ درجات في الإنكار من العبث، والعبث مردود عقلاً لعدم الفائدة، والسفه مردود لقبح القاعدة. ثم العلم بلا حجة جهل كعلم الكفرة اتباعاً لآبائهم، والحجة بلا مرآة خيال على مثال ما يتخيل الإنسان شيئاً يوهمه أو في نومه، والاعتقاد بالخيال فوق جهل الجهال كاعتقاد الطبائعيين من اعتقاد الجهلة الكافرين. فذو الخيال لا يترك اعتقاده إلا بفساد ما عنده وظهور غيره، وذو الجهل يتركه بظهور الحجة، والمستغني بالمعلوم عن العمل أهلك من المستغني بالمحسوس عن العلم بعدما استويا في معرفة الدنيا والمولى. فضرر الإعراض عن المقصود بقدر ما في الإقبال عليه من المحمود، فكذلك المستغني بالخيال عن الحجة أكفر بالله من المستغني بالجهل عن العلم.

فانعقدت الشركة بين الجسمين سواء في الظاهر، والكل للفؤاد في الباطن، فالجسم الظاهر أحسن ابتداء، فعلم القلب بما أحس فأكمله، ثم علم الفؤاد فألزم الجسم بما علم انتهاء فاستعمله، فكمل بما أراه العين ابتداء، وأطيع بما أرى الجسم انتهاء، وبين الرقيبين اتفاق على هذه الأحكام، فالرضا بالمبدأ دون العاقبة من عمل الأنعام، فصارت آلات الدرك في المعنى أربعاً: العين، والقلب، والمرأتان، كالمرأة الحسية، فإنها تعمل عمل عين زائدة تردد رؤية العين عليك عائدة.

فالقلب: الرأي بالمحسوس في نهى الجسم عن فعل البهائم، والجسم: الرأي بالمعلوم في طاعة القلب على طلب نفع العواقب. فمتى كان المحسوس مرآة الحجج للقلب استنار استنارة العالم نهراً بحجج أضواء من الشمس. ومتى كان المعلوم مرآة العمل للجسم استنار الجسم استنارة القلب بما أدرك على الحس. فالمعلوم أنور من المحسوس بكثير، قال الله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقال: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

فيصبح العبد حينئذ وهو في ظاهره وباطنه نور في نور بأنوار أربعة: نور

الباطن، ثم نور السر، ثم نور الجسم الباطن كله بالعلم، ثم نور الجسم الظاهر كله بالعمل. وكلها من نور الله تعالى وكرامته على ما قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورٍ كَمَشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] باطن، وهو نور النار قبل أن يقتبس، ثم نور الشعلة بعدما اقتبست واشتعلت به الفتيلة، ثم نور الزجاجة وهو القنديل، ثم نور المسجد كله.

فهذا تفسير العواقب التي ذكرناها مجملة: النظر بالعين في العالم المحسوس لعاقبة أن يكون مرآة القلب للحجج، لا أن يكون مرئياً مقصوداً. وعلم القلب الحجج لتكون مرآة الجسم الظاهر للعمل، لا أن تكون الحجج معلومة مقصودة. فصارت عواقب الرؤية أربعاً: رؤية العين لعاقبة أن يكون المرئي مرآة للقلب، والرؤية بالمرآة لعاقبة العلم، والعلم لعاقبة أن يكون المعلوم مرآة للجسم الظاهر، والمرآة لعاقبة طاعة الجسم.

فصارت هذه العواقب الحميدة مطلوبة بالرؤية اتفاقاً، وهذه الأنوار كلها لرؤية هذه العواقب إجماعاً، وكل ذلك إلى مجاميع الخير وأقصى غايات النفع. غير أن بين الرقيين اختلافاً في تحديد دار الوصول إليها، فريب الدنيا يقول: هي الدنيا، وريب المولى يقول: هي الأخرى. فجاء أوان الدعوة والخصومة والحاجة إلى الحجة ثم الغلبة.

فالجسمان كانا في يوم الغفلة على شعار الفطرة، وقد انفجر لهما صبح العقل. فإن جاء أوان القيام، وأحاط بسمعيها الأذان من خلف وأمام، فوثبا مذعورين، ووقفنا خوفاً، وأصغيا إلى الرقيين سمعاً فإذا أحدهما يدعوهم إلى الدنيا، والآخر إلى المولى جلّ جلاله، وما لهما بالدنيا ولا بالمولى بعد من صحيح علم. فالآن قد أنهتها عن النوم، وما أسفر بعد اليوم، فأفرخ روعهما، فالنداء من الريب، والدعاء طيب، والمدعو إليه مرغوب فيه طبعاً مطلوب شرعاً.

دعوة النفس ودعوة الروح:

فالنفس تدعو إلى معدن النعمة، والروح تدعو إلى قاسم الرحمة، غير أنهما واقفان بحكم غفلة الصبي ما يميزان بين الدنيا والمولى. فالغفلة ظلمة وحجاب ما ترفعه يد، ولا يطيق عليه أحد، فمكثا والقلب طائر، والجسم ناشط متململين وراء الحجاب حتى استقر النهار، ورفعت الأستار، وتسابقت الأبصار إلى الدنيا والمولى، فإذا الدنيا ظاهرة ذات نعم حاضرة للعين لا ينكرها القلب إلا بتأمل،

واللّٰه تعالى باطن صاحب رحمة غائب عن العين، لا يعرفه القلب إلا بتفكر، فيميلان إلى الظاهر الحاضر ميلاً، فما للمشتاق بعد القطر اضطبار، وما للمحجوب في مكان الحجب بعدما رفع الحجاب قرار.

ثم يقف القلب للتأمل في العاقبة، فقد لزمه باتفاق من الرقيبين النظر في العواقب، وترك العاجل الذاهب من المواهب، فكانت الميلّة للنفس، والوقفّة للروح. فتخاصم الرقيبان عند الوقفة لما دعواه وقت التنبه عن النومة، فما ازداد الجسمان بالخصومة إلا توقفاً، فما لخصومتها عاقبة ظهرت، وما كانت الوقفة إلا لعاقبة استترت، فاحتاج الرقيبان إلى الحجة ثم الغلبة، فما لواحد منهما سلطان إجبار، ولا قدرة إكراه، والنفس عجول معجب نادى، والروح حكيم متواضع نودي ضد النفس عجلاً أو عجباً قبل الحجة فالمغالبة، فما لها حجة مستقيمة، ولا شريعة قويمّة، فما له عليه حجة صادقة، كما ليست له حجة ناطقة، ثم بالترغيب وعيده بمحذور، ولا عجزه بمستور، تم بالسرقة فما لمأموله حاصل، ولا لمرغوبه طائل. فتقبل على القلب لتسلبه، فقد وقف يتأمل مع الجسم مغالباً بقواه، فهي طبائع معقولة محيطة بالجسمين، وجسمه الظاهر محيط بالقلب وبأعوانه من جنسه - فأكثر الورى ممّن اتبع الهوى - وبأعوانه من الملاعين من خلاف جنسه من الشياطين.

والروح يشير إلى القلب: أن الحكم للرب الجليل، وما لأحد ممّن ترى عليك سبيل، فأما الجسم المحيط بك فحصنك لك لا عليك، والنفس المخاطب حافظك لا قاتلك، فما لهم دونك من حال، فاثبت حتى تظهر لك العاقبة الحميدة التي كانت باتفاق منا مطلوبة، فما للمنافق قول مسموع، ولا سمت مشروع.

فيثبت القلب وتخيب النفس، وترجع إلى التحذير فتقول: أما علمت أيها القلب الذكي أنك مضغة في هذا الجسم وليد الدنيا وربيبها، وأبناؤها آباؤك وإخوانك، وما فيها من الرغائب نعمتك، فتعرض عنها بدعوة الروح إلى ما لا علم لك به، أما تخاف عاقبة اختصاصك بنهج دونهم، ولا غيبة لك عنهم؟

والروح يقول: إنه لم يضرّك بمغالبتة فيضرّك بمخاطبتة، فاطلب منه عاقبة ما يدعوك إليه، فما الذي ذكر من الوصل بعاقبة باقية، فإنك مفارقهم ومفارقها بالموت، وقبل الموت بوجوه من الفوت.

فيثبت القلب وتخيب النفس، وترجع إلى الترغيب فتزين له الدنيا وأولادها، فتعرضها عليه في نقاب جمال، ورداء دلال، وخاتم دلال، وخاتم إقبال، وعهد وصال، ليحببها إليه، فيعصمه بالمحبة، ويصمه بالهوى عن إشارات رقيب المولى،

والروح يقول: وعليك أيها القلب بالنظر إلى عاقبة ما تعرض لك، فقد اتفقنا على رد ما لا عاقبة له.

فيجد لها عواقب قبيحة قد مر شرحها بفصول فصيحة، فيثبت على وقفته فتعزم النفس على السرقة فقد خابت عن العلانية، وإنها لشر الوجوه. فللفؤاد غفلة كما للعين نومة، وإنه ليغيب عن دركه بغفلته كما تغيب العين عن بصرها بنومتها، والشجاع يسرق إذا نام ماله، كما يسرق الجبان الآمن حاله.

فتقوم النفس رصيلاً للقلب، فإذا نعس بغفلته - وذلك بنظرة إلى الدنيا، أو فكرة، ومن الذي يملك الخطرة - وثبت فسرت سره برؤية ما في الدنيا من النعيم، فأتبع القلب النظرة النظرة، وصارت النعسة نومة، فأحرزت النفس السر عندها إلى خزانها، وأجلسته على مائدتها، وأنسته بأخذان، وأنشطته بألحان جران، وسقته من شراب المحبة كأساً دهاقاً، وقالت: هذه الدنيا بأسرها لك على طاعتك، فخذها جزاء وفاقاً، فصارت النومة بشرب الكأس سكرة، وما تناول بعد من المائدة لقمة، وعليه أسير، وهواه أمير، ونار الشهوة متوقدة، والهوى غمام بين القلب وبين العاقبة المطلوبة، وطاعة النفس غشاوة على القلب ممدودة، والمعروض ممتنع عليه قبل أداء المهر.

فيرجع القلب إلى النفس وقد عمي عن الروح فيسألها الوفاء بالضمان، فتقول: إنا عرضناها عليك للخطبة، وأريناها مسفرة لتكون أخرى أن يؤدم بينكما، لكنها لا تستمتع بها إلا بعقد وشهود، وصداد منقود، ففي التعاطي بلا سبب ملك فساد في العاقبة، وما دعوناك إلا بشرط الصبر عن الابتداء لصلاح الانتهاء.

فيقول الجسم والقلب: ومن أين لنا ذلك وإنا على فقر، وإنك على علو الهمة تأنف عن مقامنا لخدمة الكبراء، وتتعالى عن سؤال الأغنياء، والإجارة وأخذ المباح ممّا لا يسعداننا بفلاح، وما وراء هذه الأسباب للملك سبب لمن لا عسكر له ولا نسب.

فقال: أبشر فما الحيلة عجز، وفي أبوابها كل نجز، لتسرقن من الناس أموالهم، ثم لتسرقن ببذلها رجالهم، ثم لتغالبن بهم باقي الوري، ثم لتستولين على جميع الدنيا، وذلك الأمد الأقصى.

فيقولان: نعم - فالقلب قد صار أعشى لا يبصر إلا الأدنى - كيف لنا بالسرقة؟

فتقول: إنها سرقة من الحرز سراً، وسرقة من الطريق جهراً، وسرقة بالعلم

قولاً، وسرقة بالزهد تركاً. فالأوليان سببا الأموال بواسطة تحين الفرصة، والآخران سببان لا أكبر منهما بواسطة الخلسة، فإنك متى شهرت بالعلم اختلست من الناس جاههم، واحتاجوا إليك بأموالهم متوسلين، ومتى شهرت بالزهد اختلست من الناس قلوبهم، وتمنوا أن يكونوا عبيداً لك بأموالهم راغبين.

فالأوليان أقرب، والآخران آمن، ولكما الخيار فاخترنا. فيختاران، فالله تعالى استدرجهما بفتح باب الإصابة عليهما، وبسابق الأغراض إليهما، فأصبح العبد ملكاً مطاعاً، فقد وجد جمنياً وفيماً، فتمت دائرة جهاد النفس لأخذ القلب من غلبة إلى سرقة، ودائرة إيفاء الضمان من سرقة إلى غلبة، دائرتان حصينتان تمويهماً، ومتناقضتان تحقيقاً، فما صاغ الدائرة إلا لطلب العقابة وما لهما من عقابة.

فساد دعوة النفس :

فالدنيا وإن ملكت زائلة، وقد علمك لامتناع الدنيا عليه افتداء بعد سبب الملك لعاقبة الصلاة والسداد، ثم طرق إلى الأخذ بالسرقة وإنها سبب فساد، ثم جعل عاقبة الوفاء أن جعله على الدنيا أميراً، وإنما جعله لمصالح الدنيا أسيراً، فما زاد في الدنيا قصرًا، ولا أحكم لها أمرًا، إلا نقص لنفسه عمرًا إلى عمومات لا يعرف حدها، ومخاوف لا يمكن ردها على ما سبق منا لك ذكرها، مع ما أمر بالأخذ من الناس بعضاً بعضاً، ثم الرد عليهم نقضاً نقضاً، وقد استنارت الدائرتان بقوة ظاهراً، وأظلمتا بعجز باطناً، فقد بدأ الأمر بمغالبة نصيب المولى، ورجع بعجز وخسر، وختم بمغالبة أبناء الدنيا فرجع بفخر وظفر، فظهر بالأولى عجز النفس، وبالأخرى عجز الجنس، وظهر بالأولى على الكل إذ عجزوا عن مضغة وهي القلب قدرة المولى وثبت بالأخرى وقد انتقم من الظالم بالظالم قهره من حيث لم يشعره الردى.

فهذه نفس سلبت نصيب ربها، وحفظت نصيب الدنيا، وبلغه منها الأمد الأقصى.

فتقوم الروح قيام الساحر، والساحر محتال كالسارق، إلا أن السارق سالب كرهاً، والساحر سالب علماً وجهراً، ولكنه سر عن العيون لطفاً ولفظاً فتقول:

أيها القلب الذكي، والجسم الجري، سعيتما للعظيمة، وقربتما بالكريمة، وربحتما بالنظر في العواقب، فجدتما على المراتب، وما رأيت مثلكما من ناظر مصيب طبعاً، ثم طالب عجيب عقلاً، قد استحسنت فعلكما من ابتداء أمركما إلى انتهاء عمركما. كنتما في المهد ابتداء والظئر تربيكما، فظننتماها صاحبة الأمر،

وملتما إليها في كل خير وشر، ثم انتقلتما إلى الحجر فرأيتما الأم صاحبة الظئر فرجعتما إليها، ثم خرجتما إلى القصر فرأيتما الأب قيم الأمر، ففضلتما عليهما حسن شرعكما بطغاء طبعكما، ثم خرجتما إلى المصير، فرأيتما نعيم الدنيا، وغركما صاحبكما النفس بعقل مضيء انضم إلى طبع صفي، فرجعتما إليها، فبلغتكما الأمد الأقصى.

غير أنكما قصرتما في طلب الأول، فنفسكما بعض نفوس الوري، فكل الوري أبناء الدنيا، وإنما نفسكما رقيب داع إلى الأول ليكون القرار لدى من لم يزل.

والنفس في كل ذلك تقول: نعم، كلام صدق، وقول حسن، فاستعملاه. فتقول الروح: فانظرا فقد وفقتما للإصابة إلى ما يتولد منه هذا النعيم، فارجعا إليه كما رجعتما عن الأبوين إلى النفس العظيم. **فيقولان:** نعم إنها الماء والنار والتراب والريح. **فيقول:** فانظرا فيما أوجب الاعتدال بين هذه الأصول فإنها أضداد فارجعا إليه.

فيقولان: نعم، إنها الكواكب السبعة الملوك. **فيقول:** فانظر إلى من سخرها، فالمسخر لا يصلح للتدبير فارجعا إليه. **فيقولان:** مسترشدين من الروح لوقوفها على فرط معرفة، وحسن هداية. **فيقول:** إنه قال: هو العلة الأولى، أو العنصر أو الهيولى، ولا مشاحة في الأسماء، فالعبرة للمعنى، فالاسم بلا معنى فاسد من الدعوى، والمعنى فيه: منشأ الفلك والنجوم، ومدبرها على التسخير، وقاهر الطوائع الأضداد حتى اعتدلت للتقدير، ومعلق أمور العالم المدبر اختياراً بها حدوثاً ثم هلاكاً حتى يتيقن المدبر الهالك بالمسخر أنه ليس بذي قدرة وقدر أنه ليس على إمرة. **فيقولان:** نعم. أين هو؟

فتقول: لا أين. فأين: عبارة عن المكان، والمكان هو الأجزاء الظاهرة من العالم لما عليها. وقد ثبت حدوث كل العالم بخلق الخالق، وكان الخالق ولا مكان، فخلق المكان، فبقي على ما كان.

فيقولان: كيف هو؟

فتقول: لا كيف، فكيف عبارة عن استحضار الحال، فالحال عبارة عن عرض حادث، ووصف المحدث بالحدث محال.

فيقولان: متى كان؟

فيقول: لا متى. فمتى عبارة عن الزمان، فالزمان اسم للساعات والأيام والشهور والسنوات، وعليها دوران الفلك، وإنه مخلوق بطرائقه، ونحن في بيان خالقه.

فيقولان: ألا ندركه بالحس؟

فتقول: لا، فإن المدرك بالحس كيفية المحسوس، ولا كيف. لأنه لا بد للدرك بالحس من مكانية تتصل الحاسة من الحاس بالمحسوس.

فيقولان: وما هو؟

فتقول: لا ماهية، فإنها اسم لما لا علم له ولا مشيئة.

فيقولان: من هو؟

فيقول: خالق العالم لك يا ولد آدم، ومقدر السيادة من جنسك العالم.

فيقولان: أحدث هذا العالم تولداً من نفسه، أو تكوناً بحكمته؟

فتقول: إن التوليد لا ينفك عن مكانين، وقد ذكرنا أنه لا مكان له، وكذلك الأجزاء لغير مستقيم القول بالأجزاء مع الابتداء، فلن يتصور الشيء أجزاء إلا باجتماع، والاجتماع عرض، والعرض حدث، والموجود بالحدث لا يتصف بالقدم وباجتماع الأجزاء، ممّا يستدل على المحسوسات بالحدث، ولأن الموجود بالتوليد لا يتصور إلا على مثال المولد بجسمه أو بطبعه كالمتولد من كل أصل في العالم، وممّا يتولد من النبات بصنع بني آدم، ثم كان قوام المتولدات بطبائع متضادة اعتدلت بأجزاء اجتمعت، ولن تعادل الأجزاء إلا بقاهر، ولا الأجزاء تجتمع إلا بجامع وأنا في طلبه، ولم يجز أن يكون ذلك القاهر مولداً على مثال الولد، فيصير محدثاً كما صار الولد. فلم يبق إلا أن يكون محدثاً بالحكم، شاء فكان كما شاء.

فيقولان: إن كانت معرفة هذا المحدث على سبيل الوجوب، فمن أين أثبت

له اسم العنصر والهيولى؟ فبأي وجوب سمى العلة الأولى؟

فتقول: إنه لم يزل كان شبهة في عقدي، ونعم العقل الشورى، وبئس الرفيق الإعجاب بما نسمع أو نرى. إن العلة اسم لما يحدث بلا اختيار، كالمرض سمى علة لإحداثه تغييراً في المريض لم يكن ولا اختياراً للمريض، والقتل علة الموت، ولا اختيار للقاتل لا للقتل، والقاتل لا يسمى علة، وما لا اختيار له فمسخر لا يحدث مدبر، وأما العنصر والهيولى فلا يعقل لهما في لغتنا معنى، فندع ما لا نعرف بما عرفنا له معنى.

فتقول: إن الواحد من حيث إنه أول ما قبله شيء ذاتاً فيكون هو ثانياً بعد موجود، ما يماثله شيء سواه صفاتٍ، فيصير له زوجاً، إلا أنه واحد من حيث العدد فيكون جزءاً.

فيقولان: إنه وصف كاف، فما الاسم الذي هو معرفة شاف؟
فيقول: الله.

فيقولان: فما معنى الله، فقد تركنا الاسم بلا معنى؟
فيقول: الله تعالى كان في الأصل الإله. ولكن لينت الهمزة لكثرة الاستعمال، ثم أدغمت اللام في اللام، فصار الله والإله المستحق للعبودية والعبادة في لغة العرب، وكانت العرب تسمي الأصنام آلهة لاعتقادهم أنها معبودة استحقاقاً.

فيقولان: ولم كان هذا الاسم له اسم معرفة دون غيره من الأسماء؟
فيقول: لأن أدون درجات المختار أن يكون حقاً عليه اختيار العبادة فعلاً، والتزام العبودية عقداً، فكان الأعلى في مقابله ما ينبئ عن استحقاق هذا الحق عليه. وذلك اسم الله تعالى.

فدل الاسم على خلق هذا الخلق ليتحقق معناه فعلاً بهم، وبه نطق القرآن: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] لكن سجن الأمر دون الجبر، وبهذا الاسم نطق القرآن: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢] ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٢]. وقال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل حتى يقولوا: لا إله إلا الله»^(١).

وحدة وجود الله:

فيقولان: كيف نعرفه موجوداً بلا سبب، وقد استحال في الشاهد ذلك.
فيقول: إنك ترى في الشاهد الحادث عن سبب، وكلامنا في المحدث. ولأنك متى عرفت الوجود في نفسه عن سبب كان السبب موجوداً قبله، فلا يخلو ذلك الموجود عن آخر على مثال الشاهد، فيؤدي إلى ما لا تناهي.
فيقولان: وما الذي يمنعنا عن القول به، وقد لزمك في الشاهد الآدمي عن

(١) رواه البخاري في كتاب (الزكاة) باب (وجوب الزكاة). ومسلم في كتاب (الإيمان) باب (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله) حديث رقم (٢٠) (٢٢).

نطفة، والنطفة عن الآدمي، والبيضة عن الطير، والطير من بيضة دائرة، ما لها ابتداء ولا انتهاء.

فيقول: القول بالحدوث لجملة يضطرك إلى القول بتناهيه إلى حين حدوثه، ولا يتناهي إلا بجعل ابتداء الحدوث إحداث محدث، على آيات الحدوث، فيكون أزلياً ما له حدوث، فيتناهي إلى حين حدوثه.

فيقولان: أليس الانتهاء لنا في العاقبة، فكيف جاز الابتداء إلى ما لا انتهاء له، إنما هو خيط له طرف ابتداء، لا يجوز غيره، وحلقة ما لها طرف ابتداء وطرف انتهاء، فلما لم يكن لوجودنا انتهاء ثبت أنه لا ابتداء له.

فيقول: إن التناهي في الشاهد لأجزاء المحدث، حتى كان محدوداً ثابتاً، سواء كان خيطاً أو حلقة. وهكذا القول فيما أحدثه الله تعالى.

فأما من حيث البقاء، فذلك في الشاهد غير متناهٍ، وإنما يتصف بالبقاء، إذا وجد بقي كذلك بلا علة تبعية، ولا تزول إلا بعلة مزيلة، فكان الزوال.

وتناهي وجوده بعلة مزيلة لا بكونه حدثاً، فكذلك فيما أحدث الله ابتداء، لم يدر ابتداء وجوده على تناهيه، بل بقي إلى أن يوجد ما يزيله ولكننا حكمنا لا لعلمنا بعدم ما يزيله بدليله، بل بدليل أوجب بقاءه، كما أوجب ابتداءه.

فيقولان: فهلا امتنعت عن القول بالإحداث عن الله تعالى من عدم كما في الشاهد.

فيقول: للضرورة، متى امتنعت عنه لم يثبت العالم إلا من طريق التوليد من ذات القديم تعالى، أو من شيء قديم معه. والأمران باطلان ضرورة على ما مر. ولأنه في الشاهد امتنع الإيجاد - لا عن أصل - لعجزنا عنه، لا لأن ذلك الوجود مستحيل في نفسه، كما استحال من الأعمى الرؤية لعجزه، لا باستحالة الرؤية في نفسه، وكما استحال وجودنا بلا محدث، ولم يستحل الله تعالى هذا الوصف.

فيقولان: عرفنا هذه الجملة. فاشرح لنا صفة الواحد شرحاً تعرفه القلوب.

فيقول: إن الواحد من الحساب اسم للجزء الذي هو أول من الموجود، ووتر لا زوج من المعدود، والواحد من الصفات في الشاهد: اسم للسابق، من قولك: فلان واحد دهره، وما الله تعالى بجزء، فلن يكون جزءاً إلا بموجود آخر معه سواء، أو بكيونته قابلاً لانضمام جزء آخر إليه بمعناه والاجتماع، أو احتماله آية الحدث.

ولأنه لو كان معه شيء في الأزل لم يكن حادثاً به، فيصير قديماً مثله،

فيصيران اثنين، وفي القول بالاثنتين إثبات العجز عليهما في الإنشاء والتقدير، لأن الإنشاء من الاثنين لا يخلو عن تعاون أو تصالح أو تغالب أو غفلة، ولا تعاون إلا عن عجز عن التفرد بالفعل، ولا اصطلاح إلا عن عجز عن الغلبة والدفع. وفي المغالبة عجز وفساد، وفي الغفلة عجز وجهل، والعاجز عن غلبة موجود، أعجز عن إيجاد المعدوم.

فغلبة الموجود متصورة في الشاهد مع العجز عن إيجاد المعدوم، وكذلك العاجز عن معرفة الموجود أعجز عن إيجاد المعدوم، أو الجاهل بحال الموجود أجهل بعواقب المعدوم، ولأن الشيء الآخر مع الله لو كان تحت أمر الله، حتى خلق الله تعالى منه العالم بأصله، لم يجز أن يكون قديماً ككله، فثبت أنه واحد من حيث إنه أول، ما قبله ولا معه شيء ذاتاً، فيكون شريكاً له أو نظيراً له، وواحد من حيث إنه فرد لا يماثله شيء سواه صفات، فيكون الشبيه زوجاً له، لا مخلوقاً به، لأن الشبيه: مثل، وما المخلوق للخالق بعدل.

ولهذا سمى الله تعالى قول اليهود عزيز ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله: شركاً. وقولاً بالشفع للذات، لأن الولد شبيه الوالد في الصفات، وقد بطل القول بالشبيه، فثبت أنه واحد من حيث إنه فرد، ما له شبيه في صفاته، كما لا ثاني في ذاته، حتى فارق كل واحد سواه بصفة الواحدية، فمن دون الله لا يسمى واحداً إلا لانفراده عن نظيره بحاله.

والله واحد من حيث ما له نظير، وكذلك الله عالم من حيث لا يخفى عليه شيء لا من حيث الدرك بالضمير، قادر لا من حيث لم يقاومه غيره بل من حيث لا يفوته ما يشاء من صغير أو كبير. وكذلك كل من أسماء الله تعالى ثابت من طريق أنه لا يجوز أن لا يكون، وغير الله يتصف بأوصافه بأحوال، تثبت بيقين، حتى تحدث الأوصاف منا أسماء الأحوال، والله تعالى متعالٍ عن الحال والزوال، فالزوال ما له عجز ما لم يكن ممّا ينبغي أن يكون نقص. والرضا بالخلل عجز أو خبل منا، يجوز ذلكم بالله تعالى، وكيف يجوز؟

وكل كمال في الشاهد يعرف فمخلوق بخلقه، فكيف تستقيم القدرة على الخلق لغيره، على عجز في حق نفسه، ولأن الحادث لا بد أن يكون غيره، فيصير قولاً بالتثنية معنى، متى وصف بالحادث إن لم يكن دعوى. فهذا تفسير الواحد.

فيقولان: فما الحد القصد في الباب، فنأتيه ولا نتعده؟

فيقول: إن الله تعالى ما عرف إلا بحجة على الحقيقة، فلا تعرف أسماؤه إلا

بتلك الطريقة، ولا طريق في الشاهد للعلم المعتاد إلا الحس في المحسوسات، أو النظر والاستدلال بها على المغيبات، والله تعالى غير معلوم بالحواس، فلم يبق إلا النظر والقياس، فما للقلب حس نظر كما لظاهر البصر، وإنما نظره تفكره فيما ظهر مستدلاً به على ما استتر.

فيقول وبالله التوفيق: أن اسم الله يلزمك القول بالأسماء الحسنی التي أمثالها في الشاهد المنتهي ينتهي الكمال.

فاستحقاق العبودية له على ما سواه معنى اسم الإله، وإنه لا على الترتيب بشهادة الحال، وهي نحو: اسم الحي، القيوم، القاهر، العالم، القدير، الحكيم، الجبار، المتكبر، العزيز، الجليل، المجيد. واسم أنك عبد يلزمك القول بالأسماء الدالة على لزومك هذه الصفة، وذلك نحو: المطاع، المعبود، القدوس، السبوح، المعظم، الموحد، الحميد.

فكونك عبداً آية على أنك لست لك، ولكن لله. فكذلك أفعالك لا تكون لك في الاستيفاء، كما في الشاهد في ملك غيرك، فكذلك دل صفة عبوديتك على أسامي الله التي ذكرناها.

وأما صفة الواحد فتضطررك إلى القول بأقسام أربعة من الأسماء، كما تشعب معناه أربعاً: قسم دل على الهوية، نحو هو، فإنه كناية عن غائب موجود، والغائب عن الحواس الموجود في الأزل هو الله تعالى، وفيه معنى حسن وهو التعالي عن درك الحواس، حتى استحق اسم الكناية عن الغائب من غير غيبة.

فأما الشيء والذات والنفس فليست من أسماء الله تعالى، فما فيها معنى حسن، ولكن لا يقال: الله ليس بشيء، لما فيه من نفي الوجود، وكذلك الذات والنفس. ولا يجوز النداء بها، فلا يقال: يا ذات، يا شيء، بل يقال: يا خالق كل شيء وكل ذات.

وإنما ذكر الله تعالى نفسه لإثبات الهوية، لا لبيان أنه اسم مطلق، فإنه لم يذكره إلا مضافاً إليه، والاسم ما يعرف المسمى، لا ما يعرف بالمسمى.

وقسم دل على الأولين: نحو الأول القديم الأزلي.

وقسم دل على الوحدانية: نحو الوتر الفرد الأحد.

وقسم دل على العلو، وذلك بإثبات جميع الأسماء الحميدة الدالة على الكمال في الشاهد، لا من الطريق الذي يكون في الشاهد بأحوال من أسباب على احتمال، ولكن على الوجوب نفيًا للنقصان وإثباتاً للجلال.

وأما صفتك أنك ممتحن يلزمك القول بأقسام أربعة: قسم دل عليه وجودك عن العدم نحو: القادر، والقاهر، والخالق، والمالك. فالعدم لا ينقلب وجوداً إلا بأعلى وجوه القهر.

وقسم دل عليه وجودك للبقاء بأسباب نحو: الرازق، المقيت، المقدر. فلا بقاء لنا بدون الرزق، ولا اعتدال إلا بالإقاة، وهو الإعطاء بقدر، مأخوذ من القوت، وهو: المقدار الذي به يزجي العمر، ولا ملك بقاء إلا بتقدير مدة الحياة.

ودل البقاء للمحنة والجزاء على أنه: حكيم، عليم، شهيد، حسيب، غني، محيط، كريم، رحيم، ونحوها. إذ الصنع إنما خرج من حد العبث إلى حد الحكمة بالمنحة للجزاء، فدل البقاء لهذه المحنة على أن الصانع حكيم، ولا حكمة حيث لا علم، ولا علم إذا غاب عنه شيء ولم يشهده. أو فاته جزء، ولا يكون علمه حسبه إذا لم يكن محيطاً، ولا صنع للمحنة مع الصفح عن جزاء الخبيث للحال إلا عن كرم ورحمة، ولا جزاء للمحسنين من غير نفع يعود إليه من إحسانه إلا على طريق الغنى والحكمة، ودل الجزاء على أنه باقٍ آخر دائم، لأنه متى لم يبق لم يتصور منه الجزء الباقي. ودل على أنه ديان مالك يوم الدين يوم جزاء الإحسان بالإحسان، والسيئة بالسيئة فالديان اسم شامل للعبيد كلهم.

وأما على التفصيل فجزاء الإحسان يلزمك القول بالفضل والرحمة والعفو والمغفرة والتجاوز والتوبة، لأن الجزاء مما كان لله خالصاً، فجعله للعبيد بذاته وحركاته لله تعالى، وإنه لفضل، وكذلك الجزاء غير معيب، والعمل معيب. فقل ما يخلو العمل عن عيب ظاهر، أو سر أدناه بالفكرة في غير الرب تعالى، ومن الذي يملك خطرة القلب والرد بالعيب من العدل، فإذا قيل كان من الفضل.

وكذلك الجزاء أضعاف، والعدل بالمثل، وجزاء السيئة يلزمك القول بالعدل والحكمة والغضب والسخط والعزة، لأن العدل عبارة عن الحكم بالحق بلا زيادة ولا نقصان بلا ظلم، ولا غفران. وفيه حكم السياسة وذلك في مجازاة العاصي بمثل معصيته في الآخرة.

فيقولان: قد ذكرت أن الله تبارك وتعالى أزلي بأسمائه، فكيف تعرفه خالقاً ولا مخلوقاً؟

فيقول: إنا لا نصف الله تعالى بأحوال تحدث - تعالى الله عن ذلك - ولكن سميناه خالقاً على معنى القدرة على إيجاد المعدوم، فالخلق هو الاسم الخاص الدال على هذا المعنى، حتى قيل للكذب: خلق، لأنه ليس له مخبر عنه سابق،

وإنما هو إيجاد للحال، أو عبارة عن ابتداء التقدير لأمر يريد أن يفعله الصانع على الصواب، ولله تلك القدرة به.

فأما إخبار عن الفعل وهو أنه خلق الخلق، ولا نجعله أزلياً، وإنما نريد به ما انخلق هذا العالم به حين الخلق، كما يقال في الشاهد: فلان مناظر إذا ظهرت قدرته عليها، ولا يقال: ناظر فلان إلا إذا وجد منه فعل المناظرة معه حقيقة، إلا أنه في الشاهد ما تثبت الصفة إلا بظهور الفعل منه بحق، وتثبت الصفة للصانع بالحجة قبل الخلق، وكذلك نقول: إنه متكلم لم يزل، وقال الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]. ولا يقال: كلم الله موسى لم يزل. وكذلك الكلام في الشاهد إنما يكون بصوت مقدر بحروف منظومة خارجة عن مخارج معلومة. وتعالى الله عن الكلام بهذا الحد، وإنما نعني بالوصف ما يدل على القدرة الخاصة التي يكون عنها الكلام معروفاً، لا عن الصوت والحروف. فذلك نقول: غضب الله على الكافرين، وإن في الشاهد عبارة عن حدة تعتري الإنسان هيجان المرة، فتحمله على الانتقام بالعدل من العصاة بالمثل، وعلى هذا المعنى أسماء الله تعالى بلا حال، وإن كانت أسماء حقيقتها في الشاهد من هذه الأفعال.

فيقولان: فما علينا، وقد علمنا الحجج؟

فيقول: العمل بعلم ثبت لك بها، فقد ذكرنا أن الله خلقك للعمل بالعلم.

من أين البداية؟

فيقول: من عمل القلب، وعمله الاعتقاد، وتصديق الحجج، وهو الإيمان، وإنه عمل بالعلم، فصد الإيمان كفر، وضد العلم جهل، وإبليس عالم بالله كافر به، ويقول الله تعالى حكاية عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]. والجحد والكفر واحد، ومن أهل الكتاب من علم برسول الله ﷺ بنص الكتاب، وكفر به العلم في تبدي المطلوب للقلب وتجليه، حتى لا يبقى خفياً عليه، والعمل في تصديق القلب ما تبدي وعقد عليه فإذا صدق بقلبه تم إيمانه بينه وبين ربه، غير أن الله تعالى جعل الشهادة به نطقاً من الإيمان، ركناً بخطابه على لسان رسوله ﷺ وكتابه، ليتم إيمانه بينه وبين خلقه، ويتمكن الرسول عليه الصلاة والسلام من إقامة حكم الله له وعليه بحقه، وبهذا لم تجب الشهادة إلا مرة، فإنها لعلم الناس به وقد حصل بالمرة، وهذه قاعدة لها.

وأما الاعتقاد فحق الله تعالى، وإنه ثابت أبداً ما يحتمل زوالاً ولا حالاً.

فيقولان: لله كتاب ورسول، خطاب غير دلالات العقول؟

فيقول: نعم. لله رسل من الملائكة المقربين، ورسل من البشر المكرمين، وكتب قيمة، وصحف بينة، فيها هدى وشفاء للصدور، وبيان لكل شيء يحتاج العبد إليه لتمام دينه بآتم نور، فيستغني العبد فيها هدى وشفاء للصدور، وبيان لكل شيء يحتاج العبد إليه لتمام دينه بآتم نور، فيستغني العبد بهداه عن رأيه إلا في معناه.

فهذا البيان من علام الغيوب الذي لا يخفى عليه شيء من الأصول والفصول، كبيان المجتهد المستدل بدلالات العقول، إذ ذلك يقين، ويشوب هذا كثير من الظنون.

فيقولان: وبأي دليل نعرف الكتاب والرسول؟

فيقول: بآيات معجزات على ما ذكرنا فيما مضى من الفصول.

فيقولان: فما الآية القائمة للحال على هذه الدعوى؟

فيقول: كتاب الله الذي فينا، فهو معجزة بفصاحة النظم، وبلاغة المعنى على ما سبق ذكره ويأتيك وصفه.

فيقولان: وما اسم هذا الكتاب؟

فيقول: جاء وقت انتقاد ما أملينا عليك من مواجب العقول على الكتاب الذي لا يأتيه باطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، ووقت جوابي لك بعد هذا على ما نطق به الكتاب من غير تقصير في معرفته، ولا غلو بالرأي على مخالفته. فالله تعالى يقول: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. والفائز من قبل هذا النص، ولم يستعمل الرأي إلا فيما يجد النص.

فيقولان: نعم. فما اسم الكتاب؟

فيقول: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]. وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]. وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. واسم كتابنا القرآن، واسم كتاب عيسى عليه السلام الإنجيل، واسم كتاب موسى عليه السلام التوراة، واسم كتاب داود عليه السلام الزبور.

المحكم من القرآن

فيقولان: كيف الانتقاد بالقرآن؟

فيقول: بأن يتأيد القرآن وآياته بما أثبتته العقل من حياته، فالعقل نور هاد، والوحي ضياء كاف، وهما حجتا الله لا تتراد ولا تضاد، لكن الشرع فوق العقل كالشمس فوق السراج على ما سبق القول فيه. والقرآن منه آيات محكمات، وآيات

متشابهات، فالمحكم ما جاء شاهداً بما شهدت به العقول من الواجبات التي لا تحتمل النسخ بحال، سمي محكماً للأمن عن انتساخه، كالبناء المحكم الذي أمن من انتقاضه، والمتشابه ما جاء مؤيداً للواجبات بأصله، راداً بوصفه، فتشابه على السامع علمه من حيث خالف حجة العقل من وجه دون وجه، ولا سبيل إلى المخالفة، فوجب القول بالمحكم كله، والوقوف في حد المتشابه بعد إثبات أصله طلباً للتوفيق بين حجج الله تعالى. قال الله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

فيخبر أن من اتبع المتشابه وأوله كان من الزائفين المتبعين للفتنة والأباطيل، ومن آمن بالمتشابه وبأنه حق من الله من غير تأويل كان من الراسخين في علم التنزيل. وإنا قد بينا لك الواجبات من العلم الذي لا بد منه لتتمة الإيمان: معرفة الله تعالى بطريق الآيات، وبه شهد القرآن. قال الله تعالى: ﴿سَرُّهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وقال: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]. وقال: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال عليه الصلاة والسلام: «من عرف نفسه عرف ربه»^(١).

ولأن أساس الإيمان بالله تعالى الكفر بالطاغوت. قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقال حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩]. وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. بدأ بالنفي واستثنى الإثبات منه، ولا يتصور الكفر بالطاغوت ونفي الألوهية عما سوى الله إلا بالوقوف على آيات الحدث في العالم. فيلزمه التبري عنه إلى خالق العالم، وقد قال تعالى في ذكر أسمائه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١، ٤]. وقال: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢، ٢٤].

(١) رواه البيهقي في سننه. وابن السمعاني في كتاب الإملاء وذكره المناوي في قبض القدير ج (١) ص (٢٩١).

وفي القرآن: الحميد، المبدىء، المعيد، الخالق، الفاطر، القادر، المقتدر، الوكيل، الحسيب، الشهيد، العليم، الرب، القدير، الخبير، الحي، القيوم، الأول، والآخر، الظاهر، الباطن، إلى سائر الأسماء المذكورة، ذكر الله تعالى بها نفسه، فاذكر الله بها ممّا وصفناه بجميعها، فإنها محكمة دلّت عليها العقول والآيات. وإياكم والزوائد المذكورة من عند الناس ممّا ليس به في القرآن أساس، فالجهل بها لا يضلّكم، وعلمكم بها ربما يزلّكم، ومن أحسن أداء الفرائض لم يَأْتِ بترك النوافل.

المتشابه من القرآن:

والمتشابه نحو قول الله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]. ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. فاليد والوجه اسم حميد لذات ذي صفات كالجسم بل فوقه، والعقل يثبت الاسم الحميد لذات الله تعالى، وينفي الأجزاء، ولهذا لم يوصف الله تعالى بالجسم ولا بما يجانسه من الاسم، فصارت هذه الأسماء في كتاب الله من المتشابه الذي لا يجب رده بأصله، فأصله اسم حميد لذات، وعلى هذا أسماء الله تعالى والصفات. ولا يجوز إثباته بوصفه، فوصفه حدث، والله قديم، فيجب الإيمان به وتفويض تأويله إلى الله الخبير، وهذا القول العدل بين الغلو والتقصير.

فمن الناس من أثبت هذه الأسماء على حقائقها، ووصفه بالجسم قياساً على طرائقها، وإنه لتقصير، فقد خالف مواجب القول بهذا التفسير، منهم من حمل هذا الاسم على المجاز، فأول اليد بالنعمة، وحمل الوجه على الذات طلباً للجوار، وإنه لغلو أو نفي لاسم حميد في الشاهد شهد به الكتاب بلا ضرورة على كل جاحد. والإيمان بأصله بلا تفسير لوصفه عدل بينهما، يهتدي به المقصر، ويرجع إليه الغالي، ويسد باب القياس عليه، فقد اشتبه معناه، ولم يصل إليه.

فيقولان: ما تقول في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رُبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]؟ أو: «يأتي ربك يوم القيامة يكشف عن ساق».

فتقول: إنها مؤولة بمجازها على مجيء أمر الله كقول الله: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]. أي: أهلها. وكشف الساق عبارة عن شدة الأمر، كقولك: فلان شمر ذيله في أمر كذا. أي: لأن المجيء والإتيان والساق ليست لها معانٍ حسنة تدل على العظمة والمحمدة، وأسماء الله تعالى وصفاته حسنى بنص الكتاب. يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠] كما لم يجعل الشيء والذات

من أسمائه وإن لم ينبئ عن معنى الحدوث لخلوهما عن معنى حميد.

ومن المتشابه قول الله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢]، و«إلى» كلمة غاية، وما بين العبد وربّه مسافة، ولا له حد فيتصور غاية في النظر. والعيان إيقان بالذات فوق دليل الآيات، وزيادة دليل العلم بالذات حميدة، ومسافة النظر بالغاية مردودة، فوجب إثبات أصل النظر والرؤية على نفي حدهما في الشاهد، وتفويض تأويل الحد إلى الله تعالى قولاً عدلاً بين قولين: نفي النظر إلى الله عزّ وجلّ أصلاً، وقول من أثبت النظر إليه بمسافة واختلاف مكانين بين العبد والرب، تعالى عن الأمكنة كما تعالى عن الأزمنة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ لَيْلَةَ رَبِّهِ ۖ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]. والتجلي نظير الرؤية، فإنه دليل على العيان، ولن يكون على الحقيقة إلا بزوال حجاب عن المتجلي به، والحجاب لا يتصور إلا بين مكانين، ومسافة بين شيئين، فيجب إثبات أصله بالنص، وتفويض تأويل حده إلى الله تعالى.

ومن المتشابه قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]. ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. والكرسي اسم لما يجلس إليه، والعرش لما يستقر عليه، والاستواء عليه: الاستقرار عليه، وفيه دلالة على العلو والعظمة، فقد وسع كرسيه السموات والأرض، وعلا عرشه حتى لا تعرج الملائكة إليه إلا في يوم قدره خمسون ألف سنة، ودلالة أنه تعالى معلوم لقصد العباد إليه لحوائجهم، لكن بمكان، واستقرار هذا الحد دلالة على الحدث، فوجب إثبات أصله على نفي حده، وتفويض تأويل حده إلى الله تعالى.

ومن المتشابه قول الله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] مع تيقن كل شيء يفعل به بقدر وسعه على سبيل الملك والاختيار، دون الإجمار، والاختيار عن ملك هو المشتبه، والنص بحقيقته يتأدى بخروج أعمالنا تحت مشيئة الله تعالى، دون مشيئة العبد، وفيه إثبات القدرة كلها وإثبات القهر لله تعالى، ونفي العجز والإهمال والغفلة عن الأفعال، فيجب إثبات أصلها، والقول بآلا حد بغير مشيئة الله تعالى وتقديره وحكمه من غير إثبات حده على التمام في جانب الفاعلين من الأحياء الخارجة أفعالهم عن اختيار عن ملك، بل تفويض تأويله في الحد إلى الله تعالى.

وقد سئل أبو حنيفة رحمه الله عن القدر فقال: «مسألة مشككة مبهمة، لا يعرفها إلا من يخبر عن الله عزّ وجلّ، وقد انقطع الوحي، ولكنني أقول قولاً بين

قولين، أينما مال ملت معه». كما قال جعفر الصادق: «لا جبر ولا تفويض، ولا كره ولا تسليط».

فالناس من قديم الزمان في هذه المسألة على قولين: قول بالجبر، وإن الله تعالى هو الفاعل والمقدر بلا اختيار للعبيد. وقول بأن المكلفين هم الفاعلون عن تقديرهم بلا قدر لله تعالى فيها. فصار قول أبي حنيفة عدلاً وسطاً بينهما، جامعاً بين أهل الفرقة، وسبباً للهداية والألفة.

وفسر بعضهم بأوضح من هذا فقال: لا فعل بغير قدر، والفعل مضاف إلى البشر، رداً على من سلط أو أجبر. على مثال مريض لا يقوم بنفسه، ولا يمشي لضعفه، فيأخذ صحيح بيده، فيقوم ويمشي إلى جنبه حيث يريد، فيكون مشيه مضافاً إليه، ولا يتصور بدون يد الآخذ، ولهذا رد الله احتجاج الكفرة بالمشيئة والقدر، وكان الاحتجاج بها للتنصل عن المعاصي كفراً، فقال تعالى حكاية عنهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]. وأجاب: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. وليبين أن المشيئة ثابتة لا على حد الجبر، ولو كانت جبراً كانت لهم حجة وعذراً. وقال: ﴿وَلَكِن يَضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣]. وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]. ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]. وقال: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. فبين أنه لم يشأ هداهم وهم مشركون، ولو شاء هداهم ما أشركوا، ليبين أنه لا فعل دون مشيئة. وقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]. ليعلم أن الفسوق مضاف إليهم لا إلى المشيئة.

ومن المتشابه قوله: ﴿وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وقوله: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]. فالميزان دليل على الحساب بالعدل والمساواة والقصاص، وإنه حسن واجب في المجازاة على السيئات، لكن على حد لا يمكن إثباته في حساب المعاصي والحسنات، فيجب القول بأصله، وتفويض تأويل حده إلى الله تعالى.

ومنه قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. مع عياننا بالموت بزوال أعلام الحياة، فيجب الإيمان بالحياة عليهم بالكرامات، وبضدها في العصاة، على تفويض تأويل الحد في الشاهد إلى رب السماوات.

فصارت الأقسام أنواعاً أربعة: ما حسن أصله لحده مضافاً إلى الله تعالى،

فيكون محكماً يجب الإقرار به . وما قبح بأصله مضافاً إلى الله تعالى ، فيجب نفيه عن الله تعالى ، وطلب التأويل للإضافة بإضمار . وما حسن أصله مضافاً إلى الله تعالى وقبح حده ، فلا يجب رده ولا تأويله مجازاً ، ولا الإيمان بأصله وحده على جوازه ، فكلاهما في الدين فتنة ، بل يجب الإيمان بأنه حق على الإجمال ، فإنه من عند الله المتعالي . والقسم الرابع : ظواهر غير محكمة يجب العمل بها على العباد بلا علم يقين واعتقاد مما اختلف فيه الأئمة من علماء الأمة .

فيقولان :

فهل يلزمنا بالكتاب زيادة أمر من الاعتقاد لتتمة الإيمان برب العباد؟

فيقول : نعم ، أن تؤمن بالله وملائكته ورسله ، لا تفرق بين أحد من رسله ، يقول الله تعالى : ﴿ ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] . وقد ذكرنا لك من قبل ما لزمك من الإيمان ، فإن الدنيا خلقت للفناء ، وأنت مبتلى فيها بالطاعة لربك على أداء أمانته إلى الموت ، ثم مبعوث يوم القيامة للحساب والجزاء ، وأن الجزاء هو الدار والآخرة الباقية على وفاق الأعمال ، إما ملك ونعيم ، وإما نار وأنكال ، وكل ذلك في كتاب الله تعالى . قال الله تعالى في فناء الدنيا : ﴿ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَنِ الْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨] . ﴿ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧] . ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ [التكوير: ١] . ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفطرت ﴾ [الانفطار: ١] . ﴿ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الأحقاف: ٣] .

فبين أنه خلقها إلى أجل ، والحق فيه ، إلى آيات كثيرة ، وبينات منيرة . وأما فناء الأحياء ففي قوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهٌ رَبِّكَ ﴾ [الرحمن: ٢٦ ، ٢٧] . ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] . وأما كون العقلاء مبتلين بالطاعة بأداء الأمانة ففي قوله : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ﴾ [الأحزاب: ٧٢] . وأما الخلق لذلك ففي قوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦] . وأما العبادة على سبيل الابتلاء ففي قوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧] . وأما بعثنا يوم القيامة فبقوله : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٦] . إلى آيات كثيرة للحساب كقوله : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٨] . الآيات . ثم الجزاء بقوله : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الجاثية: ٢٢] . إلى آيات فوق الإحصاء على الجزاء على وفاق الأعمال كقوله تعالى : ﴿ جَزَاءُ وَفَاقًا ﴾ [النبا: ٢٦] . وقوله : ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠] . وكقوله : ﴿ وَجَزَاؤُا سِنَتْهُ سِنَتْهُ مِثْلَهَا ﴾

[الشورى: ٤٠] إما نعيم، وإما جحيم، لقول الله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١] ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧٣]. وقال: ﴿إِلَّا الْمُنَاقِبَ﴾ يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكَ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿[الزخرف: ٦٧، ٦٨]. ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [الزخرف: ٧٠] وقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤]. إلى عدة نصوص وجملات فصول. وقولنا: باقية، لقوله: ﴿خَالِدِينَ﴾ ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ﴾ [الدخان: ٤٤].

فيقولان:

ولم خلقنا مبتلين بأداء الأمانة وهي أعمال يعمها اسم الديانة، وإنما على جهل بمعظمها فكيف السبيل إلى عملها؟

فنقول: بكتاب الله، وبيان رسول الله ﷺ. فالكتاب أنزل بياناً لكل شيء، والرسول أرسل ليبين للناس ما أنزل عليهم. وقد نطق الكتاب بكل الفصلين، وما ضلّت أمة ممّن مضى قبلنا إلا باتباع آبائهم وفساق علماء دهورهم، نبذ الكتاب وراء ظهورهم.

وبالتمسك بالكتاب أوصى رسول الله ﷺ عند موته فقال: «تركت فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي»^(١). وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «إذا سئلتهم عن شيء فلا تردوا الناس إلى كتاب الله». وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا روي لكم عني حديث فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق فاقبلوه، وما خالف فردوه»^(٢). وكان لعمر رضي الله عنه كتب إلى العمال فيها أحكام كثيرة فلما بلغه اشتغال عماله بها، جمعها ومحاها، وقال: «خفت أن أشغلكم بها عن كتاب الله».

فيقولان: كيف السبيل إلى علمه؟ والوقوف على حكمه؟

فيقول: أما علمه حفظاً فيسيراً، وقد حفظه من الصبيان والعوام كثير، والشأن في علم التأويل والتفسير، فما ناله إلا الموفق الكبير، فإنه لا ينال إلا بعلوم أربعة: لغة العرب، وعلم النحو، وطرق الاستعمال، وعلم طرق القياس الشرعي والاستدلال، ليعرف ظاهر تفسيره باللغة، واستقامة نظمه بالنحو، ومعاني البلاغة والإعجاز بالوقوف على طرق الاستعمال، وغير المنصوص على حكم من الحوادث بطرق القياس والاستدلال. فمن فسر القرآن برأي نفسه عن هواه ضل في

(١) رواه مسلم في كتاب (فضائل أصحاب النبي ﷺ) باب (في فضائل أهل بيت النبي ﷺ) حديث رقم (٢٤٠٨).

(٢) رواه الإمام أحمد بنحوه في المسند (١٨٢/٦).

مغزاه، ومن فسر برأي استفاده من أصول الدين رشد بيقين، قال عليه الصلاة والسلام: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»^(١). أي: برأيه الثابت بالطبيعة قبل الوقوف على أصل الشريعة.

والأعمال التي هي أمانة الله من أبواب الديانة بعد الإيمان هي من القسم الرابع الذي يجب إقامته بالنص الذي يوجب العلم يقيناً، والظاهر الذي يوجب غالب الرأي.

من أسرار الإيمان وأبوابه:

وعليك قبل الشروع في هذا الباب أن تعلم أن الإيمان بالله لزمنا لعاقبة مسارعة الجسم إلى العمل بأمر الله، والكف عن نهيه، على ما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فلن يوجد ذلك من الجسم بعد الإيمان إلا بمقدمتين: اعتقاد السمع والطاعة لله تعالى على كل حال، على ما قال تعالى: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وعمل السمع للقلب، وهو نوعان: الرضا بأحكامه فقد عرفه عادلاً، والشكر على أقسامه فقد عرفه فيما أعطى وإن قل محسناً. وعمل الطاعة للجسم وهو نوعان: الكف صابراً بقدر المكنة على ما يهوى إلا بإذن المولى، فقد عرف ذاته عبداً لا ملك له، والمسارعة شاكراً إلى ما يدعي، فقد عرف ربه مولى وجبت طاعته وإن دعاه إلى ما فيه منيته.

فالإيمان اعتقاد أن الله مولاه، وأنه عبده، واعتقاد السمع والطاعة، وترك ما يلزم القلب كفر، فالتقيد إيمان. وترك ما يلزم الجسم بلا تبديل عقد فسق، والطاعة بدنأ ما لم تكن من الإيمان إلا بالقلب، فإنه لا يكون إلا بمعرفة، وما لسائر الجوارح معرفة بالرب، ولذلك قلنا: إن المؤمن الفاسق تام الإيمان، لكن جسمه مدنس بالعصيان، وإنه في مشيئة الله إن شاء عاقبه بقدر عصيانه حكمه، وإن شاء غفر له وأدخله الجنة جزاء على إيمانه رحمة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وإنه القول العدل بين الغلو والتقصير.

فمن الناس من قال: إن المعاصي كلها مغفورة مع الإيمان، وإنه لتقصير، والآيات كثيرة في وعيد المؤمنين. ومنهم من قال: إن صاحب الكبيرة مخلد في النار، وإنه لغلو، والآيات فرق بين دار الكافرين، ودار المؤمنين.

(١) رواه الترمذي في سننه، وقال: حديث حسن.

والعدل في التفويض إلى مشيئة الله كما نص الله تعالى، كيلا يجترئ العبد على المعصية، ولا يستوي الذين اجترحوا السيئات والذين عملوا الصالحات محيا ومماتاً، ولا ييأس العاصي من الرحمة، ولا يستوي الكافر والمؤمن في دار الجزاء. فإذا اعتقدت السمع والطاعة رهبة، وأسلمت جسمك لله تعالى رغبة تلونا عليك ما يجب الكف عنه وهو الأساس، وإنه باب، وما يجب فعله وهو البناء، وهي الطاعة أبواب. وأقسامها أربعة: عبادات، وحدود، وما بينها وهي: كفارات، ومعاملات. وهي حقوق الناس.

أما العبادات فأربعة أقسام في كتاب الله تعالى: الصلاة، والزكاة. يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] إلى عدة آيات. والصوم، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣]. والحج، يقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وإن لكل عبادة أسباباً تجب بها، وأركاناً تتأدى بها، وشروطاً لا يصح الأداء إلا معها، وسنناً لا تكمل دونها، وهي من أبواب الفقه، وقد ذكرناها في تصانيف الفقه، وكتابنا هذا لتهديب أحوال العبد لأداء ما لزمه بسمعه وطاعته، وباب الفقه يسير، وهو باب عزيز، ففي الفقه تبحر في العلوم، وللنفس فيه إمرة، وفي التهذيب للبناء على السمع والطاعة عزل النفس عن الإمرة، إلى العبادة والعبودية.

فيقولان: فصل لنا هذه الأحوال، فقد شغلت الخواطر، وأذيت الضمائر، ومتى قلنا: عبرنا البحر أعدتنا إلى اللجة، ورددت علينا الظن بحجة، وفقك الله لبيان غرائب العالم، ووقفنا لحمل ضرائبه عن فهم.

فيقول: قد ذكرنا لك أن الجسم الظاهر رعية الباطن، وقد أسسنا الصيد الباطن فيما مضى للرب، فعلى ذلك يؤسس لصيد الظاهر للقلب، لتصير الرعية إذا أطاعت أميرة لمولى الأمير، فيكون العبد صفو الله بالظاهر والضمير، وإنه مبدأ الأمم الأقصى، فيه ينال العبد العتق والملك والمنزلة العليا.

فيقولان: كيف إيضاح هذا المشكل، وتدبير المدبر عن المقبل؟

فيقول: إن القلب ما رأى ربه ولا عرف عاقبة إيمانه إلا بأسباب أربعة موجبة للعلم: الحواس، وسر القلب، والمرأتان، على ما مر شرحهما أولاً، ثم المسير ستة عشر منزلاً.

وبيانها أنه رأى أول ما رأى الظئر، ثم الأم، ثم الأب، ثم نفسه لملك نعيم

الدنيا، ثم علل النعيم، ثم النجوم، ثم الهيولى، ثم المولى جلّ جلاله. فكان القلب سائراً في علمه وراء الحق حتى وصل إليه بجدة عن صدق، وحلّ بمناهله لثامن منزله. ثم سار مثلها مع الحق حتى تمت المعرفة على الحقيقة واستوى باليقين الطريق بأربعة أقسام من الأسماء من حيث إنه الحق إله واحد، وأربعة أقسام من حيث إنه عبد ممتحن، حتى لما تمت المعرفة أيقن به، فتجلى الله له، فأمن به وصفا قلبه لله بالإيمان والتصديق. ثم اعتقد السمع والطاعة، هي عاقبة الإيمان عن تحقيق. فدعا الجسم الظاهر إليها، والنفس أمارة بخلافها، مانعته عن طاعة القلب إلا كرهاً، وإنها في منع الجسم عن الطاعة على مثال ظلمة الجهل المانعة للقلب عن العلم بالرب.

وكما لم تصد الروح القلب عن بخار الجهل إلا بشباك النظر عن عقد بعد عدة منازل على ما مر من التفسير، كذا لا يصيد القلب الجسم للطاعة على النفس إلا بتلك الشباك في مثل تلك المنازل، والمسير ثمانية منازل يسير فيها بعلم الله تعالى على جهل بنفسه، لا يقف على نفسه إلا عند ثامن منزله. وثمانية يسير فيها بالعمل لله على علم بنفسه، لكن بسيره مع نفسه لا يقع الكفر بها علماً وعملاً إلا بثمان من منازل.

ولن يقع برق العمل إلا بأربعة أسباب موجبة كما كانت للقلب، وهي: خوف، ورجاء، ومعرفة العبودية، والألوهية.

فالخوف سبب الكف لا محالة إذا صدق، والرجاء سبب العمل إذا صدق لا محالة، والعبودية سبب التزام الطاعة لا محالة عجزاً، والألوهية سبب الإقامة شكراً. لأن الله تعالى إله منعم بفضله، كما هو عبد مخلوق بأصله، فكانت الأسباب الموجبة لما على الجسم الظاهر غير الأسباب الموجبة لما على الجسم الباطن، كما اختلف المطلوبان والمحلان، وكما اختلفت العاقبتان.

فعاقبة العلم منازعة الجسم إلى العمل لله بأمره، والكفّ عن نهيه، وعاقبة العمل: إصابة العبد عتقه، ثم ملكه، وبذلك مضى قدر الله وحكمه، يفعل ما يشاء، لا مرد لحكمه، ولا زوال لملكه، فكانت أسباب العلم ما أوجب زيادة استسلام. فهذا تفسير الأسباب.

أما تفسير منازل العمل، فأولها: الدعوة، ثم المحافظة، ثم الجهاد، ثم الخلافة، ثم القرار، ثم الرياضة، ثم الإغارة، ثم الأسر. فهذه تمام المنازل التي سار فيها حتى وقف على نفسه.

وأما المنازل الثمانية الآخر فأولها السكر، ثم الصحو، ثم الخمار، ثم

السوق، ثم الصبر، ثم الرضا، ثم الشكر، ثم اللقاء. فهذه المنازل الثمانية التي سار فيها مع العلم بنفسه، حتى صفا عملاً لربه، دون نفسه.

ثم لن يصفو عن خبث النفس، ولن يصير عتيقاً، حتى يسلمه القدر إلى الله بالموت، فتلتقمه الأرض، ثم تعصره، فيمر بين الخبيث والطيب منها، فتسقط عنه حينئذ محنة العبادة، وتزول عنه ظلمة الخبث، فيصير حراً، ضيفاً من ضيوف الله تعالى في قبره، وسراجاً منيراً من سرجه.

وكان هذا العمل من الجسم لعاقبة العتق، وصيرورته صفو الله، ضيفاً من ضيوفه، كعمل الجسم في الدنيا لطلب الرزق لعاقبة أن يصير الرزق لك صفواً، وأجزائه من أجزائك. فقد خلق نعيم الدنيا لهذه العاقبة، وهي تأكله فيصير جزءاً منك تعلق بقاؤك به، وخلقنت أنت لعاقبة أن تأكلك الأرض، فتصير أنت جزءاً صفواً عن الرق، نوراً من أنوار الله، ضيفاً من ضيوف الله، وتعلق حكمة الله في الصنع به.

ثم إنك لم تصل إلى عاقبتك من دنياك إلا بهذه المنازل: مبدئها الزراعة، فلا بد للقوت منها على العادات، ثم المحافظة، ثم التربية، ثم الإدراك، ثم الحصاد، ثم الدياس، ثم التذرية، ثم الإحراز. فهذه أعمال نفع في هذه المنازل على بعد الرزق منك، لم يصل إليك إلا بثامن منازل.

ثم احتجت بعدما وصل إليك إلى ثمانية أخرى: الطحن، والنخل، والعجن، والخبز، ثم اللحم للطبخ، ثم حوائج القدر، ثم أبازيه، ثم التقديم على المائدة، وهي حالة التجلي لك. ثم التسليم إليك بالأكل، ثم الهضم بطبائعك، ثم يحول الطيب منه جزءاً منك صفواً، وزال الخبث وسقط عنك، ليكون عملك هذا على الترتيب لحظ مطلوب لك من الدنيا، مع علمك ببلية من غيرك حجة عليك لعملك على هذا الترتيب.

والمنازل الثمانية الأولى منازل الفقهاء الموقنين، والمنازل الثمانية الأخر منازل الفقهاء العارفين.

فيقولان:

فما العلم الفاصل بين العلمين؟

فيقول: الفقيه الموقن: من كان تفكره في الملكوت الظاهر بالحواس، المسموع من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. والفقيه العارف: من كان قلبه مع الملكوت الباطن: النار والجنة، بل مع المولى، قد عميت عينه عن هذه التي

خلقت للأجانب، ودار شبهة للمعارف، وأبصر سره الباطن، المعلوم له بالدليل يراه، فسرره رؤية الناس بعد البعث .

فيقولان: فعليك بتفسير ما أجملت، وإقامة الدليل على ما فصلت .

فيقول: إن الموقن بالله تعالى بمحاجة الروح ودعوته غافل عن النفس بسكوته عن معارضة الروح بجهله أو حيرته، فلا معرفة إلا بحس، وما النفس بمحسوسة، أو بما خطر بالقلب، وما خطر بها بعد من خطر .

فظن إذا سلم له جسمه أنه فرغ من نفسه، وبقيت عليه دعوة غيره، فأقبل على دعوة جنسه بأمر ربه كما كان أقبل عليها في حقه، فيذر حجج الله في عبادة خوفاً على ذاته من الهلاك بعذاب الله أن يختتمها على مثال الزارع يبذر الحب الصالح لقوته خوفاً على نفسه الهلاك إن عدمها . فما حمل الرجلين على العمل - والجسم يحب الراحة - إلا الخوف .

ثم الزارع الرفيق لا يقدم على الزراعة - وقد أمسك عن نفسه لطلب العقابة - إلا بعد مقدمات أربع: اختيار أطيّب بذر، وأخصب مزرع، لا جرف ولا رمل، وأوسط وقت لا حر ولا برد، وأعدل حال الأرض لا يابسة ولا رطبة .

فلا يبتدئ الداعي أيضاً أمر الدعوة إلا من أوضح حجة، وكذا أخصب قلب عقلاً، وأوسط وقت للاستماع إليه، لا وقت نوم ولا وقت عمل، وأعدل حال للمستمع، ما يقلبه فرح ملهي، ولا غم منسي، ثم يبذر الحجج في القلب على أنه قاصد بها حقاً لله عليه بتمكين من الله إياه، ما يطلب من الناس أجراً ولا شكراً، فقد عمل لنفسه بأن قضى ما عليه وهدى جنسه وهو منهم . بل يحمد ربه بتمكينه من الخروج عن حقه الواجب عليه بعد المنة السابقة في إسدائه لنعمة العلم إليه .

ثم ينتقل إلى منزل الرجاء، رجاء نبات الحجج في قلوبهم ليهتدوا، فالداعي غافل بحكم الهيبة والحيرة عن الجزاء، وما لسعيه عاقبة غير الاهتداء، على مثال الزارع يزرع الأرض خوفاً، ثم لا يطلب من الأرض أجراً، فقد عمل لنفسه لعاقبة نجاته عن الهلك، بل التزم بها شكراً، بأن كانت مرتجاة للحال، ومُنْجَاه للمآل .

ثم ينتقل إلى الرجاء، رجاء أن ينبت البذر فلا يضيع سعيه، فما له عاقبة غير طلب القوت بالنبات من الزرع خيبة عنه على ما جرت به العادات، ولا آمن فربما أخلفت بأفة من الآفات، وما له مزيد على الإنبات، بل ذلك بقوى الطباع ما له عليها سبيل، ولا له قبلها حق فيطالبها به، فقد عمل لنفسه إن زرع، وهذا المحل هو محل الرجاء .

وكذلك الداعي، حال جنبه عن اهتداء القلوب بالحجج على ما جرت به العادات، ولا آمن فربما أخلفت بالغفلة، وما له على الهداية قوة، بل تبديل القلوب بيد الله عز وجل، ما لعبد على الله من سبيل، ولا له قبله حق فيطالبه به، فقد عمل لنفسه إن دعا، بل أقام راجياً مفوضاً إلى الله تعالى، حافظاً إياهم عمّن يلبس أمر دينهم، حفظ الزارع الأرض المزروعة عما يفسد الحالة للتهيئة للنبات في العادة.

فصار المنزل الأول من حيث سبب العمل: منزل الخوف، ومن حيث العمل: منزل الدعوة. والمنزل الثاني من حيث سبب العمل: منزل الرجاء، ومن حيث العمل: منزل المحافظة.

فإذا ثبتت الحجج، ولاح الاهتداء، انتقل إلى الوعظ والتذكير، يربي الهدى النابت في قلوبهم بذاك إلى جهاد في دفع المفسدين عنهم، فقلما يصبر عنهم المخالفون وقد تركوا طريقهم، وظهر ذلك منهم، وخافوا على أنفسهم لو تركوهم وهم عرضة للتناول في الحال لضعفهم، على مثال الزارع إذا نبت الزرع اشتغل بالتربية والسقي إلى جهاد في حفظ البهائم عنه، فقلما تصير البهائم عن النبات المرغوب في أكله خوفاً على أنفسها أن تهلك إن لم تتناول، وهو عرضة للتناول.

حتى إذا ثبتوا في هداهم، ورسخوا في العلم، تغلبوا على الأعداء ممتنعين بأنفسهم، وقد قصدوا فيهم خوفاً من ضررهم ومقابلتهم، فقد ظهرت صلابتهم في دينهم، ودعوا داعيهم إلى ضبط أمورهم، والاستيلاء عليهم، وانقادوا له مبايعين على كل منهم، فيصير خليفة الله على عباده في أرضه، كالزراع إذا أدرك ويبس قلت رغبة البهائم فيه لصلابته، ودعا الزارع إلى إحرازه، مبايعاً له بإيفاء العاقبة.

فصار المنزل الثالث من حيث سبب العمل منزل العداوة، ومن حيث العمل: منزل الجهاد. والمنزل الرابع من حيث سبب العمل: منزل ظهور المنفعة، ومن حيث العمل: منزل الخلافة.

والنفس في هذه المنازل معه مطلق جالس في كمين يحجبها، يقول العبد في منزل الدعوة: إنك واحد، والناس على خلافتك، وما الواحد بقادر على الكل إلا بحيلة، فدع القوة والصلابة وقاربهم فقد رخص الله تعالى لك ذلك حتى يأنسوا بك ويسمعوا إليك.

فلا يزال يقرأ رخص الله تعالى على قلبه في مقارنة الناس حتى يميل القلب إلى الناس عن الرب على إيماء أنه يصيدهم لله، حتى إذا خذل بالميل عن الله وفارقه التوفيق صادته الدعوة بعاقبة طلب الرئاسة لنفسه لا للهداية إلى الله،

والحالتان مشتبهتان، ما يمكن التمييز بينهما إلا بإعلام، ولا تقف عليهما إلا القلوب الحية بالعلوم المبصرة بالعقول.

وعندهما ضلال العلماء، ولديهما سقطرة الفقهاء، فإن طرق العمل على مثال طرق العلم، منها محكمات، ومنها متشابهات، وفي المتشابهات يهلك الغالي الجاهل، وينجو الوسط.

فيقولان :

فعليك البيان والبرهان، فما الدعوة بمقبولة إلا بسلطان.

فيقول : الدعوى إلى الله تعالى للهداية، لأنه عبد أمر أصل محكم لا يجوز تبديله، والدعوة إلى الله ليكون رأساً أصل مرخص فيه، فالله تعالى وعد الخلافة للمؤمنين، والإمارة فوق الخلافة من حيث الاسم، والخلافة فوق الرئاسة، وقد أتى آل إبراهيم ملكاً عظيماً، والملك فوق الإمارة، غير أنه رخصة وحد للمحارم، ففيه طلب الحظ لنفسه، والأصل أن العبد لا حظ له إلا ما آتاه الله عزت قدرته.

وأعلام الداعي إلى الله للهداية :

أن يعاشرهم باللين، ما دام اللين في ترك حقه، فإذا أدى إلى ترك حق الله بلا تأويل أغلظ، وهجرهم هجراً جميلاً إذا عادوه وردوا عليه ما داموا متأولين، فإذا أدى إلى التعنت تصلب. فهذه أعلام أربعة.

والعشرة باللين في أربعة: البشر عند اللقاء، وتقريب العقول بعد البشر، والإيثار بالمال بعد التقريب، والعون بالنفس بعد المال، ليأنس بشره في اللقاء فيجلس إليه، ويسكن بمقاربة القول قلبه فيستمع له، وتألف النفس بالمال فتقيم لدين، ويأمن بالعون فيبقى معه. فيتمكن عند ذلك من هدايته إلى الله تعالى.

والغلظة لله في أربعة: العبوسة مكان البشر، والتباعد مكان التقريب، والعدل مكان الإيثار، والخذلان مكان الإعانة. ليستوحش قلب اللاقي منه بعبوسة فيقوم عنه، ويستوقر جسمه بمباعدة القول فيفارقه، وتستوحش نفسه من عدله فيهجره ويبغضه في خذلانه ولا يحوم حوله، فيبرأ من المداينة في دين الله تعالى، غير أنه ما تجوز الغلظة ما دام يجد تأويلاً لما يبدو منهم، ومحماً على الحق، لأن الأصل كون العباد على الفطرة، وكون العقلاء في أعمالهم بالحجة، وما يستقيم ترك هذا الأصل إلا بدليل قاطع، وبذلك نطق الكتاب: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨].

والهجر إذا عادوه في أربعة: أن يهجرهم بظاهره على كف، ويرحمهم بباطنه

إلى لطف، وأن يقطع الطمع عمّا في أيديهم متحملاً، وأن يلازمهم بالحجج متكلماً، فيستحي المعادي في إعراضه على الكف مع القدرة فيترك أذاه، ثم يميل إليه قلباً بشهادة لطف نظره بما في قلبه، فالإقتصار شهود الأسرار، فلا يبعد عنه، ثم يأمن جانبه بانقطاع طمعه فيه فيقر عنده، ثم لا بد من إسماع الحصار إذا قر، ولم يبعد، ومال إليه قلباً. والداعي متكلم بالحجة، فإذا سمع غدا استغناؤه عمّا في أيدي الناس، فما العاقل بعامل عملاً لا عاقبة له، فإذا لم يجد لعمله عاقبة في الدنيا لم يبق إلا المولى، وقضي بعد التعديل قلب المائل إليه بصدقه، وألزمه الطاعة بعد انقضاء حياته الذي اعتاده في كفه عن مجازاة على اقتدار.

والتصلب في أربعة: قصدهم بلسانه لينفي به الهوادة في طاعة الله تعالى، ثم بنفسه ليثبت الجلالة في أمر الله تعالى، ثم بأعوانه ليكسر شوكتهم لجند الله، ثم بالسياسة لتقوم النصره بتوفيق الله تعالى.

وأصول ذلك في كتاب الله في العشرة باللين: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَهْءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٣]. وقال في الغلظة: ﴿وَأَعْلَظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]. وقال: ﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]. ﴿لَقَدْ كِدْتُمْ تَرَكَنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]. ﴿وَدُّوا لَوْ نَدَّهْنُ فَيَذَرُوهُنَّ﴾ [القلم: ٩]. وقال في الهجر الجميل: ﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]. ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]. ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]. ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال في التصلب: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۖ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ [التوبة: ١]. ﴿خُذُوا جذركُمْ فأنفروا ثَبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا﴾ [النساء: ٤]. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَفِفْتُمُوهُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]. ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢]. وأمثالها من الآيات.

وهذه الآيات كلها نزلت بعد ظهور التعنت من الكفرة، وما انتقم الله من أعدائه في الدنيا بعذاب على خلاف العادة إلا بعد رسول وإلزامه حجة، فقال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص: ٥٩].

وكذلك ما أمر الرسول ﷺ بالقتال إلا بعد ظهور التعنت منهم وقتالهم معه فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]. وهي أول آية نزلت في

القتال . وعلى هذا إجماع الأمة في كفار لم تبلغهم الدعوة : إنهم لا يقاتلون إلا بعد دعوة وحجة وجواب عن حجّتهم إن اشتغلوا بالمحاجة ، وإنما اختلفوا في الضمان إن قتلوا قبل الدعوة ، كما في ضمان مسلم قتل قبل الهجرة .

وكذلك النبي ﷺ ما قاتل المنافقين - وإن ثبت كفرهم بالآية - لأنهم كانوا متأولين للعصمة بما أظهروا من المسالمة ، وإن ثبت تعنتهم في الباطن ، وعلى هذا جعل الله تعالى عقد الذمة خلفاً عن الإسلام في العصمة ، فكيف في قوم متأولين مسلمين ؟

والمسالمة معاملة قائمة حسب قيامها من أهل الذمة ، ووراءها اتفاق على أصل الدين ، وتأويل بالقرآن المبين ، ولهذا عثمان رضي الله عنه لم يستجز قتال البغاة والخوارج ابتداء ، ولا قتلهم علي رضي الله عنه حداً ، لكونهم متأولين ، وإنما قاتلهم دفعاً عن نفسه حين قصده ممتنعين ، ولا ضلال في الإسلام أكثر من ضلال الخوارج ، فقد كفروا أمام الحق وقاتلوه بالصدق ، وفرّقوا بين الأمة ، وقتلوا كثيراً من العدول .

وقد شرّع الله تعالى القتل بدون ذلك ، من زنا بعد إحصان ، أو من قتل مسلماً بغير حق ، أو قطع طريقاً بالقتل لعدم التأويل ، وذلك لمعقول ضروري ، وهو أن المتأول طالب للحق بالحجة التي جعلت حجة في الباب ، ولكنه ضلّ بتقصيره أو غلوه ، والغلو لشدة العناية بالدين ، والتقصير بعذر شبهة في اليقين ، فلم يجر أن يسوي بينه وبين المتعنت في ضلاله عن الطريق ، وأحدهما تارك للحجة ، والآخر مستعمل ، بل واجب أن يرحم الضال المتأول ، ويدعى إلى الطريق ببيان الخطأ عليه ليتهدي ، ويتصلب له لينزجر خوفاً ، فقد أيس عن اهتدائه بالحجة بعد ظهور تعنته .

وعلى هذا مثال الزائع عن طريق منزله على تأويل أنه الطريق ، فإنه يستحق على العالم الثابت على الطريق الدعوة إليه ، ولا يستوجب الشفقة والعقوبة عليه . وأما الزائع تعنتاً عبثاً أو قصداً في فساد فيستوجب ما يزره عنه .

وقد أجمع المسلمون على أن شهادة أهل الأهواء المتأولين المتمسكين بالإسلام مقبولة ، والمناكحة معهم جائزة ، فكيف تجوز معاداتهم على سبيل المنابذة ، والله تعالى أثبت لهم الولاية علينا بالشهادة ، ولهم الوصلة بالمناكحة ، بل يجب موالاتهم بأصل الدين ، وتضليلهم فيما زاغوا عن الحق بيقين .

ثم عمل هذا الداعي للعبادات أربع في هذه الحالة - وهو الغرض المطلوب من هذا المقال - يقع ليقندي به الناس ، فيهدتوا بطريقه ، وقد ذكرنا أنه غافل عن

نفسه ليقصد خلافه، أو إقامة سوقه فيه. فيتصدق ترغيباً للناس في الإحسان، وقلة المبالاة بالمال. ويصوم ترغيباً للناس في الإعراض عن الشهوات، وقلة المبالاة بالجسم، ويحج ترغيباً للناس في الهجرة إلى الله تعالى، وقلة المبالاة بالمال والأهل والوطن، ويصلي ترغيباً للناس في عبادة المولى، وتحريماً لكل الدنيا.

فلا غرض لهذا الداعي - على ما ذكرنا - غير دعوة الوري إلى الهدى، وما يرى لهم حاجباً غير المال والوطن والشهوة والجاه والأهل والسكن، يكاد يخفي خشوعاً في حاله بذاته، والله تعالى يشهره للناس شهرة الشمس بصفاته، ذكره رفيع، وقوله مسموع، وفعله متبع، قد أعلى للناس إقباله على الله طاعة مصداقاً لقوله، وأخفى على الناس حاله مع الله تعالى خشوعاً لله تعالى وحياء من التقصير في فعله، قد أخرسته الفكرة في خلوته عن الثناء، وشغله الثناء عن الدعاء، وحجبته عظمة الله تعالى عن الانبساط برفع الصوت والبصر واليد، بل علمه بالأماكن له، حرم عليه ما يشير إلى المكان إلا حيث أمر، عملاً بالأمر تصديقاً، أو حيث أذن أخذ بالرخصة تيسيراً، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢]. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]. ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]. ﴿وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢].

أفترى الجهر لله بالقول سبباً للقبول؟ وكان سبباً لإحباط الأعمال مع الرسول ﷺ، إلا من حيث شرع الذكر علماً، كالأذان، وتكبيرات الإمام في الصلوات والتلبية، والتكبير في الغزوات والأيام المعدودات، فسبيل العمل أن يكون ظاهراً، وذلك في الجهر، يخاف في كل أعماله أن يبتدع، فيلزم نفسه اتباع ما في الكتاب والسنن، فإن تصور وراء ذلك حُسن فلا يقرب إلى الله تعالى بواسطة مخلوق مخافة الشرك، إلا حيث أمر، إقامة للطاعة، وتعظيماً للأمر، فهذه أمارات الداعي للهداية في معاملته مع الناس، وطاعته لرب الناس.

وأما علامات الداعي إلى الله للرياسة:

فإن يعاشرهم باللين ما دام يترخص ترك حقوق الله، على تأويل أن الترخص مباح، ليؤلف قلوبهم، فإذا أدى إلى ترك حقه غلظ، وإن وجد للترك محملاً على الحق على تأويل أن فيه إهانة العالم، وفي إعزاز العالم نصرة الدين، وأن يهجرهم هجراً جميلاً ما داموا خاملين لا يعرفون، على تأويل أنه لا ضرر منهم في الدين أنهم سيفسدون الناس. ولعلمهم إذا لم يرد عليهم سمعوا الحق وعرفوه، فإذا أظهروا تصلب على تأويل أنهم سيفسدون الناس بحججهم، وفي التصلب عليهم محافظة على الملة المستقيمة.

وعشرته باللين في أربع: البشر عند اللقاء ليجلسوا إليه، وتقريب القول بعد البشر ليأمنوا إليه، ثم أخذ الهدية منهم، والإجابة لدعوتهم، اتباعاً لرسول الله ﷺ، ثم الاستعانة بهم لينتصر بهم لدين الله امتثالاً لكتاب الله.

والغلظة في أربع: العبوسة مكان البشر، ليستوحش قلب اللاقي، فيقوم عنه، والتباعد مكان التقريب ليستوحش في جسمه فيفارقه، والظلم مكان الإنصاف لتستوحش نفسه بظلمه، فيتوارى عنه، والقهر مكان الخذلان ليخافه فيفر منه، ليكون قبوله للحق بلا تعارض أنفذ.

والهجر الجميل في أربع: أن يهجرهم بظاهره على عيبه، ويعادبهم بقلبه، إلى لين بجسمه، ليكون الهجر الظاهر بجسمه مع الوقية فيهم بلسانه عذراً إلى الله تعالى في التبري عنهم، واللين الظاهر بجسمه سبباً مانع من نفرتهم عنه، فلعله يصيدهم إذا سكنوا إليه، ثم يتواضع لهم يخفي الحجاج عنهم، ليكون التواضع سبباً يؤلفهم، ليصيروا له، فيتمكن بعده من الهداية، وإخفاء الحجة للحال، إلى أن يصيروا له خلة مبلغة إلى الغرض.

والتصلب في أربعة: قصدهم بلسانه مخاذلاً، قطعاً للمناظرة، وبنفسه محارباً قطعاً للمعارضة، على تأويل خذلان أهل الفساد، ثم الطعن فيهم تنفير للناس عنهم، ثم الاستهزاء بهم إذهاباً للحشمة، وإسقاطاً للقيمة، حتى يصيروا كالشيء التافه الساقط على الطريق لا يعبأ به أحد، لا يسمع منهم خبراً، ولا يرفع إليهم بصره، وذلك لأنه عمل بإلهام نفسه، وغرض النفس صيد جنسها، ليكونوا له لا لربه، وإنما ألهمه طريق الحق ليغره به، ثم يجره إلى باطل عقله، فقد عجز عن غرور المحق بالباطل جهده.

وإنه على مثال الصياد يغر الطير بالحب، ويصيده بالفخ، ومثال الغاش من الصيافة يبدي الفضة، ويخفي الرصاص، ثم يروجه على الجاهل من الناس. وما طريق غش الناس للعالم إلا طرق الدين المقرونة بالرخص، فإنها حمى المحارم، وخذ المآثم، ثم من لم يقف قبل الحد خيف عليه التعدي عنه، وبذلك جاء البيان من صاحب الشرع ﷺ: «الحلال بين، والحرام بين، وبينهما أمور متشابها»^(١). «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك»^(٢). وقال ﷺ: «إن لكل ملك حمى، وإن حمى الله محارمه، فمن رعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»^(٣). ومثال ذلك فيما قلناه. فقد

(١) رواه البخاري في كتاب (الإيمان) باب (فضل من استبرأ لدينه).

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري بنحوه في كتاب (الإيمان) باب (فضل من استبرأ لدينه).

حملته النفس على دعوة الناس إلى الله لغرض الرئاسة، والرئاسة مترخص فيها، فكانت حد المحارم، ففيها طلب الحظ لنفسه، وهو أن يكون رأسهم، والأصل ألا حظ للعبد، بل الكل لله إلا ما جعل للعبد، فكان حظه أنه رخصة واحدة.

ثم دعاه في معاملاته إلى العشرة باللين، ما دام مرخصاً بترك حقوق الله، وإنه لحد، والأصل أن حقوق الله تعالى لازمة، لا يجوز تركها إلا برخصة لنا. والغلظة إذا أدى إلى ترك حقه، وإنه لحد ورخصة، والأصل في حقوقه أنها مستباحة بإباحة إلا من حيث حجر الشرع، وكان الطريق الواضح في اللين ما دام الترك لحقوقه، والغلظة إذا أدى إلى ترك حقوق الله تعالى.

ثم دعت به إلى الهجر الجميل حال الخمول، والتصلب عند الظهور، وهذا حد ورخصة. فالأصل في الهجر الجميل ما داموا متأولين على ما قدمناه، والتصلب إذا صاروا متعنتين، ليكون السعي لله، إذ ظهورهم وعدم الضرر لخمولهم مما يعود إلى الناس، والأصل ألا حق للناس، ولا عداوة ولا مسالمة لأجلهم إلا بقدر ما جعل الله تعالى لهم ذلك.

ثم أمرته بالبشر في العشرة باللين، والتقريب كما أمره الله تعالى في الباب الأول، ثم جعلها سبباً لما هو رخصة: أخذه الهدية منهم، والاستعانة بهم، ففيها الاستئثار، والأصل المحكم هو: الاستئثار رخصة في بعض المواضع.

ثم أمرته بالغلظة والعبوسة والتباعد كما أمره الله تعالى، ثم جعلها سبباً لما هو رخصة: الظلم والقهر، فقد رخص الله تعالى فيهما في حق الكافرين مجازاة وزجراً. والأصل هو العدل والإحسان، فالعدل أصل محكم مرضي، فانه إسم للسيرة المرضية. والإحسان غير واجب في الأصل، ليكون الخذلان رخصة.

فأمّا جملة الظلم والقهر فحرامان ابتداء، ما يحلان إلا على سبيل المجازاة.

ثم أمرته بالهجر الجميل إلى هجر بجسمه ظاهراً، وغيبة بلسانه مترخصاً ليزجر الناس عنه - وهذا حد - فالغيبة حرام في الأصل، وهو الذكر بالقبيح صدقاً إلا بأمر على حد مخصوص، وهو أن يكون صاحبه أعلنه على نفسه غير مبال به. والأصل المحكم في الهجر الجميل بجسمه ظاهراً إلى كف، فذلك العدل.

ثم أمرته بعداوة قلبه إلى لين بجسمه - فهذا حد. فالعداوة للجنس حرام في الأصل، ما يحل إلا بموافقة الأمر على حد مخصوص، وهو أن لا يكون للعبد في ذلك حظ. وكان الأصل المحكم أن يرحمهم بقلبه، مع عناية بظاهره - فرحمة الجنس أصل - لا يجوز تركه إلا بأمر الله تعالى، وما داموا متأولين فلا أمر.

ثم أمرته بالتواضع طمعاً فيهم، والطمع في الناس حرام في الأصل نفسه بإخفاء الحجج خوفاً عن نفرتهم، وأنه رخصة وحد. وإخفاء حجج الله حرام، إلا بأمر الله، والأصل المحكم في الإبداء.

ثم أمرته بالصلافة بأربع: القصد لساناً، كما أمره الله تعالى ليس لسد باب المحاجة، وإنه حرام. فالله تعالى ما بعث الكتب والرسول إلا مُحاجاً بهم وبها، فلا يحل سده إلا بأمر، كسائر فروض الله تعالى، وذلك عند ظهور التعنت. وكان الأصل المحكم في القصد لساناً لنفي الهوادة عن نفسه، حتى لا يطمع في مدهنته. فالمدهنة في الدين حرام أصلاً، ما يحل إلا لضرورة دفعاً.

ثم أمرته بالقصد بنفسه كما أمر الله تعالى لسد باب المعارضة. فلا يظهر عجزه، وإنه حرام في الأصل. فالله تعالى ما فتح أبواب المحنة ومعارضات الناس على أحد من خلقه، مثل ما فتح على الأنبياء صلوات الله عليهم، وقد نطق به الكتاب، فكان سد أبواب المعارضة حراماً إلا لضرورة عند خوف التلف - وكان الأصل المحكم في القصد بنفسه، إظهاراً للجلادة للمعارضين. فالتجلد لله بإزاء المعارضين أصل، ما يجوز تركه إلا بإذن رخصة.

ثم أمرته بالطعن فيهم ليزجر الناس عنهم، وإنه لحد. فالاقتصار على زجر الناس عن أعداء الله متعتين حد، والأصل المحكم في الإهلاك - على ما بينا - في أصل الشريعة، وإنما يجوز الكف عنه رخصة.

فإذا ثبت العبد على هذا الطريق، وزين له طلب الرخصة، أعمى عن سواء الصراط، واعتقد أن لا طريق غيره فسلك، والقدم تتعدى إلى المحارم والعين تقع على المآثم وهو يجتهد تحفظاً، حتى إذا أطال السفر، وضاق الأمر، وما جعل عليكم في الدين من حرج، فوسع الطريق على نفسه مترخفاً بالآية.

فسلك بعد ذلك متعدياً إلى الحمى، وهو ينكره ناسياً أو متناسياً، ويقول: سيغفر لي بتأويلي واجتهادي، فيضيع الحدود فعلاً، ويحسن الثناء والاستغفار قولاً، فيلحقه الخذلان، ومقت الله الموعود للذين يقولون ما لا يفعلون عند ذلك، فيتعدى قصداً بغير تأويل، ثم يندم.

ثم يعود ويقول: إن الله تواب رحيم، حتى يزين على قلبه ما ارتضاه لنفسه عليه، فيزين له سوء عمله فيراه حسناً. ثم يرد بعده على أمر الحق، ويعده هيناً إلى أن يحمله على الإنكار تعنتاً مخافة ذهاب الرئاسة، فيفسق ويكفر برابع منازل، على مثال أخبار اليهود والنصارى في زمن رسول الله ﷺ.

وعلامه هذا الداعي من حيث العقل أن يكون مسجد محلته على مثال قصر

خاصته، ومنبر التذكير على مثال عرش مملكته، وأصحابه المتعلمون منه على مثال جنده وحاشيته، وأهل بلده على مثال رعيته، والعلم قصص يستعذبها السامعون وأحلام يشعر بها المتأملون، وتأويلات الكتاب تتفرع لديها القلوب وتقشعر منها النفوس، وربما أدى إلى صيحات منكرة وحركات سمجة، وعنده أن الحركة من اليقظة والصيحة من الهيبة، وربما أدى إلى البكاء ودمع العيون لحزن يخامرهم سماعاً بكاء المتسليين على الميت بحسن نياحة النايح.

فأمّا الفتوى فحيل، والحكم مراد، والحجة شتم وصفع ووقيعه، والتضرع في الدعاء بجهر الصوت، وتخشع برفع اليد، والتنسك بشخوص العين، والتقرب إلى الله تعالى بالجموع مكان الخلوة والخشوع، والهجرة بالسياحة إلى الأمكنة مكان القلب إلى رب الأمكنة، والسياسة لجهاد الكفرة، يقول: ما لنا سلاح، والسلاح إنما نحن أهل الصلاح، ثم يكون بعد ذلك رباً لا ربانياً، وأمرأ لا مبلغاً. فتعوذ بالله أيها الأخ دائماً من شر النفس، ومخالطة الجنس.

والعبادات الأربع لهذا الداعي تقع على نية الإحسان بطاعة الله، لغرض أن يحبه الله، فالله تعالى يحب المحسنين، وإنه لرخصة، فالإحسان فعل المالك، والأصل أن لا ملك للعبد إلا ما ملك، ثم يقع بعد ما وسع الأمر على نفسه، وتعدى الحد في المرأة. فبقدر ما تعدى الحد تعدى قصده عن الله إلى الناس في إقامة العبادات، فينال الويل مكان الفلاح، ويظلم عليه بظلم المعاصي الصباح، فيصير إلى الكفر الصريح، أو الفسق القبيح.

علامات الداعي إلى الله خوفاً وطمعاً:

فمتى وفي العبد هذه الفتنة في منزل الدعوة، وثبت داعياً إلى الله تعالى هادياً، انتقل إلى منزل المحافظة بسبب الرجاء، والنفس تدعوه إلى المنزل بسبب الطمع، يقول الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ [السجدة: ١٦]. والطمع مرخص فيه، والأصل المحكم هو الرجاء، فإن الرجاء ينبعث من كرم المرجو، عرفه الظاهر، فضله الباعث، كرمه المحتاج إلى الرجاء، فيرجوه مفوضاً إليه، فما عرف له سبباً من عند نفسه.

والطمع يبعث الطامع بحق عرفه لنفسه، فيبعثه على الطمع كأنه طامع بحق له، وإنه لرخصة. فالأصل أن لا حق لأحد على أحد، ولا على الله تعالى، وإن أئيب العبد جزاء الأعمال فذلك من الفضل والإفضال.

وأن الطامع متى لم يحصل له مراده - وقد اعتقده مستحقاً - سخط، ثم رجع

ثم أنكر، فكان رداً للعبودية بعد ترك العبادة. والراجي متى لم يحصل له مراده - وقد اعتقد أن لا حق له، صبر، فحرمان - ما ليس بحق له عدل، والعدل حق وإن كان مرأ، ثم رضي فالحق مرضي، ثم تنبه إذا رضي لسائر الحسنى إليه فشكر. وفيه تمام العبادة بعد تمام العبودية بما صبر.

ومتى وقى العبد هذه الخصلة في منزل المحافظة، انتقل إلى منزل الجهاد بسبب العداوة لأعداء الله، نُصرةً لحزب الله، والنفس تدعوه للمصالحة ترخصاً بقول الله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٠٥]. ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ [الشورى: ١٥] ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [المتحنة: ٤] الآية.

والأصل المحكم العداوة والمنازعة، وفي المسالمة ترحم، والكافر ملعون، عن الرحمة مطرود إلا رخصة على طريق الإمهال، لحكمة أن يتوب أو ينزجر، أو على طريق استدراج ليستحق العذاب الأكبر، وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، لكن قصده في الدعوة للرياسة حمله على المسالمة لتحقيق طمعه، ثم المواصله، ثم المداهنة، ثم النفاق برابع منازل، وإنه لشر كفر. وقصده في الدعوة للهداية يحمله على المعادة، فما له فيهم من حظ لنفسه، فيصلحهم بسببه، ثم على القطيعة، ثم على المنازعة، ثم على المقاتلة، وأنه لأتم إسلام لأمر الله، فلا عوض للزوج.

ومتى وقى العبد هذه الشبكة في منزل الجهاد، انتقل إلى منزل الخلافة بالتولية. والنفس تدعوه إلى الإمارة بالتولي وتقول: إنك أولى الناس بهذا الأمر، وقد تعينت لذلك، فإن تركته فسد أمر الدين، فاطلبه، فقد أمر الله تعالى بذلك بقوله: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤] ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣] ومن طلب وتولى برغبة نفسه وكل إليه، ومن وكل إليه عجز، فما بواحد قوة أن يسوس الكل إلا بعون مالك الكل، ومن عجز ضيع، وفيه انعزال في حق الدنيا قبل أن يصير إلى المولى، ومن ولي أعين نصر، ومن نصر استولى، وفيه الاستقامة لقناة الإمامة.

فإذا استولى العبد الموفق على هذه المنزلة، وجس نبضها برؤية من قلبه، ووجد حظه في القرب من ربه، فقد صار سره لمصالح غير الله مفروغاً، وإن كان بأمر من ربه، ما كانت له صفوة قبلهم عدمها معهم، ضاق بالناس صدراً، واشتاق ذلك القرب سراً، وما عاشرهم إلا بالأمر صبراً، على مثال الزارع إذا أدرك زرعه

وانتهى ريعه، وجد ما يحتاج إليه من الحب غائباً عنه بالتبن، بعدما كان له خالصاً، وإن قل الزرع فنظر فيه وجد ذلك البعد من عمل الأرض، فأقبل على التباعد بين الزرع والأرض بالحصاد، ثم على التفريق بين الحب والتبن بالدياسة، ثم على التمييز بينهما بالتذرية، حتى خلص الحب فصلح للإحراز.

فكذلك العبد الداعي، ينظر حاله فيجد حظه في قربه من ربه بسبب ميله إلى أولئك المهتدين، فيقدر الميل إلى من دون الله، فيحجب السر عن الله، فيقبل على حصاد ميل القلب إليهم بالفرار إلى الله تعالى عن الناس وعن الدنيا قلباً، على ما قال الله تعالى: ﴿فَفَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] وعلى ما قال النبي ﷺ: «لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً». والنفس تأمره بالفرار عنهم جسماً، مترخصاً بقول الله تعالى: ﴿وَأَعِزِّلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٨]. وإنه لرخصة.

فالفرار عن الناس بالجسم، تحرك لهم على الضلالة، وتقرير على صراط الجهالة، وإنه لحرام إلا رخصة عند اليأس، أو ضرورة لدى شدة البأس. والأصل المحكم هو الفرار إلى الله تعالى بقلبه، ومعاشرة الناس بجسمه ليهتدي الناس به ظاهراً، ويخلص لربه بنصيب ربه باطناً، ومن فر جسماً بغير أمر من الله تعالى ضيق عليه، وقد فر يطلب سعة ندم، ومن ندم وهو محبوس لم تنفعه الندامة، وما بعد ذلك إلا القنوط، إلا من تداركه الله تعالى برحمته - والعياذ بالله - ومن فر إلى الله تعالى بقلبه، وصبر بجسمه، شرح الله صدره، ومن شرح صدره أنس قلبه شكراً وفاز، والله المسؤول.

ومتى وقى العبد هذه الحيلة في منزل القرار، اشتغل بعد السكون بالرياضة، يروض قلبه عن الفكرة في غير الله، والحب لغير الله، والرضا بغير الله، والخوف من غير الله ونحوها.

والنفس تأمره بالرياضة الجسم، سياحة وتخويفاً وتبتلاً وافتقاراً ونحوها، وإنها رخصته. فما جائز في الأصل النفرة عن قومه إلا لجهد أو تفقه، ولا بجائر تعذيب الجسم بمنع ما أباح الله تعالى له، أو تحريم ما أحل الله تعالى. فقد صام الرسول ﷺ وأفطر، وقام الليل ونام، وتزوج وأكل الطيب، ولبس الجديد، وكان أتقى العالمين، وعلى آله أجمعين.

فكان الأصل المحكم طريقه، ثم طريق الخلفاء الراشدين، وطريق ورثته من الفقهاء المتقين من السلف الصالحين، وما للعبد أن يتعداه إلا مترخصاً بعذر، فإذا تعدى بغير عذر أعجب بحاله، وإذا أعجب ولي ما تولى، وصلي

النار وساءت مصيراً. وإذا راض قلبه وتنعم بما أحلّ الله مقتدياً برسول الله ﷺ، أعجبتة عناية ربه ورحمته، ففوض الأمر إليه، فتولى الله أموره، فدخل الجنة وطابت مصيراً.

ومتى وقى العبد هذا الشر في منزل الرياضة، بعد العصمة ومعاينة أسباب الرحمة، صار إلى منزل الإغارة على ما أوجب شوباً في الصفوة بميله - وإن قلت - إلى من دون الله، أو خطرة في مال أو وطن أو أهل أو ولد، أغاره القدير على عدو أسير، لكن بالقلب رغبة، ليصفو القلب لله، فهو نصيب الله، فيكون معهم بجسمه، ومع الله بقلبه، والمال معه بدأ ولغيره عقداً.

والنفس تأمره بالإغارة الظاهرة، تفريقاً وتبذيراً، وإنه لرخصة، فلاهلك عليك حق، وكذلك لولدك وللناس، فإنهم عبيد الله، وقد نهيت عن تضييع المال، فلا يجوز الإعراض عن المال وعن الناس إلا بعذر، أو بحق أمر، وإنما طلب الله تعالى منك قلبك.

وكذلك الأنبياء عليهم السلام، عاشروا واستولدوا، وتملكوا وأكلوا وأمسكوا. فذلك الطريق هو الأصل المحكم.

فإذا فعل ذلك برأي نفسه تفرد، وإذا تفرد وسوس إليه، وإذا وسوس إليه غفل عن ربه، وإذا غفل أحاط به الخذلان، واستحوذ عليه الشيطان.

وإذا فعل بأمر الله أحبه الناس، ومن أحب الله بقلبه، ألقى الله محبة عليه منه، فيحبه الناس بذلك، وإذا أحبوه واتبعوه في الله أعانه الله بالإلهام، وإذا ألهم غفل عن الكل قلباً - كالأنبياء عليهم السلام وقت نزول الوحي عليهم - فصفى للرحمن وآيس منه الشيطان.

ومتى وقى العبد هذه الوسوسة، انتقل إلى منزل الأسر، أسر القلب لله بقيود، صياغتها الإحسان وحلقاتها المحبة، يخاف الإطلاق عنها، ويتمنى الوثاق بها. والنفس تأمره بأسر الجسم عن النظر إلى الدنيا والتمتع بها، وإنه لرخصة، فما خلق الله الدارين إلا لنا، وإنما تعبدنا بترك الحرام إلى الحلال، فما بجائز تحريم الحلال تمتعاً، إلا مترخساً بجعل التحريم سبباً للفراغ لله تعالى، فإذا أسر الجسم بأمر النفس حباً عما خلق له اشتقاق، ثم قلق فيه، فحل القيد وانسلخ منه، فاتبعه الشيطان، فكان من الغاوين. وإذا أسر القلب لله، وأطلق الجسم لما أبيح له شيع، ثم مل، ثم أعرض، ثم عاد إلى القلب بحكم التبعية الأصلية، فولاهما إلى الله تعالى فكانا من المقربين.

وأما العبادات الأربع في هذه المنازل:

فتقع على حسب الغرض في كل منزل.

أما منزل المحافظة بسبب الرجاء، والرجاء اتصل بقلبه عن كرم ربه، فيتصدق ترجية للقلب زوال المال، بحكم أنه حمل زائد. ثم يصوم ترجية للقلب زوال محبة النفس لمخالفته إياها، بمنعها شهواتها بحكم أنها عدوه. ثم يحج ترجية للقلب زوال محبة الأهل والوطن بالهجرة، والفرار عنها بحكم أنها فتنة. ثم يصلي ترجية للقلب وصولاً إلى الله تعالى بإقبال عليه، بحكم أنه الأمد الأقصى، فما يناله العبد في الدنيا من المراتب العليا.

ثم يتصدق في منزل الجهاد تجرداً للأعداء عن محافظة المال، ثم يصوم تجرداً للأعداء عن اقتضاء الشهوات، ثم يحج تجرداً للأعداء عن الأهل والوطن، ثم يصلي تجرداً ب كله للمولى.

ويتصدق في منزل الخلافة إقامة لكفاية الولاية من عبید الله وخلقه، ثم يصوم اكتفاء بالبلغة في حقه، ثم يحج اكتفاء ببيت الله عن وطنه، ثم يصلي أكتفاء بالمولى عن الورى والدنيا.

ثم يتصدق في منزل الفرار فراراً عن الجبائل، ثم يصوم فراراً عن الدواعي، ثم يحج فراراً عن الموانع، ثم يصلي اعتصاماً بالمولى.

ثم يتصدق في منزل الرياضة استجلاء بحال النجاة، ثم يصوم تحصيناً للنجاة، ثم يحج شوقاً إلى موضع النجاة، ثم يصلي طرباً في ثمرة النجاة مثناً على ربه.

ثم يتصدق في منزل الإغارة متشفياً، ثم يصوم منتقماً، ثم يحج متبرزاً، ثم يصلي مرحباً بلقاء الملك فيقر لديه.

ثم يتصدق في منزل الأسر قاضياً به شهوته من مكارم الأخلاق، ثم يصوم قاضياً شهوته من حسن الأدب، ثم يحج قاضياً شهوته من ثبت العزيمة، ثم يصلي قاضياً شهوته من قرب المنزل بالنجوى بعد اللقيا.

فهذا في أول منازل رغب في طاعة المولى بسبب الخوف، فأمال بالرجاء جسمه إليه، ثم تجرد له فاكتفى به في رابع مراتبه، ثم شعر بفساد شأنه من جهة الناس والدنيا، فاعتصم بالله تعالى بعد الفرار عن الكل بصلواته، فأثنى عليه، ثم قر لديه، فقضى الروح عندها شهوته وبلغ همته، وهي رابع مراتبه.

ثم تأمل في حاله، وقد صفت حاله عن الناس والدنيا لله تعالى، فشرع بنفسه

الأمارة بالسوء، المعادية على الحقيقة، وهي ظاهرة لبصر القلب، محيطة بالجسم. وشعر بنصيب الله منه، وهو باطن لا يرضى به الرب، إلا بعد التمييز بينهما. وكان علمه بالنفس من قبل أن علم سماعاً، وإن اعتقده تقليداً، فكان على غفلة منه على الحقيقة، مشتغلاً باستخلاص نصيب الله عن الناس والدنيا في تلك الطريقة.

والنفس متمكنة من حيلها، وإن سلبت كل قدرها، وقد ألهمته الإمارة في منزل الخلافة، فالاسمان متقاربان، وقد جاءت بهما الشريعة، وإذا قد بدر منه عمل الأمراء من حيث لم يشعر ممّا استصوبه برأيه، واستخلصه لحاله، فالأمير يفعل ما يريد، والخليفة يفعل ما يؤمر، وقد ألهمته العجب في منزل الأسر بحسن الظفر، وإذا قد خطر بباله حسن أعماله. فالأمير فاعل بقدرته وجناه العجب، والخليفة فاعل بقدرة موليه ونصرته، وجناه الشكر.

فيخاف العبد في منزل القرب من الله جلّ جلاله، والنفس محيطة به، ونصيب النفس محيط به، وقد علم أنه غير صالح للمولى إلا بعد الإخلاص عن نصيب النفس والهوى، كما أخلص عن نصيب الدنيا والورى. فيخاف حاله، ويقصد الفرار، فلا يجد عن الله مفراً، فيسكن ولا يجد مع النفس مقراً، فتعميه الحيرة عن الملكوت الظاهر لعينه، فيجلى برحمته الملكوت الباطن، حتى يرى عياناً بعد ما كان.

فيجد ذاته في المحشر معروضاً على الله الأكبر، وهو حاله، والنفس محيطة بقلبه، ونصيب النفس محيط بعمله، فيذوب حياءً من ربه بسبب نفسه، ويسكر خشية حتى يصير بضغطة السكر على مثال الطحين، فيتداركه الله تعالى بالسر عليه بإعمائه عمّا أبصر من عيبه، ونسيانه لما تذكر من خطبه، فيصحو وقد قرب سره من النار، حتى كاد اللهب يمسّه، وكاد القلب يحسه، وإذا نفسه التي لا ينجو معها عن النار ممتزجة به مجاورة، وإن طحنت بضغطة السكر، بعدما كانت محيطة به أول الأمر، فيهاب الله دون النار هيبة، من علم أن النار لا تعمل إلا بأمره.

فيتداركه الله بالتوفيق للتقوى عن النفس ونصيبيها، حتى يصفو بتقواه في حز الشهاب، كما يصفو العاصي بعد الحساب بحقيقة العذاب.

فإذا النار برد وسلام، ومعبر وأمان، فجازاها السر وبدت له الجنة بنورها وزخارفها وحوورها، فإذا الرغبة ستمكنه من قلبه، مكان الهيبة من ربه، عالماً أنه لا ينالها أحد إلا بإذنه، فيرجو الله عند ذلك من فضله، لا بعمله.

وإذا به بعد ذلك السكر الذي كان به من جهة النفس - وإن فارقت بالتقوى -

ما يصلح مع الخمار لجوار المولى ودار النعمة، فيقبل على العلاج بماء الإخلاص، حتى تبرأ عنه وتقوى، ويدخل السر دار السلام بتحية وإكرام، فيشتاق لقاء الله عند ذلك، ويحل دونه هنالك، وبعد غير صالح للقاء. فالغسل وإن تم بماء الإخلاص، فما نشفت بعد رطوبات الغسل وما معها، كما في الشاهد للقاء بأهله، فيقيم محبوساً عن اللقاء، ونار الشوق تنشف الرطوبات. على مثال الزارع: حتى أحرز الحب، ووقف على القشر الذي لا يصلح نصيباً له، محيطاً بما صلح له، أقبل عليه بالطحن، ثم بالنخل، ثم بالخبز، ثم لا يستعذبه بغير إدام، فأقبل على طبخ اللحم بالماء والملح، ثم التجلية بالآلات، ثم التطيب للمذاق، ثم التقديم على المائدة.

فكذلك العبد بعدما تاب، لم يصلح وهو عريان للقاء الجبار - كما لا يصلح الخبز لصاحبه وهو قفاز - فيقعده الخجل، ويرد عن طلب اللقاء، ويعود إلى منزل الصبر عن اللقاء لطلب الكسوة، فيكسو نفسه بالصبر لأحكامه بتأييد من الله تعالى وعون من قبله. ثم لا يصلح للقاء بغير حلية، فيحلي نفسه بالرضا بأقسامه بتوفيق من الله تعالى، ثم لا يصلح للقاء بغير طيب، فيطيب نفسه بروائح الشكر لله تعالى على كل حال، بإكرام من الله ورحمة من لدنه.

فصل

في الرؤية

ثم جاء وقت لقاء السر ربه، ومنزلة إكرام الله عبده بالتجلي لسره، حتى يراه سره أينما التفت، كما كان يعرف من قبل إلهه أينما كان، وكما كان يقع التجلي بين صاحب الطعام والمائدة المقدمة إليه.

فهذه نهاية منازل العارفين:

وعباداتهم في هذه المنازل تقع على حسب أحواله:

فيتصدق في منزل السكر استهانة بالدنيا، استهانة السكران بماله. ثم يصوم عربدة عن نفسه، عربدة السكران على خلاف جنسه، أو متى يخل بأنسه. ثم يحج طرباً في الوفادة، طرب المطلق عن الحبس للولاية. ثم يصلي متعزراً - فجلس لدى الملك الكبير - تعزز الملك فينا بالسرير.

ثم يتصدق في منزل الصحو معتذراً، ثم يصوم مستغفراً، ويحج هارباً، ويصلي دائماً.

ثم يتصدق في منزل الشوق مسروراً ببيان آثار الخلوص، ثم يصوم قديراً ببيان آثار الظفر، ثم يحج مجيئاً، لبيك اللهم لبيك بحق الدعاء إلى دار الملك، ثم يصلي معلناً وشاكراً بالتحميد والتكبير، بل جعل الدار والتقريب للقاء.

ثم يعود إلى منزل الصبر، وقد ظهر الفرق بين الرياضات والمحض من العبادات، فقد جاز السر النار، ورأى الجنة، واشتاق لقاء الرب عزّت قدرته، وهان عليه ما دونه، وعرف عياناً أن ما دون الله واسطة بين العبد وبين الله.

فالصدقة لا تكون إلا بفقر آخذ، ومال مسلم، فكانا واسطتين. والصوم لا يكون إلا بنفس يقصد قهرها بالصبر عن الشهوات، ووقت ينتظر مجيئه تعظيماً للوقت، فكان عبادة بواسطتين. والحج لا يكون إلا ببقعة يقصد تعظيماً بزيارتها، ووقت ينتظر مجيئه تعظيماً له، فكانت عبادة بواسطتين، والصلاة عبادة الله تعالى بلا واسطة، فكانت عبادة محضة، فلا تكون الصلاة صلاة إلا بإخلاص لله تعالى تعظيماً.

فقالا: أليس استقبال القبلة في الصلاة شرطاً، والكعبة واسطة؟

فقال: الشرط استقبال الله تعالى تحقيقاً لمعنى العبادة، لا في الدنيا إلا على سبيل المحنة، ولن يلحق العبد محنة بالإقبال على الله تعالى، فما لله جهة فيمتحن بطلبها، فأبدل بجهة الكعبة تحقيقاً لمعنى المحنة، لأن الكعبة عينها شرط، وقد حقق الله تعالى هذا المعنى بقوله للذين اشتبهت عليهم القبلة فأخطأوها: ﴿فَإَيْنَمَا تَوَلَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. ولم يقل: فثم بيت الله.

فقالا: للصلوات أوقات مخصوصة، كما للصوم والحج، والأوقات واسطة.

قال: وقت الصلاة في أصله ممدود، وإنما فضل للوجوب ترفيهاً على الإنسان، ومنع في بعضها عن الأداء ترغيباً للشيطان، فقد تكررت الصلوات بتكرار تفاصيل اليوم والليلة، ليعلم أنها غير مخصوصة بزمان، كما لم تخص بمكان، فأقل الحساب الذي يدور عليه العالم ظاهراً، الأيام والليالي، ثم فصولها من غداة وعشية، وقت التعشي من الليل إلى وقت النوم، فأما بعد النوم ففي حكم العدم من حق النائم، كما بعد الموت.

فعلمنا أن الصلاة هي العبادة، المحضة، فأداؤها بلا واسطة، وسائر العبادات رياضات، فما تأدت إلا بواسطة. وإنه على مثال الدابة بأمر صاحبها تحت صاحب، وتحت الرائض، فكلا السيرين بالأمر، وأحدهما للرياضة، فكان بواسطة والآخر للخدمة فكان بغير واسطة.

فيتصدق في هذا المنزل صابراً على رؤية الفقير، والمال في عبادته إسلاماً لأمره بحكم أنه عبد، وما للعبد شيء، ويصوم ويحج كذلك. فإذا صلى وارتفعت الوسائط، قرت عيناه.

ثم يتصدق في منزل الشكر، ويصوم ويحج شاكراً لله بحق الخالقية، فما خلقه من غير حاجة إلا إن جازاه، وما للعبد شيء إلا إحساناً إلى العبد، والمحسن مشكور، ثم يصلي والله تعالى تجلى لسره عياناً، كما كان علمه إيقاناً، حتى رآه السر أينما التفت إليها، كما كان علمه من قبل أينما انتقل الجسم إليها.

ثم يتصدق - بعد ذلك - والله تعالى متجلاً لسره بلا واسطة إليها في المال والفقير، ويصوم ويحج كذلك، ويصلي والله تعالى متجلاً لسره بلا واسطة، مثال من يرى الوجه بعينه بلا مرآة، ويراه بمرآة. فتزول عن العبد مرارة الصبر باستحلاء الرضا، ثم يمل في تلك الحلاوة فيزول استطابة الشكر، ثم يلهي عن طيبة الشكر بكرة العين حال التجلي، والنفس لا تصلح نصيباً للمولى، بعد عنه وإن غاب عن علمه، فيلقنه في آخر منازل الشكر، وهو منزل الشوق الآمن بالمحبة، فما ذنب الحبيب بمحسوب، وفي آخر منازل الصبر، وهو منزل اللقاء، يلقنه الفوز، فما بعد اللقاء مطلب وما فيهما الهلاك.

فالدار دار محنة، واعتقاد الأمن في دار المحنة اغترار. والدنيا سجن، واعتقاد الفوز في السجن حماقة، فلا يلتفت القلب إلى تلقينه بعصمة ربه جزاء على صدق دينه.

ثم يتحقق ذلك الفوز والأمن عند موته ويقينه بملائكة الرحمة، ألا تخف ولا تحزن، وأبشر بالجنة التي كنت توعده، فنشطت روحه نشاطاً إلى دار الجزاء، ويلقم اللحد جسمه لقماً للإصفاء، ثم يعصره عصراً للتمييز عن خبثه.

ثم يعاد حياً بالروح، وضيء المولى نوراً من أنواره، كما يصفو الطعام بعصر الجسم عن خبثه، فيعود نصيباً للجسم جزءاً من أجزائه.

فقال الأخ المسترشد الرفيق:

كيف غلبة الهوى بعد علم المرء بهذه الطرق من الهدى؟

قلت: إن الهوى للنفس طبيعي، بمنزلة ما تنبت الأرض بنفسها. والهدى كسبي، بمنزلة ما ينبت الإنس بفعلها. وموات الأرض يزكو نباتها بلا علاج، وإذا أنبتناها نحن لم تصف عن ازدواج سائر الأزواج، إلا بجهد من الزارع في حصد الكلاء، وقلعه وترتيب ما أنبت من زرعه.

فقال: لقد ألقيت علينا أسرار أمورك، وأفضيت إلينا بشطورك، ولم نزل نسمع حديث الواسطة، وكنا نتفزع من تسمية الرسول بها، فكيف حقيقة الأمر فيها؟

قلت: ما يتقرب به إلى الله تعالى بأمر الله واسطة لا شك فيه، وإنما المنكر هو القول بسقوط حق الواسطة بعد وصول العبد إلى ربه. فالأصل رؤية الحق لغير الله شرك، إلا أن يكون بأمر الله، فيراه العبد طاعة لله، وتلك الطاعة لا تسقط بمعرفة الرب، وإنما تسقط بسقوط الأمر.

وإنما مثل الرسول مثل وزير الأمير في الشاهد، قد أمر الناس بالرجوع إليه وطاعته، ومثل العارف مثل النديم قرب من الأمير لمكانته، وإن النديم الواجب عليه طاعة الوزير وتعظيمه، طاعة للأمير بل عليه، وأوجب من غيره. فلزوم الطاعة بقدر العلم، وعلمه عيان، فكان أحق من علم غيره بالخير، ولهذا كان أبو بكر رضي الله عنه أطوع الناس لرسول الله ﷺ، فقد صدق به كما جاء بالصدق من غير مكث، ولم يفارقه وقد أودى، ولم يتخلف عنه وقد هاجر، ولم يخلف لأهله قوتاً حين استقرض ماله لله تعالى.

فقال الأخ:

لقد تكلمت بفصول من الأنوار، فما عليك لو جمعتها في فصل تحليلها

المدار.

قلت: قد ثبت أن الله تعالى خلق هذه الدنيا لهؤلاء الوري، كما خلق لهم الآخرة، ولا شك أن من خلق له الدنيا والعقبى أفضل من الدنيا والآخرة. والفضل للضياء في مقابلة الظلماء، والأنوار ظاهرة من السماء، وهؤلاء الوري مخلوقون من الأرض، فلا شك أن فيها أنواراً باطنة، يقف عليها البصر الباطن من القلوب، أضواء من الأنوار الظاهرة التي يقف عليها البصر الظاهر من العيون.

ثم لا شك أن الأنوار جمعت في القبضة التي خلق منها آدم عليه السلام، فمنه خلق جميع هذا العالم. ثم أنوار السماء بأربعة أنواع: نور الشمس ينسخ كل نور، ونور القمر دونه، ولكن يكتفي به للمسير، ثم نور النجوم المعروفة دونه، ولكن يهتدي به البصير، ثم نور النجوم التي ليست بمعروفة، ما بها هداية ولا تنوير.

وكذلك أنوار القبضة على هذه الأنوار الأربعة: نور النبوة، ثم نور الخلافة، ثم نور العلم، ثم نور العقل.

نور النبوة:

طلع نور النبوة بآدم عليه السلام، ثم لم يزل يرتفع ظاهراً ومحجوباً بغمام، ومتجلياً ومكشوفاً، حتى بعث محمد رسول الله ﷺ رسولاً، فقد أضاء حاجب نور النبوة برسول الله ﷺ، والشمس مكشوفة في كبد السماء، فتجلى به حاجبها، ثم لم يزل يزداد تجلياً حتى كمل، فكمل به الدين، وتمت النعمة [على] المؤمنين، ثم غربت بموته غروباً، ما لها طلوع إلى يوم القيامة.

نور الخلافة:

وظهر بعده نور الخلافة، ظهور نور الهلال تلو غروب الشمس، فلولا قربه من الشمس، وتأيده بنوره، ضل الساري في مسيره، لكنه إلى ازدياد وكمال، فتكون العزائم بذلك السبب قوية، والأمر بتأيده بنور الشمس سوية، والهلال - وإن دق - فعزيز مطلوب، ونوره - وإن رق - منتفع به حسيب مرغوب، فقد وافق وقت نوره وقت أثر نور الشمس، ومدة بقاءه حين حاجة الجنس، ما بين هلال يزداد إلى كمال، وتجلي حاجب الشمس يزداد إلى تمام، إلا أن ذلك النور أغلب، وإن كان هذا من غيره أثقب، وذلك التجلي أسرع، فمداره على الليالي.

وهذا مثل خلافة أبي بكر رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ، فقد أضاء حاجب نور النبوة برسول الله ﷺ، وازداد إلى كمال، فينسخ كل شريعة، واستقامت قناة الدين بكثرة المسلمين، وقوة المؤمنين. فلما توفي رسول الله ﷺ، وغرب نور النبوة، ارتدت العرب عن الزكاة، فاعوجت القناة، وأقبل ظلام الكفر، وخولف أبو بكر رضي الله عنه وحده عليهم متأيداً بأثر نور النبوة، تأيد الهلال بأثر نور الشمس، فاستقامت القناة، وهدى بالنور، ثم لم يزل كان إلى ازدياد، حتى صار كافياً شافياً.

ثم سلم إلى عمر رضي الله عنه القناة وهي مستقيمة، فجد عمر رضي الله عنه حتى طول القناة وقواها، وتم القمر بدرأ. ما زاع، ولا طغى، ولا ضعف ولا توانى، حتى قتل رضي الله عنه.

وسلمت القناة إلى عثمان رضي الله عنه وهي مستقيمة قوية، وقمر الخلافة بدر، فظهر النقصان في أيامه ظهوراً أخل بالاستقامة - وإن قل - على مثال نقصان البدر، فإنه يوافق وقت الحاجة إليه من أول الليل. ولان عثمان رضي الله عنه عن تقويمها مخافة أن تنكسر، فالاعوجاج كان ببغي طائفة من المسلمين عليه، فخاف

فرقة بين المسلمين في قتالهم، فصبر لهم، حتى حلّ به القتل صبر هارون عليه السلام في قومه.

فتسلم علي رضي الله عنه القنّاة وبها عوج فسق، فاشتد علي رضي الله عنه لتقويمها ببأسه وسيفه وجنده، فعجز. وغرب نور الخلافة بقتله رضي الله عنه. فقال رسول الله ﷺ: «**الخلافة في أمّتي بعدي ثلاثون**»^(١) وتمت الثلاثون بأيّامه.

نور العلم:

ثم صار الاهتداء بنور العلم، فإنه بمنزلة نور النجوم المعروفين، والعلماء لا يكونون إلا خواصاً من الناس معلومين، وهم الذين قد أبصروا بنور عقولهم حجج الله تعالى وآياته، فصاروا هداة مرضيين - لكن بلا سلطنة - وأمر كالنجوم المعروفين بعد الشمس والبدر، والساري بنور النجوم خائف الضلال أو الهلاك في كل فصل، فما يبلغ نور النجم مواقع النعل.

نور العقل:

ثم يؤول الأمر بعد نور العلم إلى العقل بلا شرع - في الأغلب - ألا وهو أسير لهوى أمير، لا يشير على الهدى بل يشير إلى طريق الهوى. وإنه بمنزلة النجوم التي ليست بمعروفة، فالعقل مرزوق للجنس، والجنس غير محصور، وأكثرهم في ضلال. فدل هذا التمثيل على تفاوتهم على هذا الترتيب، وشهد بذلك سيرتهم الظاهرة وآثارهم الصادقة.

فقال الأخ:

غرب نور الخلافة بموت علي رضي الله عنه، فما بعدها أتغالب أم ماذا؟

قلت: إنما هي إمارة ملك، فالأسماء التي يدور عليها مصالح الدين والدنيا أربعة:

- ١ - **النبوة:** وإنها مؤيدة بآيات من الله قاهرة، لا يخاف فيها زيغ.
- ٢ - **ثم الخلافة:** وأنها مؤيدة بآثار أنوار من النبوة زاهرة، لا يخشى [معها] ضلال. فالخليفة لا يكون خليفة إلا باستخلاف، والمستخلف مؤتمر لا محالة، وما مع الائتمار ضلال. ولما قلنا إن الخلافة من نور النبوة، كالقمر من الشمس ونور القمر لا يكون إلا من الشمس على قدر مقابله إياها، على ما سبق القول فيه.
- ٣ - **ثم الإمارة:** فقد أمر رسول الله ﷺ كثيراً من الصحابة - وكما سموا الخلفاء

(١) رواه الترمذي في سننه وابن حبان في الصحيح ج (١٥) ص (٣٩٢).

الراشدين خلفاء راشدين سمووا الأمراء المؤمنين، غير أن الإمارة من الأمر، والأمر بالولاية، والولاية تكون بتولية كالخلافة، والمولى مؤتمر كالخليفة، والغالب أمر، وفيه فساد الدين. فما للعبد أمر من عنده.

٤ - ثم الملك: فقد أخبر الله تعالى أنه أتى آل إبراهيم الكتاب وملكاً عظيماً، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص: ٣٨]. إلا أن المُلْك من المِلْك، والملك يكون بإعطاء ويكون بأخذ، والممنون عليه بالإعطاء شاكر، والمستولي بالأخذ قاهر، وفيه ذهاب الدين، فالقاهر هو الله تعالى.

فأما مصلحة الدنيا فباقية، ما لم يجيء التغالب، ففيه التفاني. ذهبت النبوة بوفاة الرسول النبي الأمي والخلافة بوفاة علي رضي الله عنه، والإمارة بذهاب بني أمية، والملك منقضى بانقضاء بني العباس رضي الله عنه. وقد جاء التغالب أو قرب، غير أننا سميناً ما لبني أمية إمارة، لأنهم قاموا وقعدوا، وفعلوا وتركوا، ما ثبتوا مؤتمرين كالخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، وسمينا ما لبني العباس ملكاً، فما كان فيهم من له سابقة كسابقة معاوية، ولا أحد كزهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما، فكانوا دونهم بدرجة، كما كانت بنو أمية دون الخلفاء الراشدين بدرجة، رضي الله عنهم أجمعين.

أما الدين فقد علق قوامه برهط أربعة: رهط الأنبياء صلوات الله عليهم، ورهط الصحابة رضوان الله عليهم، ورهط التابعين، ورهط الصالحين.

أما رهط الأنبياء صلوات الله عليهم: فالقلوب ما تسلم عن منام الغفلة، ومع النوم لا تسلم الهفوة، وإنما قامت قناة الدين بالأنبياء عليهم السلام بوحي من الله تعالى، وتحريك من قبله بآياته، حتى طار النوم كله عن قلوبهم، وعصموا عن الزيغ والضلال، وكان قد خفي أثر نور النبوة بفترة كانت بين الرسول محمد عليه الصلاة والسلام، وبين عيسى عليه الصلاة والسلام واندرست أعلام الدين، وغربت شمس الحق، فقام برسول الله عليه السلام الحق، حتى تم القوام واعتدل ولاح، وظهر بعلم يقين، وعمل مبین، وقول صادق وإلزام قاهر.

فانتقل من بعد الرسول عليه الصلاة والسلام أمر الدين إلى الصحابة، وذهب سبب علم اليقين - وهو الوحي من الله تعالى، وبقي العمل والقول والإلزام، والإمارة كانت للعلماء.

ثم انتقل إلى التابعين، فذهب الإلزام القاهر من العلماء لما انتقلت الإمارة

إلى غيرهم، وبقي القول والعمل، فكانوا يعبدون الله مخلصين، ويفتون بالحق صادقين، وما في العمل ولا الفتوى مدهانة.

ثم انتقل الأمر إلى الصالحين، فاختلفت سيرة السلف المتقدمين، وفتن الشأن إلا نادراً، بعدما كان ظاهراً. بقي القول بعدما تغيرت فيهم المذاهب، ولا تبدلت الطرائق، يعتقدون بالحجة، ويفتون عن علم.

ثم انتقل الأمر إلى القرن الرابع، فذهب القول أيضاً إلا على سبيل الندرة، وما لها من عبرة. وصار الإسلام غريباً معني، كما بدأ غريباً دعوى، وآل الأمر إلى اتباع الرجال دون الحجة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً»^(١). وقال: «خير الناس رهطي الذين أنا فيهم، ثم الذين يلونهم. ثم يفسو الكذب، حتى أن الرجل يشهد قبل أن يستشهد، ويحلف قبل أن يستحلف»^(٢) وحتى اتبع كل رهط واحداً من علماء التابعين والصالحين، ما يستجيز مخالفة صاحب مذهبه، وهو رجل مثله من الأمة، ويستجيز مخالفة حجة الله القائمة عليه، بخلاف عقيدته من كتاب الله أو سنة رسول الله - وفي ذلك مخالفة صاحب مذهبه - فإن صاحب مذهبه ما استجاز اتباع واحد بعينه بعد رسول الله ﷺ، بل اختار قول البعض من سلفه، وقول البعض في أخرى على حسب ما شاهده له حجته بصحة قوله، متمسكاً بكتاب الله في العمل بالحجة دون اتباع النظراء والآباء.

ولولا غروب آية الذين من القرن الرابع - وإلا بقي العمل بالحجة ولو بقي بها - لم يكن أبو حنيفة رضي الله عنه صاحب مذهبه، ولا علي، ولا عبد الله بن مسعود رضوان الله عليهما، وأهل الكوفة تلقنوا منهما، وكما لم يكن لأبي يوسف ومحمد رحمة الله عليهما - وهما تلميذاه - وأعلم الناس بحجته، وأشهدهم ورعاً في مخالفة الإسناد تعنتاً. فكيف يجوز ذلك والفتوى بالقياس فتوى بغالب رأيه، لأنه حينئذ يصير طريق الإصابة طريق اليقين. وذلك باطل حتى لا نجد الرجل اليوم من العلماء يتعصب لنصرة قول الخلفاء الراشدين، ويتشمر لنصرة أبي حنيفة رضي الله عنه أو الشافعي رحمة الله عليه.

فلولا اتباع هوى النفس، لأخذته حمية الدين في نصرة أقوال الصحابة. فلما

(١) رواه مسلم في كتاب (الإيمان) باب (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ وهو يأرز بين المسجدين) حديث رقم (١٤٦).

(٢) رواه البخاري بنحوه في كتاب (الشهادات) باب (لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد).

لم يأخذه واستجاز الترك والقول - على ما شهد له - بصحة الحجة، فكيف لم يستجز بمثله في التابعين أو الصالحين. على هذا أدركنا إلا من غرب فيهم، فقليل من عباده المهتدون.

مراتب الزمان والمكان من الدنيا:

فقال الأخ: لقد بلغنا الأمَد الأقصى في علم مراتب الورى، وقد بقي علم مراتب الزمان والمكان من الدنيا، فقد امتحنا بأحكام متعلقة بهما، كما امتحنا بتعلقها بالورى.

قلت: نعم، إن الإنسان خلق من قبضة مسلوقة من الأرض، وكان الفضل معروفاً من حيث الصورة للرأس والوجه للصدر، ونهاية الفضل للقلب، وكان القلب لله على الخصوص. ثم تفرقت القبضة عالماً كثيراً.

وكان الفضل من حيث المعنى لنور النبوة، ونور الخلافة، ونور العلم، ونور العقل - على ما قلنا. والنهاية لنور النبوة، وكان الأنبياء عليهم السلام عبيد الله تعالى على الخلو، فكانت النبوة من الأنوار الأربعة، كالقلب من الأعضاء الأربعة.

ثم محمد ﷺ كان من قبضة النبوة، بمنزلة القلب من الجسم - على ما سبق القول فيه - وقد ظهر ذلك بكتابه، فكتب الله المسماة أربعة، وقد وجب الرجوع إلى القرآن، كما وجب رجوع كل الجسم إلى القلب. وكذلك المكان قد رجع فضله إلى مواضع أربعة: بيت المقدس، والمدينة، والحرم، والكعبة. فبيت المقدس كالرأس، والمدينة كالوجه، والحرم كالصدر، والكعبة كالقلب، فكانت لله على الخلو، والله تعالى، وإنما خلصت بإعداد العباد إياها للصلاة التي هي لله تعالى على الخلو، والكعبة خلصت لله بحكم الله، لا صنع للعبد فيه.

وكذلك الأزمان المفضلة أجزاء أربعة: أشهر الحج بمنزلة الرأس، ورجب كالوجه، وشعبان كالصدر، ورمضان كالقلب، فكان شهر الله تعالى على الخلو بحكم الله، لا بإعداد الناس. فصارت القلوب في المعنى أربعة: قلب كل جسم، وقلب جملة العالم، وقلب المكان، وقلب الزمان. والعلم عليها خلوصها لله تعالى، وقد جمعت لرسول الله ﷺ قلب جسمه وقلب جملة العالم - على ما بينا أن قلب العالم شجرة النبوة، والنبوة قلب معاني القبضة، وقلب الأرض فمكة مولده، وقلب الزمان فشهر رمضان شهر صومه.

فقال الأخ: قد كنت قلت من قبل: إن مكة رأس، والمدينة قلب، فكيف ناقضت.

قلت: كلا، فذلك التفصيل مني على قدر المستنبط من الحكم، وهذا التفصيل على الظاهر من القسم، وقد ذكرنا أن الظواهر غير البواطن، على أن القول الأول كان قولاً بجتهاد. فلا يوجب العلم والاعتقاد، ولكنه مجوز، ولا يمنع غيره.

وجملة القول فيه: أنه يجوز أن تكون هجرة النبي ﷺ إلى المدينة لحكمة أن الكعبة - وإن كانت بيت الله، وقلب الأرض، وأفضل بقعة - فواسطة بين العبد وبين الله تعالى، ما يصار إليها إلا بأمر، وذلك في الحج والعمرة دون المجاورة، على هذا التأويل قوله عليه الصلاة والسلام: «لعن الله اليهود، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(١). وإن كانت القبور معظمة مزورة، لأنهم عظموها حال الصلاة بغير أمر.

ولهذا كره أبو حنيفة رضي الله عنه مجاورة الكعبة، ولم يتوطن بها أحد من الصحابة ولا من المشهورين من علماء الأمة، ولهذا كان عمر رضي الله عنه يفرق جمع الحجاج بعد قضاء النسك إلى أوطانهم.

ويجوز أن تكون الهجرة لحكمة أن لا يكون مكان أضيف إلى الله تشریفاً مضافاً إلى من دونه تعريفاً، ولو أقام الرسول ﷺ بمكة، لأضيف إليه كما أضيف إليه المدينة ومسجدها.

ويجوز أن تكون الهجرة لحكمة بيان فضل الإيمان على المكان، كانت أفضل بقعة، ولزم أهلها الهجرة إلى المدينة لمكان الملة.

ويجوز أن تكون الهجرة لحكمة بيان فضل المدينة باطناً، وإن كانت مكة أفضل ظاهراً، على ما سبق القول فيه آنفاً.

فصل

في فضل البشارة

فقال الأخ: وعدت البشارة وأنجزت، فما عليك لو جردت لها فضلاً وأوجزت؟

(١) رواه البخاري في كتاب (الجنائز) باب (ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور).

قلت: إن للآدمي من حين انفصل عن الأم إلى أن يستقر بدار الجزاء منازل أربعة: ظهر الأرض إلى أن يموت، وبطنها إلى أن يبعث، والمحشر إلى أن يحاسب، ودار الجزاء بعد الحساب.

مراتب العلماء:

فإن الله تعالى وعد له مرتبة الخلافة وهي شبيهة بالوزارة على ظهر الأرض، متى ثبت على طهارة الفطرة - إما بنبوة على الحقيقة، أو بعلم على الورثة، حتى كان رأي الفقيه في الأحكام حجة بمنزلة الوحي، وأعلى مراتب الوزير أن يفوض إلى رأيه الأمور إلا مرتبة القرب من الأمير. ووعد له مرتبة الضيافة في بطن الأرض، حتى انتقل من ظهرها على مرتبة الخلافة، فيقول الله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠].

ووعد له مرتبة الحكومة يوم الحشر متى كان على الضيافة في القبر، قال الله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. والشهادة من الشاهد على مرتبة الحكومة، والخصومة من الصدر مع الحاكم، وقوله كقول القاضي حجة.

ووعد له الملك الأبدي في دار الجزاء، متى كان في المحشر من الشهداء، فهذا لك من الله تعالى الخلافة، وأنت حي في الدنيا، والضيافة وأنت من الموتى، والشهادة والناس على دعوى، والملك وملوك الأرض وأتباعهم في اللظى. ذلك كله بأربعة: إيمان بالقلب بالله، والإسلام بالجسم لأمر، وكفر القلب بالنفس، وعصيان الجسم للنفس بحكم نهي الله.

وفي الإيمان نور، وفي الإسلام سرور وفي الكفر راحة، وفي العصيان عزة - على ما سبقه القول فيه - بل بشيئين: أن يرضى بالحكم الذي ما لغير الله فيه خيرة وأمر، وأن لا يعمل طوعاً إلا يشرع عمل - بدن كان أو صدر - فتصيب بالرضا سلوة قلبك، وبالاتِّمار نعمة ربك - وإن سبق عمل بغير أمر - كرهاً بطبعك أو غيرك كان عفواً. ولكن لا اعتداء إلا بالله تعالى، ولا ائتمار إلا بتوفيق الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، إليه نرجع، وبه نستعين، والصلاة على محمد وآله أجمعين.

مراتب العامة من المؤمنين:

قال: هذه مراتب العلماء، فما العامة من المؤمنين؟

قلت: إن كل واحد من المؤمنين أمين الله في حياته، فقد شرحنا بدءاً أن الله

تعالى خلق العالم كله خلقاً بعد خلق، لحمل الإنسان منه أمانته، وهي أوامره ونواهيه، وأصلها معرفة الله، وهي النور الذي كان لأجله الصنع بماهيته. وكان ذلك بمنزلة الكنز لملوك الأرض، وكان العبد بمنزلة الخازن للملك، وقلبه بمنزلة خزانته. وقد أمر الله تعالى - وهو مالك الأمانة - صاحب كل قلب عارف يحفظه إلى أن يصير إلى الآخرة مجاهداً بصدقه، فقد خلق، في دار الأعداء، وضمن له النصر على خلقه، بعدما وضعه موضعاً لا يصل إليه يد أحد من الأعداء بحيلة ولا غلبة. ولا يقدر على قهره بأمره ولا طلبه إلا أن يجبن العبد فيطيعهم جبناً، أو ينخدع بغرورهم، فيساعدتهم جهلاً، أو يغفل عن قدر الكنز، فيضل عنه تهاوناً، أو يجهل بقدر نفسه فيرده تكبراً. وأن الجبن في رجوع العقد إلى ضعفه بالبعد عن ربه رؤية بعينه، وكلا فإن الله أقرب إليه من حبل الوريد، وأقوى بلا شك من كل العبيد، والانخداع من رؤية زخارف الدنيا وطبقات الوري. وكلا فما عنده من الكنز هو الخير والنور وما سواه، فما عند الأعداء غرور. فالقسام حكيم، لا يؤثر الأعداء على أوليائه بالنعيم.

مراتب الذين لا معرفة لهم بالله :

وأما الطبقات من الناس لا معرفة لهم بالله فأعداؤه وحساده، وما لهم عليه من سلطان سلب الدين والإيمان. فلا نغترن بهم اغترار التاجر في سفرة بأسلحة اللصوص وطراداتهم ودسيسهم وكلماتهم، يحفظ ما عنده من الجواهر وإن كانوا عساكر، فالحفظ في المجانبة إذا أمن المغالبة.

وأما الغفلة عن قدر الكنز: ففي التدين اقتداء بآباء وأتباع للنظر، فما الدين ممّا يقبل النقل إرثاً، ويصاب عادة وحساً، وإنما الوصول إليه من طريق الاستدلال بآيات الله، والنظر في كتبه. فمن تدين إرثاً هان عليه الدين، فما الذي أصابه بدين يأنس به، ولكنه دين يستوحش منه.

وإنما الجهل بقدر النفس فبالغفلة عن المنعم بالنعيم، وبقدرة النفس عن خالق القدرة، فإنه متى غفل عن خالق القدرة، ولو بخطر ادعت النفس الآمرة، واستعبد الجسم وبدل الاسم، وقال: إني الإله المطاع والناس عبيد لي أتباع.

فإذا تنبه العبد بخالق قدرة النفس، عرف قدرها ونهاها عن الهوى وخاف مقام المولى. وإذا عرف الله تعالى بالنظر في آياته، ولم يغتر بالزخارف والطبقات، ولم يجبن في الجهاد ومعه مولى العباد، وعاش على ظهر الأرض خازناً أميناً، معصوماً مهيباً، وفي بطن الأرض مبشراً بالخلعة، منتظراً للكرامة، ويوم البعث

محياً بالسلام، مهياً بالإكرام، وفي الجنة معظماً بالولاية وحسن العناية. وهذه الدرجات كبيرة، وإن كانت الأولى أكبر. يقول الله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

أسباب هلاك الإنسان :

وسبب هلاك الإنسان بعد كل هذا الإحسان والبيان، بجهلين في علمين في حق نفسه وربه، وجهلين وعلمين في حق العالم والخالق.

الجهل والعلم في حق النفس :

أما الجهلان الأولان: فجهل المرء بمولاه حتى اتخذ إلهه هواه، ولم يسع وإن عملت همته وصفت حكمته، إلا لاقتضاء شهوة من ملك أو مال، أو رفعة على علم ضروري بارتداد كثير مما يريده ويبتغيه، مساس ما يرده من المكاره ويتقيه.

ثم جهل المرء بنفسه بعد العلم بمولاه فتسلكه النفس بهواه في طريق هداه، فيطلب بالدين والتقوى ما طلب الجاهل بالمولى، فيكون الهدى مزيفاً بالهدى، والهوى منغصاً بالهدى، على يقين منه بهجس هوى الطبع بخلاف الشرع. فدلّت الإرادة على المرید كما دل الارتداد - في الفصل الأول - على العجز والخمود.

ولعمري إن طالب الدنيا بالدنيا خير من الطالب بالدين، واقتضاء الشهوة بلا تقوى ألد من المشوب بالتقوى بيقين، والجهل بنفسه وهو فوق الجهل بمولاه. وإن كان الجهل الأول كفراً كان الثاني شركاً، والشرك أفحش الكفرين وأقبح الأمرين.

أما العلمان المهلكان من هذا القسم: فعلم المرء بقدرة نفسه على الخلوص، أو قدرة الله على الخصوص. فمن ظن القدرة لنفسه خالصة سمى نفسه إلهاً من الآلهة، وغالب واستبعد، وما أطاع ولا عبد، وذلك بنظره إلى حسن تدبيره وسعيه مختاراً إلى أموره، فكان في خطبه وأتباع هواه فوق الجاهل بربه وهداه.

فالجاهل بربه جاهل شغلاً بهواه، والهوى معلوم طبعاً، فإنه: حركة مراد فيه يتبين هجساً، وهذا شغل عن قدرة الله بقدرة نفسه، والنفس صاحبة الهوى عن طبعه وحسه، ما تعلم إلا باستدلال عقلي أو سماع فرعي.

ومتى علمها المبرأ دون ربه كان أطوع لها ممن جهلها بقلبه، وإنه ليرد عليه هذا العلم ما يرد على صاحب الهوى ذلك الحكم. فارتداد ما تهواه النفس الأمارة أكثر من الإصابة، ولن يصيب شيئاً بحال ما لم يكن الجسم على إجابة.

تم العلم بالله على الخصوص لكونه خالقاً، ولا خالق بلا قدرة، وكون

العالم مخلوقاً، ولا قدرة مع انخلاق ممتن ادعى القدرة لله تعالى على الخصوص، لم ير لنفسه فعلاً كما لم ير للجماذ أصلاً، وأضاف حدوث الأفعال إلى الله تعالى إضافة الأجسام، فرآها كلها حسنة، فما فعل الله بقبيح، فيتبرأ عن الآثام وأتى بكل ملاهي، وركب المناهي، وهو عالم بالله غير ساهي، والعصيان بعد العلم فوق العصيان على جهل، بعد حجة قائمة على قدرته بحركات اختيارية ظاهرة، وتدبيرات عقلية باطنة، فكانت هذه الغفلة فوق الأولى، فقد غفل عن ظاهر منه.

الجهل والعلم في حق العالم:

فأما الجهلان الآخرا بعد العلم بأن الله تعالى خالق والعالم مخلوق. فالجهل بكون المضار والمنافع من الله تعالى بقدر، حتى يراه من العالم الأصغر والأكبر، فيشتغل بالعالم دون خالقه رغباً أو رهباً في طرائقه، فيصير كافراً جناناً، وهو مؤمن لساناً، يشهد على كفره فعله، ويكذب شهادة لسانه عقده، وإنه لشر الثلاثة. فقلبا الأولين كانا مع لسانيهما، فكانا بالقلب واللسان مقبلين على ثانيهما، وكذلك الشأن كل من أحب شيئاً فإنه يعمى وهو بصير، ويصم وهو سميع، كما كفر هذا وهو عارف بقلبه وبظاهره مطيع، وعلى الأساس عامة الناس، على ما قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. بلا عقد سمع وطاعة، ولا إيمان بالجزاء والساعة، مع قيام الحجة على أنها من الله تعالى، وكم من طبيب مات قبل الجاهل، وكم من بعيد عن الطبيب عاش دون الواصل، وكم من حكيم وضعته دولته، وسفيه رفعت دولته، وربما غلا في هذا العالم، وترك الظواهر بالطبائع، وخالط الأطباء، وعد نفسه من الحكماء.

وإنه باب باطن، آخره سر عن علم البشر، فينشغل به عن معرفة الأكبر، وربما أخطأ فقتل نفسه فيما دبر، وربما جاوز علمه بطباع نبات الأرض، وأوقات الزمان إلى الفلك والشهب، ودقائقها خفية، لا تدرك، فيزداد ضلالاً، وربما ظل في طريقه الأول غافلاً عن ضلاله، فيطلب شيطاناً وهو فيلسوف عنده بحاله، وكان كطائر في الهواء بلا جناح، وراكب فلك بلا ملاح.

والجهل الثاني: الجهل بتعلق المضار والمنافع بالعالم أصلاً، فيرميه رمي القدرة، شغلاً بالله وفي القدرة، فيصير خلقه لديه عبثاً، والإقبال عليه سفهاً، فيكفر بالله تعالى، وهو منقطع إليه، ويسبقه ربه وهو واقف لديه، فكان شراً من صاحبه. فإنه زل وهو مع الدنيا، وهذا ضل وهو مع المولى، وذلك عمي رجوعاً إلى الخلائق، وهذا عمي ركوناً إلى الخالق، وهذا سفه ربه وإنه فوق من حكم قلبه.

وعلى هذا عامة أولياء العزلة، قبل العلم بحقيقة الملة، بعد آيات ظاهرة لله على تعلق المضار والمنافع بالدنيا والورى، فبعضهم يقتل بعضاً، ويحييه ويحرمه، ويؤليه وينفعه ويؤذيه، وكذلك من النبات ما يمرضه ويشفيه، ومن النجوم ما يضع قدره ويعيله، وكم من أرض تنبت قوته وتزكيه، وكم من رسول من الناس جاءه يهديه، وكم من بقعة تعلق بها النجاة ووقت تعلق به ابتغاء المراضة.

وأما العلمان المهلكان: علم الناس أحراراً ملاكاً بظاهر أيديهم وأمورهم، وأمراء وملوكاً بظاهر علوهم وتديبرهم، فيميل إليهم لإرادة صلبة، أو غلبة على غفلة، وبمعاداة بعضهم بعضاً، ومنازعتهم على الأرض طولاً وعرضاً، طمعاً أو حسداً، والمائل إلى عدوه راكناً إليه مرحوم، وسائلاً محروم.

ثم علم الأرض جنته بما يرى عليها، والسماء زينته بما ينزل منها، فيطلب موافقة النجوم بحسابه، ومعانقة الأرض بطلابه على غفلة من التقام الأرض إياه، وهو بين ملك، وانتقام النجوم بنجوستها سنه، وهو في حساب الفلك. ولا عذر له على الغفلة، فالانتقام بعد الموت ظاهر، وشهاب العداوة بين الناس ثائر. فالأول جعل خلقه العالم عبثاً، وهذا جعل العالم بعضه مُلكاً وبعضه خولاً، وبعضه خدماً، وبعضه مُلكاً.

والعلم الآخر: علمه الناس عبداً أرقاء لله، وما سواهم حقاً لله، فكيف عن العمل به كأنه جماد، فعمل العبد ملك لمولاه، وكيف بهذه الحجة عمن سواه، على غفلة من ضروب أعمال، وحركات اختيارية من العباد، لا يمكنهم الكف عنها لابتغاء مراد، وغفلة عن تربي الأطفال برضاع النساء، وقيام الرجال وقيام النفس بما لا يصل إليه شيء من خيرة إلا بمقدمات من غيره، وبقاء الجنس عن طريق ازدواج النفس بالنفس، ولا عذر له فالأمور عيان غير مفتقر إلى بيان.

وهذا أعز الجميع وصاحبه اغتر بالنعيم، فلم يشكر، وهذا كفر بالنعمة وأنكر، وإنكار النعمة فوق الإقرار بها بلا شكر بدرجة، مع أن الأول عاش بالناس مستأنساً بهم، وبالأرض منتفعاً بها، وبالنجوم مهتدياً، وهذا بالكف أهلك نفسه بالنار الجوعة في وحشة الوحدة.

واعلم بأن النجاة في تبديل الجهل كله بالعلم فالجهل ظلمة والعلم نور، والعلم كله في التجاوز عن علم المقصر، والوقوف عن علم الغالي، ففيه الحكمة، فالغالي من جاوز حد العلم، والمقصر من لم يبلغه، ووراء حد العلم جهل، كما

دونه وجهل الغالي شرهما، فإنه لا يعلم إلا برجوع، والمقصر يعلم بإقبال، والرجوع بعد السير أشق على النفس من زيادة أميال.

النجاة من الهلاك:

فنقول وبالله التوفيق: إن الوسطة من الباب الأول أن يعلم المرء نفسه عاجزة بذاتها، لولا طاعة الجسم إياها لما ارتفعت له شيء من إرادتها، فيعتقد طاعوتاً، ولا يظنها إلهاً، فهو القادر، فيكفر بها ولا يطيعها، بل يقهرها ثم يعلم حياة الجسم بها، ولا قوة له على أداء ما حمل من الأمانة، وإقامة ما فوض إليه من أمور الخلافة دونها، فيحسن إليها ويبرها فيهيئها لعجزها في ذاتها، ويبغضها لهواها، ويقبلها ويحسن إليها لعونها بحالها على عمل الآخرة، فيكون الهوان أصلياً، والقبول حالياً.

ثم العلم بالله إلهاً، فما بعد النفس وقفة للتأمل إلا إليه، فيصير مؤمناً حقاً، وماضياً على السمع والطاعة صدقاً، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] الآية. وقال النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» بدأ بالنفي ثم بالإثبات، فصار النفي أساساً للتوحيد، والإثبات بناء، ولا بناء قبل الأساس. وعليه أكثر الناس، وكذلك لا يشبتون على يقينهم، وتنهار عليهم معالم دينهم.

ثم يطلب الوسطة بين علمي القدرة، فلا يعد نفسه قادراً مطلقاً كأنه إله، ولا عاجزاً أصلاً كأنه جماد، بل يرى القدرة له بإقدار الله إياه عليه حال فعله، حتى لا يعمل إلا وقد اقتدر، ولا قدرة له حال الفعل إلا بقدر، فقد عرف نفسه مخلوقاً، ومخلوقاً عاجزاً بأصله قادراً حال فعله على ما مر بيان من فصله.

وإياه والغفلة، فالعمل عن اختيار دلالة على القدرة، وإنه ظاهر، وكون الذات مخلوقاً دلالة على العجز، وإنه باطن، فيرى رب القدرة بحكم العجز، وإنه ذاتي، ونفسه بحكم القدرة، وإنه حالي، فتصير رؤية الله أصلاً وهذا فرعاً - كما بينا في الفصل الأول - وللأصل دوام، وللحال انقضاء يبدل، فيكون بقدر الوقوع، ثم يبدل الجهلين الآخرين بعلمين، فيعلم أن أصل المنافع والمضار من الله تعالى، منها ما علق بأسباب مسخرة، أو أفعال مختارين، ومنها ما أوجب بلا واسطة من المخلوقين، فلا يشغل بالسبب عن المسبب، ولا يغفل عن القادر بلا سبب، لتصير الأسباب قائدة إلى الله تعالى، بعدما كانت شاغلة عن الله تعالى، وقد بدل بما قلناه الجهل الثاني إلى علم، فقد أثبتنا النفع والضرر للعالم من حيث كان سبباً، وما

جعلناه أمراً لا فائدة فيه عبثاً، وكان الأصل فيها السلعة المرغوبة، وبها صارت الصنعة مثمرة.

فيصير الرغب في الله والرهب منه أصلاً ومن العالم حلاً، فلا يحب العالم ولا يخافه لذاته بل لله، فإنه من آياته. فيكون الحب من الأصل لله الخالق لا للعالم المخلوق، كما يجب حب الكعبة لأنها بيت الله عز وجل، وحب رمضان لأنه شهر الله لا لأنه زمان، ويجب حب الرسول وطاعته لأنه رسول الله لا لأنه الإنسان، فيصير العالم على هذا الوجه محبوباً لله ومذكراً حب الله، بعدما كان شاغلاً عن حب الله، وسبباً حال الجهل للكفر بالله.

ويصير العبد بقصده معرضاً عن العالم بأصله، فالسبب لا يقصده لنفسه، بل لإصابة البقية، ولا يباشر إلا عند الحاجة، وكان على مثال الغواص والبحر وصدف الدر، يركب البحر، ويغوص فيه لا له بل للآلئ.

ثم يطلب واسطة أخرى بين العلمين المهلكين، فلا يجعل الناس أحراراً ملاكاً على الإطلاق، ولا مملوكين، ما لهم شيء من حكم العتاق، ولا الأرض جنة نعيم ولا سجنًا للعذاب الأليم، ولا السماء رباً إليه القدرة، ولا لغواً لم يتعلق عليها، وبها خير ولا شر، بل يعلم الناس في أقسام أبدانهم مملوكين مترددين تحت الجبر كالجماد، وفي أقسام أفعالهم مختارين كأنهم ملاك، فلا يرى لنفسه المشيئة، فهو عبد في أصله، ولا ينكر الحرية فهو مالك فعله، فيقف بين حرمة وإطلاق للتبين، ولا تبين إلا بنظر واستدلال عقلي أو سماع شرعي، فما له إليه اهتداء بطبعه حتى يعقل، ولا بعقله حتى يعتدل، ولا اعتدال حتى يستدل، ولا تبين له حتى يسمع ما يدل، فصار الوقف متبيناً أصلاً، والعمل بعد الاستدلال حلاً، فلا يبدل الأصل بفعل على سبيل الخيرة إلا إذا قامت الحاجة، وفيه النجاة عن مهالك اللجة، فيصير له الانقطاع عن الناس أصلاً، فلا ولاية مع العبودية، وهي ثابتة لأصله، والاتصال فرعاً، فالولاية مع الحرية وهي ثابتة في حق فعله، فيكون مع الله تعالى بذاته، فهو عبده وملكه، ومع الناس بفعله، فقد ظهر فكه، فيصفو لله بذاته، ويهدي خلق الله بفعله، فيصير الناس إلى زيادة الهدى باباً، بعد ما كانوا حجاباً.

ثم يعلم ظهر الأرض سوقاً للإسلام إلى الله تعالى، الكريم ربه جلّ وعلا، بأدنى رأس مال في الملك العظيم، فلا يرضى بالسوق لعينها مسكناً، ولا بالعقل لذاته سكناً، بل يأتيها للمسلم فيه، ويستبطن حلول الأجل شوقاً إليه، فتصير الدنيا سوق التاجر، بعد ما كانت سجن العابد.

ثم يعلم ما على ظهرها من النعيم، أنموذجاً من الخلد الكريم، فيذوقه رغبة في السلعة ولا يقنع به، فما به سبعة، فيهيئه لذاته فما به كفاية، ويأخذه لحاله ففيه هداية.

ثم يعلم بطن الأرض وهي قبر، وظلمة دهليز الجنة، فمن القبر يقوم إلى الحشر، فلا يعده سجنًا، فالسجن بيت العقوبة، وهذا دهليز دار المثوبة، فيستارع إليه للخروج عنه لا للمقام، فهو في ذاته مظلم مضيق، وإنما حسن لأنه إلى الجنة طريق، فيدخله مسروراً بسلام وبشارة، بعد ما كان يكرهه بكلام وعبرة.

ثم ينظر إلى الفلك بنجومها، نظر إبراهيم عليه السلام في أمورها، فيجدها دليلاً على الله، فيعرض عمّا لذواتها، فجريانها على تسخير بدالاتها، ففي دلالاتها هدى ونور.

ولا تشتغل بعلم ما تعلق به من القدر، فإن خفيه سر عن البشر، وجليه مقرون بخطر. وإن علم، ولم يكن بيده، ولا فرار بجذ إلا بمن سخرها وأدارها وقدرها، فيتبرأ عنها إلى الله تعالى، مكان من ضل بها عن الله، وأحبها حب من هداه مكان بغض من أغواه، لكنه حباً بالحال على نحو ما مضى من الحقال في الغذاء والدواء والمسكن الشريف، وبيت الكنيف.

وتمام القول في القدر أن الناس فيه على أربعة أقسام: متبرئ من قدر الله بقدرته، فإنه لمتزندق. ومتبرئ عن قدرته بقدرة الله، فإنه لمتفسق. ومؤمن بقدرته عن قدرة الله بلا تفصيل. والقسم الرابع هو المؤمن بقدر الله، غير منكر لقدرته عقيدة، فارق بين الخير والشر إضافة قائل بأن أعمال الخير من الله، ليتبرأ بالإفلاس عن العجب وأعمال الشر ليعظم عليه حاله فيما عصى. فيتدارك بالتوبة، فيكون الاعتقاد صحيحاً وسطاً عدلاً من المسالك، محتزراً بتفرقة الإضافات عن المهالك، كما نطق الكتاب بمثله من أقسام الخير والشر، فقال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] والله تعالى هو المقدر للأمرين، والقاسم الحاكم على الحقيقة، وكذلك قال حكاية عن الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] ليكون إضافة المحبوب إلى الله تعالى سبباً لزيادة الرغبة في طاعته، والمحبة إياه، وإضافة المكروه إلى العبد لتذكر العبد ما كان منه من المعاصي فيتوب عنها ليخرج عن المكروه.

قال: أليس الله تعالى قال حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ

يُحْيِينَ ﴿[الشعراء: ٨١] أضاف الأمرين لله تعالى . وقال موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

قلت والله أعلم بتأويل كلامه: إن إبراهيم عليه السلام إنما أضاف الإمامة والإحياء إلى الله تعالى لأن قضاء الموت حتم، والآجال محدودة، وما خلقنا إلا للموت، غير معلق وجوده بسبب من العباد، كالإحياء. فلما لم يكن الموت بسبب من العباد لم تستقم الإضافة إلى العباد بلا سبب مهم. وأما الأمراض وسائر المكروه التي تجوز سلامة الخلق عنها، والابتلاء، في الجملة، فليست من الكائنات لا محالة في أصل الحكم، بل الله تعالى علقها بعوارض تكون من العبد، فصحت الإضافة إلى العبيد بكيونة العوارض منهم - وإن كان الله تعالى هو المقدر والقاسم - لأننا أضفنا إليهم المكروه، ليكون سبباً للانزجار عما أوقعهم فيه ليسلموا منه، ولا سلامة من الموت. بل تجب إضافته إلى الله تعالى هزماً لذاته، وتذكيراً لعجزه، حتى إذا آل الأمر إلى القتل، أضفنا إلى القاتل، لكيנותه بسبب منه، ولينزجر عن قتله بالتزام حكمة بصحة الإضافة إليه.

على أنني أوجب عليك إضافة الأمرين إلى الله تعالى ابتداء، لإثبات القدر لله - فهو الأصل. ثم استحسنت التفرقة من الإضافة بعد ذلك فراراً عن العُجب - وهو الحال - فلم تكن العبادة على ما عليه الأصل خطأ، وعلى ما عليه الحال حسناً.

فسبحان مَلِكٍ حق باطن، ابتلى بمعرفته كل قلب بصير، وطريق الحق خفي بين طرفي الغلو والتقصير، حتى عمي عنه الجاهلون، وضلّ العالمون عن السبيل، ولم يعرفه من العلماء إلا الوسط القليل، إبانة لعزته، ولم ير الوسط إلا بتوفيق منه، وعناية من لدنه، إبانة لمعرفته.

فله الحمد على ما أَرَانَا - وهو العزيز - وعلى ما هَدَانَا - وهو الرحيم - حمداً يستحق به الثبات لديه على السمع والطاعة.

وصلواته على رسوله محمد سيد أهل الساعة، وصاحب الشفاعة، وعلى آله الطاهرين وأصحابه أجمعين، والتابعين والصالحين، وعامة المؤمنين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.

فهرس المحتويات

٥	 مقدمة
٧	 ترجمة المصنف أبي زيد الدبوسي رحمه الله (متوفى ٤٣٠هـ)
٧	 نسبه
٧	 ثناء العلماء عليه
٧	 المشايخ الذين أخذ عنهم العلم
٧	 وفاته
٨	 من مؤلفاته
١١	 تعريف الحرية الإنسانية
١٢	 وسائل تحقيق هذه الحرية
١٤	 كتاب جهاد النفس
١٥	 الصراع بين الجسم والنفس والروح
١٩	 وسائل النجاة من الصراع
٢٠	 نتيجة هذا الصراع
٢٢	 كتاب حكمة أصل الخلق
٢٢	 لماذا فُضِّل الإنسان على الجان؟
٢٣	 لماذا سجدت الملائكة لآدم؟
٢٦	 كتاب الفصول الأربعة
٢٦	 أدوار الإنسان والفصول الأربعة
٢٨	 الرزق بين التوكل والتسبب
٣١	 حكمة تعليق الرزق بالسبب
٣٢	 اليد العليا واليد السفلى
٣٥	 حصاد الفصول الأربعة
٣٧	 كتاب العبودية
٣٨	 طرق معرفة المنعم أربع
٣٨	 طرق الرضا بالقسمة أربع

٤٠	 وجوه الإنقياد لكلمة الله تعالى أربعة
٤٠	 أقسام طاعة الله أربعة
٤١	 العبودية لله والعبودية لغير الله
٤٦	 كتاب الفقر
٤٦	 وجوه تحقق الفقر أربعة
٤٧	
٤٨	
٥٣	 أقسام الناس أربعة
٥٤	 مقامات أولياء العزلة أربعة
٥٦	 مقامات الأنبياء عليهم السلام في حق الدنيا أربعة
٥٧	 أقسام الناس في منازل الدنيا أربعة
٦١	 مصالح ترك الطمع أربع
٦٢	 ترك الفضائح الأربع
٦٣	 ترك الفرح
٦٤	 أقسام الأموال أربعة
٦٥	 مقامات المال أربعة
٦٧	 كتاب الأمر
٦٧	 طرق معرفة الأمر بالأوامر أربع
٦٩	 معرفة الأوامر الإلهية الأربعة وحكمتها
٧١	 العبادات رياضة وخدمة
٧٥	 مقامات العبادات
٧٥	 مقام الصيام
٧٧	 مقام الصدقة
٧٩	 مقام الحج
٨٠	 مقام الصلاة
٨٢	 حدود جواز العبادات وفسادها
٨٤	 أقسام العابدين
٨٥	 ١ - الفائز
٨٥	 ٢ - الخاسر
٨٥	 ٣ - المغرور

٨٦		٤ - الأحمق
٨٦		خطر العجب على الأعمال
٨٨		كتاب السجن والمملكة
٨٨		أربع خصال تتعلق بحال السجن
٨٨		
٨٩		
٩١		
٩٢		
٩٢		المحنة
٩٢		رغبة الإنسان في النعمة
٩٣		
٩٩		ذكر الدنيا، وصفاتها الذميمة
١٠٤		الدنيا في مقابلة الآخرة
١٠٦		فصل في التجارة
١١٠		شهوَتَا الباطن وشهوَتَا الظاهر
١١٣		فصل في العامل
١١٦		كتاب الميزان
١٢١		كتاب أقسام الناس في الدين
١٢٢		فصل في الصديقين
١٢٦		مقام النبي إبراهيم في النصرَة
١٢٦		مقام النبي عيسى في النصرَة
١٢٦		مقام النبي سليمان في النصرَة
١٢٦		مقام النبي موسى في النصرَة
١٢٧		مقام النبي محمد ﷺ في النصرَة
١٣٧		فصل في الفاسقين
١٣٩		فصل في الجاحدين
١٤٢		فصل في المنافقين
١٤٥		
١٤٦		مَنْ لَأَمِير
١٤٨		فصل في الوزير

١٤١		مَن لعالم
١٥٠		فصل في الزاهد
١٥٢		فصل في التقوى والمال وأعمال الوزارة
١٥٣		أعمال الوزارة
١٥٣		السياسة المالية والإدارية وواجبات الحكم
١٥٧		كتاب المحنة والحيلة
١٦٠		محنة تناول الغذاء
١٦١		محنة تناول الأدوية
١٦٢		محنة تناول النساء
١٦٢		محنة تناول أسباب المنايا والقتال
١٦٣		محنة سلامة ظاهر البنية عن القبح والدمامة
١٦٣		محنة إصابة الظاهر بآفات القبح والدمامة
١٦٤		محنة سلامة معنى البنية عن الآفات المكروهة
١٦٤		محنة إصابة معنى البنية بالآفات المكروهة
١٦٥		المحنة في معرفة الله بالقلب
١٦٦		المحنة في الطلاب والأتباع
١٦٧		محنة الجهل بالله
١٦٧		محنة ترك الدعوة لله
١٦٨		محنة استقامة القلب لله
١٦٨		المحنة في عقوبات الصالحين
١٦٩		المحنة في الدعوة
١٦٩		محنة الدعاة إلى الله من غير العلماء
١٧٠		فصل في الحيلة
١٧٣		كتاب الدعوة والرؤية والبشارة
١٨٦		دعوة النفس ودعوة الروح
١٨٩		فساد دعوة النفس
١٩٢		وحدة وجود الله
١٩٨		المحكم من القرآن
٢٠٠		المتشابه من القرآن
٢٠٥		من أسرار الإيمان وأبوابه

٢١٨	 علامات الداعي إلى الله خوفاً وطمعاً
٢٢٤	 فصل في الرؤية
٢٢٨	 نور النبوة
٢٢٨	 نور الخلافة
٢٢٩	 نور العلم
٢٢٩	 نور العقل
٢٣٢	 مراتب الزمان والمكان من الدنيا
٢٣٣	 فصل في فضل البشارة
٢٣٤	 مراتب العلماء
٢٣٤	 مراتب العامة من المؤمنين
٢٣٥	 مراتب الذين لا معرفة لهم بالله
٢٣٦	 أسباب هلاك الإنسان
٢٣٦	 الجهل والعلم في حق النفس
٢٣٧	 الجهل والعلم في حق العالم
٢٣٩	 النجاة من الهلاك